أبناء الآلهة ج.2

أبناء الآلهة ج.2

بوابة النجوم

رواية

ماريهام قديس

تصميم الغلاف: حسن العربي

رقم الإيداع: 2020/2336

I.S.B.N:978- 977-6640-76-4

الطبعة الأولى2020م

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطربة، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر: د. رامي عبد الباقي

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة©

ماريهام قديس

أبناء الآلهة ج.2

"بوابة النجوم"

رواية

إهداء

أبي وأمي

دائما

زوجي وابنتي

أنتما الحياة بألوان الربيع المبهجة

الأحداث التاريخية الواردة بالرواية هي أحداث حقيقية.

الأماكن التي ورد ذكرها، أماكن موجودة بالفعل.

الشخصيات التاريخية التي تم ذكرها هي شخصيات حقيقية.

الفصل الأول

القاهرة في منتصف القرن الـ 18

القاهرة في ذلك الوقت تختلف كليا عن القاهرة التي نعرفها اليوم، ولو أنك وضعت صورتين لنفس المدينة واحدة حديثة وواحدة ترجع للقرن الـ 18، لاندهشت من شدة التغير الذي أصاب المدينة.

طرق ممهدة بالتراب، والطرق الرئيسية فقط التي اهتمت بها الأسرة الخديوية وأمرت برصفها لاستقبال الضيوف الأجانب.

وبالطبع لم يكن تختلف الطرق الترابية عن الطرق المرصوفة في ذلك الوقت سوى في سهولة السير عليها، لا يمكنك أن تجد قمامة في كل ركن، أو دعاية إعلانية وسياسية معلقة تلوث المظهر الجمالي، أو حتى مكبرات صوت للباعة الجائلين أو في السيارات لتقتل هدوء الشوارع.

كان اليوم شتويا باردا رغم سطوح شمس القاهرة، الشوارع بها نشاط كثيف، العربات التي تجرها الأحصنة أو تحملها الجمال تخلق عاصفة صغيرة من الأتربة في الذهاب والإياب، خاصة في تلك المؤدية إلى الفنادق أو إلى الأهرامات، السياحة تزيد بشكل كبير في فصل الشتاء.

كانت مصر في ذلك الوقت مقصدا مفضلا للسياح خاصة الإنجليز والفرنسيين، الحضارة المصرية المكتشفة حديثا بعد اكتشاف حجر رشيد وفك شفرة اللغة المصرية القديمة أصبحت موضع إعجاب وإبهار وعامل جذب لكل الجنسيات، الكل يأتي ليروي فضوله باحثا عن الخلود.

صرخ الرجل بلغة إنجليزية غير متقنة وهو يضرب أحد الجمال معلنا وصول العربة مدخل القاهرة، فأطل الرجل الإنجليزي بقبعته المرتفعة التي كانت تدل في ذلك الوقت على الغنى والمال، من نافذة التختاروان لينظر القاهرة التي تكلم عنها أقرانه من التجار البريطانيين والأمريكيين، سرق الرجل نظرة سريعة وأغلق الزجاج مرة أخرى متجنبا سحب الأتربة التي تتصاعد نتيجة حركة الجمال.

كان " أشعيا ديك" وهو تاجر ومستكشف بريطاني المولد يقيم في أمريكا البلد حديثة البناء في ذلك الوقت، قد خاض رحلة طويلة بحثا عن مصدر ثابت لتصنيع الأوراق، حيث إن تجارة وتصنيع الورق كانت حديثة المولد ورائجة بشكل كبير في أمريكا، حين زاد استهلاكها بعد الإقبال الكبير على شراء الجرائد، اتجهت أولا إلى أوروبا لاستيراد ما يكفيها منه لكنه لم يكفي مع تزايد استهلاكه، بدأ بعدها البحث عن مصدر جديد لتصنيع الأوراق، سافر " أشعيا " إلى جامايكا في البداية وخاض رحلة شاقة لكنه فشل فشلا ذريعا، وعاد حاملا أذيال الخيبة، قرر بعدها السفر إلى مصر لممارسة هوايته في سرقة الآثار المصرية، تماما مثل أقرانه.

"أشعيا" هو ابن جيوفاني بيلزوني، وكيل القنصل البريطاني لتجارة الآثار في عهد محمد علي، وهو من أكبر سارقي الآثار المصرية في ذلك الوقت، كانت السفن البريطانية في عهده تحمل بالآلاف القطع الأثرية المصرية، وأطنانا من أحجار المسلات والمعابد لتبحر بها إلى بريطانيا.

ولا يخفي على التاريخ أبدا، أن في عهد الأسرة الخديوية وكنف الدولة العثمانية تمت سرقة أعداد هائلة من الآثار المصرية، لا تقارن بأي فترة من فترات التاريخ القديم أو الحديث.

حيث كان السباق في ذروته بين الإنجليز والفرنسيين لمن ينقل أكثر القطع الأثرية، نهبت الآلاف المقابر نهبا كاملا، فككت المسلات والنصب

التذكارية ونقلت إلى أوروبا على ظهر السفن، حتى السياح القادمين للاستجمام كانوا يحفرون أسماءهم على أحجار المعابد، والمصريون أنفسهم استباحوا الآثار في كل شيء من السرقة إلى استخدام أحجار المباني الأثرية في البناء.

كتب وقتها العالم الأثري "ريتشارد وليام فيز" وقد كان من محبي الآثار المصرية، بعد أن شعر بالصدمة عند رؤيته معبد دندرة وما أصابه من دمار، فقال "بالنسبة لامتداد حضارة هذه البلاد، فإن هذه الصروح تصبح مهدمة أكثر فأكثر، وأن ما تتسم به من كمال فني وما تتميز به من قدم لا يوفر لها أي قدر من الحماية، حين تكون هي مصدر المواد المطلوبة سواء للمباني العامة أو القصور الخاصة".

حتى وصل الأمر أن قسمت مصر إلى ضفة غربية وضفة شرقية واحدة للإنجليز والثانية للفرنسيين لكي ينقبوا فيها عن الآثار دون مداخلات ومشاكل بينهما.

كتب وقتها المستشار الإنجليزي "ريتشارد بيرتون" قائلا "كانت بلاد النيل في ذلك الوقت ميدانا للنهب كما هي الآن، وتكونت الثروات من أعمال الحفر ليس بحثا عن الذهب، وإنما عن التحف، وصار ميدان الآثار معركة لجيشين من التراجمة والفلاحين".

رحلة طويلة قطعها أشعيا من ميناء الإسكندرية مباشرة إلى القاهرة، لم تكن سكك حديد مصر التي منح حق إنشائها الخديوي عباس باشا الأول قد انتهى العمل منها بعد، وكان من المقرر افتتاحها في باب الحديد، لتسير بين القاهرة والإسكندرية ذهابا وإيابا.

أزاح جزءا من الستارة الصغيرة التي تغطي نافذة التختاروان، ليتأمل شوارع القاهرة، الناس حفاة بدون أحذية ما عدا قلة قليلة شاهدها ترتدي أحذية ما بين مهترئة وممزقة، الجلباب كان غالبا على

زي المصريين في ذلك الوقت، مع ربطة الرأس، أما السيدات فقد كانت ترتدي البرقع، والجلباب الأسود ذي الكسر البسيطة في الوسط لتعطيه شكلا يشبه الفستان في عصرنا الحالي، ورغم بساطة الملبس عما شاهدة " أشعيا " في أوروبا من موضة وثراء فاحش، إلا أنه شعر أن المصريات بتلك البشرة القمحاوية والعيون الواسعة أكثر جمالا وسحرا، تذكر حينها ما قرأه في كتاب "إدوارد وليام لين" (سلوك وعادات المصريين المحدثين) الذي نشر عام 1825، حيث تكلم عن نساء مصر قائلا "عما تتمتع به نساء مصر من الإغراء، عيونهم بقليل من الاستثناء، سوداء واسعة، لوزية الشكل، ذات رموش طويلة وجميلة، بها تعبير رائع وساحر، يصعب العثور على عيون أكثر جمالا".

حدث " أشعيا " نفسه: كان محقا، قمة الجمال هي البساطة، كيف لتلك الحضارة التي نلهث لننقلها إلى بلادنا ونتعلم منها ألا يكون أحفادها بهذا الجمال.

تنهد مفكرا في نفسه على المعارك التي سيضطر إلى خوضها في بحثه عن الآثار، لم يكن الفرنسيون ليتركوه ينقب دون مضايقات.

أخيرا سار التختاروان على أرض ممهدة، فقللت الجمال من مجهودها وحركتها، بينما استمر الرجل في شدها أحيانا وضربها أحيانا أخرى.

والتختاروان يشبه إلى حد كبير الهودج لكنه يحمل على ساقين طويلين من الخشب يحملهما جملان، بعكس الهودج الذي يوضع مباشرة على ظهر الجمل.

كانت وسيلة المواصلات تلك منتشرة قديما، إلى جانب الدواب مثل الحصان والحمار، وكان التختاروان يستخدم لسفر المسافات البعيدة، يستخدمه علية القوم من الأمراء والولاة وقادة الجيوش، وهي تعتبر في ذلك الوقت أكثر وسائل المواصلات رفاهية، حيث كانت تفرش بحشايا المخمل وقماش الدامسكو، وهو قماش اشتق اسمه من بلد المنشأ وهي دمشق، يرجع تاريخه إلى المماليك، يدخل في صناعته الذهب والحرير، وكانت توضع داخل التختاروان وسائد مريحة لطول مدة السفر.

صرخ قائد الجمال محدثا " أشعيا ":

الفندق الإنجليزي يا سيدي؟

أجابه أشعيا:

نعم هناك بالظبط

استمر التختاروان في الحركة لمدة عشر دقائق أخرى ثم توقف أمام فندق شيبرد، ليتكلم الرجل مرة أخرى:

لقد وصلنا..

تنهد أشعيا بارتياح، أخيرا سيرتاح من اهتزاز التختاروان، وسينام بضع ساعات .

ركع الجملان في الأرض ليترجل أشعيا حاملا حقيبته، مشددا على وجود قبعته، أخرج المال ليعطيه إلى سائق التختاروان، ونظر عاليا إلى فندق شيبرد أو الفندق الإنجليزي.

فكر أنه من الجيد أن يكون هناك مكان فخم ومريح ليقيم فيه الإنجليز بعد عناء السفر.

قد بني فندق شيبرد على يد صمويل شيبرد عام 1841 كان وقتها يطل على بحيرة الأزبكية قبل أن يأمر إبراهيم باشا بردمها تماما وتحويلها إلى منتزه.

وكان الفندق معروفا وقتها باسم الفندق الإنجليزي الجديد، إلا أن صمويل غير اسمه عام 1845 إلى فندق شيبرد، لكن ظل المصريون ينادونه بالاسم القديم لاعتقادهم أنه أخف نطقا.

في المساء..

ارتدى أشعيا قميصه الأبيض ومعطفه الخريفي، لم يكن ليقارن ثلوج وضباب إنجلترا بطقس مصر الدافئ، هذب شاربة وارتدى قبعته الطويلة حتى في المساء، لأن القبعات في ذلك الوقت كانت مهمة جدا لإكمال المظهر اللائق، والخروج بدون قبعة كان يعد تصرفا غير لائق.

جلس على حافة الفراش وارتدى حذاءه ذا الكعب العالي، والطرف المستدق وهو قمة الموضة الرجالية في تلك الأيام، نهض مرة أخرى ليهذب شاربه، ثم ألقى نظرة أخيرة على ملبسة، وخرج من الغرفة.

كان بهو الفندق مزدحما بالضيوف من كل الجنسيات، والخدم في حالة نشاط لتقديم الطلبات لهم، مقاعد صغيرة ذو أرجل قصيرة تقترب من الأرض، ثلاثة أو أربعة مقاعد في كل ركن، جلس في الواجهة مطرب مصري ومعه فرقة صغيرة من ضارب للدف ونافخ للمزمار، كان يتغني بالفصحى على أنغام مصرية، البعض كان مستمعا والآخرون انهمكوا في الحديث غير مكترثين بوجود الفرقة.

جلس أشعيا في ركن البهو البعيد غير مكترث لأي من الفرقة أو المتواجدين، أشار بعدها للخادم وطلب شايا إنجليزيا، ثم أخبر الخادم أنه ينتظر ضيفا عليه أن يدخله إليه في الحال إذا جاء.

أصبح الحزن وخيبة الأمل التي عاد بها من جامايكا ملمحا من ملامح وجهه التي لا تتغير، جاء إلى القاهرة لينسى ما فعلته فيه خيبة الأمل، كان قد بعث برسالة إلى والده قبل سفره ليطلب منه أن يدبر له وسيطا محنكا لتجارة الآثار، ليعوض ما بذله من أمل وطموح وجهد في رحلته الأولى.

ولم يطل تفكيره وانتظاره حتى جاء الخادم ليخبره أن أحد الأشخاص يسأل عليه، وقدم له الشاي وذهب ليحضر ذلك التاجر.

وقف أشعيا متأهبا لمقابلة ذلك الوسيط، الذي أتى مع الخادم مرتديا لباسا إنجليزيا فخما، بدت على وجهه الهيبة، ووصل إلى أشعيا ذلك الانطباع الأول الذي نشعر به بمجرد رؤيتنا شخص للمرة الأولى، هذا الرجل داهية.

تشكك أشعيا في ملامحه التي كانت مصرية تماما، شعر بالذهول أن أباه رشح له وسيطا مصريا، ثم أعاد النظر إلى زيه الإنجليزي الفخم، فخمن أنه ربما يحمل جنسية أخرى.

وقف الخادم أمام أشعيا الذي أعطاه أمر الانصراف، وسلم الوسيط عليه ببسمة لم يرتح لها أشعيا ، ثم نطق بلكنة إنجليزية متقنة:

أهلا بك في مصر أستاذ أشعيا

رد متجاهلا شعور الاندهاش لديه بعد اكتشافه أنه وسيط إنجليزي:

أشكرك كثيرا تفضل بالجلوس

جلس كلاهما، ليكمل أشعيا:

ماذا أقدم لك

رفض الوسيط واجب الضيافة، ولم يمهله ليكمل حديثه:

لقد أخبرني عنك والدك كثيرا، وأريدك أن تعرف أنني سأوفر أي قطع تحتاجها من الآثار، واستطيع أن أضمن لك أنها قطع أصلية تماما.

شعر أشعيا بالضيق لقلة ذوقه ورفضه واجب الضيافة، لكنه قرر أن يحتمل حتى لا يعود بخيبة أخرى إلى أمريكا، رشف بعضا من الشاي، ونظر إلى الوسيط بهدوء قائلا:

في الحقيقة كنت أظن أن الوسيط سيكون مصريا، هذا ما أخبرني به أبي في رسالته لي.

ابتسم الوسيط مرة أخرى، شعر خلالها أشعيا بعدم الارتياح، فأكمل الرجل ببرود:

. أنا مصري، ولم أخرج يوما خارج مصر.

اندهش أشعيا كثيرا قائلا:

. لكنك تتحدث الإنجليزية كأنها لغتك الأم، واسمح لي لم أر مصريا يملك النقود ليرتدي بدلة بتلك الفخامة.

. نعم أنا رجل أتحدث العديد من اللغات نظرا لتعاملي اليومي مع الجاليات هنا.

هز أشعيا رأسه متشككا، فلم يحدث أن رأى أي مصري يتحدث بتلك الطلاقة حتى الذين سافروا وقضوا أعواما في بريطانيا، أكمل الوسيط كلامه متجاهلا كل تلك العلامات التي ظهرت على وجه أشعيا:

. اسمي منذر، اعتاد العمال على مناداتي الشيخ منذر

. لقد أخبرني أبي كثيرا عنك في رسالته، قال إنك تستطيع أن تجلب ما أتمناه من الآثار.

. نعم، لقد وفرت لوالدك وللقنصل البريطاني الكثير من القطع التي لم يكونوا ليفكروا أنها ما زالت في باطن الأرض.

. جيد جدا، فأنا لم أكن لأحلم بأكثر من هذا.

. لقد أخبرني والدك أن غايتك وبحثك كانت بعيدة تماما عن الآثار، فما الذي أوصلك إلى هنا؟

تنهد قائلا:

. إنها الخيبة، والأحلام التي تؤذينا، كنت أظن أنني سأجد ضالتي في بلاد أخرى ولم أجد سوى السراب.

. هل تعلم أنني لدي خبرة كبيرة في تحقيق الأحلام، يمكنك أن تسأل والدك.

ضحك أشعيا باستهزاء:

. أنا لا أصدق والدي في كل شيء، المعاملة هي المقياس للصدق والكذب.

. أخبرني عما كنت تبحث عنه؟

. كنت أبحث عن مصدر للورق، إنها تجارة أكثر ربحا من الآثار، الورق أصبح عصب الحياة في أمريكا.

فكر منذر قليلا، ودام صمته دقيقة، ثم نظر إلى أشعيا مبتسما بخبث:

. وماذا أن أعطيتك مصدرا رخيصا لتصنع منه الأوراق؟

ظهر في عيني أشعيا ذلك البريق الذي ينبعث من الموت، الأمل الذي انطفأ، والطموح القادم من القبور، تهلل وجهه متسائلا:

. وما هو؟

كان هذا الحوار بداية لصفحة سوداء في تاريخ مصر

الفصل الثاني

لونيت أو تنترة، أو كما نسميها اليوم دندرة، المدينة المنسية في جنوب مصر.

كانت ضربة الفأس هي من أسقطت جزءا من حجر ضخم اعترض سردابا كان قد حفره عمال منذر بحثا عن المقابر في ضواحي دندرة.

انتظر العامل الغبار أن يهدأ، ورفع مصباحه الغازي لينظر إلى داخل تلك الفتحة، شهق بعدها شهقة عالية، ووضع المصباح جانبا، وزحف سريعا خارج ذلك الممر الضيق.

كانت شمس يونيو في منتصف السماء، الرمال شديدة السخونة، واضطر أغلب العمال إلى خلع ملابسهم والاكتفاء فقط باللباس الداخلي، متجنبين لمس أقدامهم للرمال الملتهبة رغم استخدام البعض للخوص المضفور في حماية أقدامهم.

وقفت امرأة عجوز في الخمسين من عمرها، تحمل قدرا من الماء تعطي كل من يطلب من العمال، يفرغ القدر، تذهب لتملأه وتعود مرة أخرى لتلبي نداء العطش.

ركض العامل نصف عار ودون حذاء، غير مكترث لحرارة الرمال، حتى وصل إلى مظلة نصبت أمام مناطق الحفر، جلس في ظلها منذر مرتديا القبعة الإنجليزية المرتفعة وأمامه منضدة عليها بعض القطع الأثرية الصغيرة وقدر كبير من الماء، يقف خلفه رئيس العمال الشيخ حبيب.

سقط العامل أمامه ناظرا إلى الأرض، يتكلم مقاوما أنفاسه المتلاحقة:

. سيدي الشيخ منذر، إنها مقبرة ملكية، ممتلئة ولم يمسسها أحد من قبل.

نهض منذر مسرعا، يجري خلفه العمال ورئيس العمال الشيخ حبيب.

توقف أمام الممر، وشعر بقوة هائلة بالمقبرة تمنعه من دخولها، أغمض عينيه واهتز جسده، أحس بوهن شديد فتراجع إلى الخلف.

مما حدا بالشيخ حبيب لسؤاله:

. ما بك يا سيدي؟

تكلم منذر بصعوبة:

. عد بي إلى مقعدي يا حبيب

أمسك حبيب بيده، وقاده إلى مقعده تحت المظلة، تناول منذر كوبا من الماء وتنفس الصعداء بعدما ابتعد عن المقبرة.

عم الصمت ووقف العمال حيارى في انتظار أوامره، بينما غاص منذر في تفكير عميق، لقد أفسد مقابر كهنة وملوك كثر، لماذا لا يستطيع دخول تلك المقبرة، ولماذا شعر بزوال قوته، وبالضعف الشديد؟

فكر محدثا نفسه ربما كانت تلك مقبرة لأحد الكهنة الكبار، وبالطبع كتبت عليها العديد من التعاويذ، لتمنعني من الاقتراب منها وحماية ما بها، ولكن ما هي التعاويذ التي تكون بتلك القوة فتترك عاملا حقيرا وتصيبني أنا، إلا إذا كانت تلك التعاويذ موضوعة لأجلي.

إنها ليست المرة الأولى التي أجد فيها مقبرة وضعت بعض التعاويذ فيها خصيصا لمنعي.

في كل حال سأدمر المقبرة، سأحصل على المخطوطات والمعرفة كلها لي، وسأبيع كل قطعة بها.

كان العمال في شدة الإرهاق والمعاناة نتيجة العطش وحرارة الشمس، نظر إليهم حبيب بعين العطف، فقرر محادثة منذر وقطع الصمت السائد:

. ماذا تريدنا أن نفعل يا سيدي؟

ارتشف منذر بعض الماء مرة أخرى بينما نظر إليه العمال في معاناة وحقد، أغمض عينيه وتنفس بعمق ليستعيد قوته وهيبته أمام العمال:

. أفرغ المقبرة من محتوياتها، أريد كل المخطوطات لي، أرسل المومياء إلى مركب أشعيا، وضع التحف في المخازن حتى أجد لها مشتريا، أغلق المقبرة وأدفنها مرة أخرى بحيث لا يستطيع كائن الوصول إليها، هل تفهمني يا حبيب؟

أومأ حبيب برأسه في سرعة:

. بالطبع يا سيدي، كل ما تتمناه هو أوامر.

صرخ في العمال:

. لقد سمعتم ما أمر به سيدنا الشيخ منذر، افعلوا كل حرف قاله ولا أريد أخطاء.

ركض العمال سريعا كل منهم يحمل فأسا، وبدأوا في توسيع الممر المؤدي إلى المقبرة، وانشغل عامل في تكسير قطعة الحجر الضخمة التي تسد بوابة المقبرة، وفي نهاية اليوم كان العمال قد نجحوا في دخولها، تجول حبيب في المقبرة غير مصدق لما يراه.

كانت أجمل مقبرة رآها في تاريخ عمله مع منذر، رسومات الحوائط الرائعة، الألوان الخلابة التي تبدو أنها رسمت اليوم وليست منذ آلاف الأعوام، كمية التماثيل والأثاث الرائعة التي دفنت مع الميت.

صرخ في العمال ليبحثوا عن أي مخطوطات، وبعد عشر دقائق، أتى له أحد العمال بلفائف بردية مغلفة بالذهب، حملها حبيب خارجا من المقبرة، تاركا العمال داخلها يستعدون لإفراغ المقبرة، ورغم انتشار سرقة العمال للقطع الأثرية الصغيرة وقطع المجوهرات مع الوسطاء الآخرين، وبيعها لحسابهم، إلا أنه لم يكن ليجرأ أي عامل يعمل لدي منذر حتى على التفكير في ذلك.

كان قاسيا في تعامله، وكان يعلم دائما من الذي سرق وما الذي سرقه، كل من سرق من منذر، وجدت جثته صباح اليوم التالي، وبالطبع تلك الأيام لم تكن مصر دولة قانون، ولم يكن يجرأ أحد على التحدث عليه بكلمة من خلفه.

وصل حبيب إلى المظلة، وناول اللفائف البردية إلى منذر، الذي أخذها بنظرة شرهة، قرأ تلك الحروف التي نقشت على الذهب وابتسم بوجه تعلوه نظرة النصر، نهض من مقعده وأشار لسائق عربته التي يجرها الحصان.

عدل ملابسه وارتدى القبعة، صعد إلى العربة وتحدث دون أن ينظر إلى حبيب:

. أعطي العمال مكافأة اليوم ولا تذهب إلى بيتك قبل أن ترسل تلك المومياء إلى أشعيا.

. حاضر سيدي

انطلقت العربة مبتعدة، وعاد حبيب إلى المقبرة، جلس منهكا على الأرض، أزال لفافة رأسه، جفف بها عرق جبهته، ولم يكد يستريح حتى ناداه أحد العمال لغرفة من غرف المقبرة، نهض من مكانه واتجه إليه، وتوقف عند المدخل مبهورا، تكلم العامل:

. يا شيخ حبيب وجدنا اثنين من التوابيت وليس واحدا، ماذا تريدنا أن نفعل، هل نرسل الاثنين؟

تنهد حبيب وهو يتأمل جمال تلك التوابيت ويلمس مزخرفات الذهب التي زينت بها، أمر العامل أن يساعده في فتح التابوت الأول، وبعد مجهود مضني، فتح التابوت ليكشف جسدا ملتفا بالكامل بلفائف الكتان، تأمله حبيب ولاحظ ارتفاع مستدير يشبه القرص بالقرب من قلبه، لا يشبه تلك التمائم التي كان يضعها الأجداد على القلب، كان حجمه ضخما.

تشكك حبيب وتملك رأسه الفضول، أمر العامل بالذهاب لمساعدة أقرانه حتى يطلبه مرة أخرى، ذهب العامل خارجا وفرغ الغرفة تماما لحبيب والمومياوات.

تزاحمت الأفكار في عقله، تلك المقبرة بكل عظمتها لم ير مثلها وهو يعمل مع منذر منذ عشرين عاما، وتلك التوابيت في غاية الفخامة، والمومياء ملفوفة بعناية شديدة وتخفي داخلها شيئا لم يعهد رؤيته.

قرر أن يحل جزءا من اللفائف الكتانية ليرى ما تخبئه تلك المومياء، وبعد معاناة كبيرة نتيجة لطول شرائط الكتان الملفوفة حول الجسد، ظهر أخيرا ما كان مخفيا.

قرص ذهبي لامع، لم ير شيئا في جماله وعظمته، ترتديه المومياء كقلادة، أخرج القلادة بحرص شديد، وأعاد أربطة الكتان في أقرب هيئة لما كانت عليه.

ثم نادى على العمال ليساعدوه في فتح التابوت الثاني، جاء أربعة عمال هزيلي البنية، يظهر عليهم سوء التغذية، حاولوا جميعا فتح التابوت الثاني ولكنه أبى أن ينفتح، كرروا المحاولة مرة أخرى، فوقف التابوت كجبل صامد أمام الريح لا يتأثر.

أمرهم الشيخ حبيب بسرعة العمل في نقل التوابيت للخارج وتحميلها على العربات قبل المغيب.

وبالفعل في خلال ساعتين كانت التوابيت على عربات تجرها الأحصنة في طريقها إلى مركب أمريكية ترسو في النيل لتأخذهم إلى رحلة طويلة خارج البلاد.

أغلق العمال المقبرة وتأكد حبيب من وجود أربعة حراس لتأمينها، دفع مكافأة العمال كما أمره منذر، ثم ركب حماره مغادرا المكان.

كان الطريق طويلا، وكل ما كان يفكر فيه، الطعام والنوم، اليوم كان شديد الحرارة والإرهاق بالنسبة له، السن يفرض عليه نظاما جديدا لم يعتاد عليه، آلام عظامه وقوة تحمله لم تصبح كالسابق.

وضع معصمه في جيب جلبابه ليجلب خرقة قماش يجفف بها قطرات العرق الساقطة على جبهته، لكن يديه اصطدمت بشيء آخر، مستدير، أصيب بالهلع، وزادت دقات قلبه أوقف الحمار، وأخرج ما كان بالجيب.

ذلك القرص الذهبي..

صرخ في الشارع:

. يا الله، لقد نسيت وضعه مع الأشياء الأخرى.

ثم صرخ مرة أخرى في خوف:

. يا الله، يا الله إذا علم منذر وسيعلم بالتأكيد، أنا في عداد الموتى

ترجل من حماره، وجلس على صخرة يفكر في مصيبته.

كيف لي أن أنساه، وكيف وضعته في جيب جلبابي، فكر قائلا أنه إذا عاد الآن وحتى إذا أرجع القطعة سيخبر الحرس منذر بما حدث.

في كل الأحوال حدثت المشكلة، وصار أمرا حتميا عقابه من منذر، اعتلى حماره مرة أخرى غارقا في التفكير فيما سيحدث له، ولولا أن الحمار يحفظ الطريق مثلما يحفظه حبيب لتاه.

دخل منزله وبعد تحية زوجته وابنه الوحيد "عابد"، اتجه مباشرة إلى غرفته المتواضعة، أغلق الباب وأخرج ذلك القرص خبأه في خزانة ملابسه.

كان غارقا في التفكير والقلق يكاد يقتله، لبى نداء زوجته للطعام، نهض متكاسلا ليأكل.

لم يتحدث كثيرا حتى لاحظت زوجته قلقه، لكنه طمأنها، وفتح حديثا موجزا مع ابنه "عابد":

. كيف كان يومك يا عابد

تكلم الولد الصغير ذو الثمانية أعوام، والطعام يتناثر بعفوية خارج فمه:

. لقد انتهينا من الدرس الرابع في الكتاب يا أبي وصرت استطيع أن أجري الجمع والطرح للأعداد.

ابتسم حبيب، مكفكفا على رأس ابنه:

. أنا أثق أنك متفوق وستكون شخصا ناجحا يوما ما، وربما تعمل في القصر لدى أفندينا.

. أنا أريد أن أعمل معك يا والدي، يمكنني مساعدتك وتخفيف الأحمال عنك.

طاف في عقل حبيب سريعا كم المعاناة التي عاناها مع منذر لمدة عشرين عاما، هو لا يريد لابنه هذا المصير، ولن يقبل أن يعمل ابنه بنفس العمل.

. أريدك أن تكون شيئا أكبر مني يا بني، لا أريدك أن تمتهن مهنتي، أريد أن تكون أعظم مني.

صمت الولد محاولا فهم ما يقصده والده، ولماذا لا يريده أن يعمل مثله.

الفصل الثالث

مر الليل طويلا على حبيب الذي لم ينم ولم تغمض عيناه دقيقة، رغم إرهاقه الجسدي، واليوم الشاق الذي عاناه.

إنه التفكير الليلي، أكثر أعداء النوم فتكا، تلك المعركة التي تحسم في أول دقيقة تضع فيها رأسك على الوسادة ويبدأ عقلك في التفكير إلى أن تسمع صوت أذان الفجر، أنه كتعاطي المخدر، إذا أفاق عقلك وانتبه للنوم كانت المعجزة التي قلما تحدث، لكن في الغالب يستمر التفكير في احتلاله حتى خروج الشمس لمنتصف السماء.

مزقه التفكير في تلك الليلة، وتشارك عقله في تلك الجريمة التي كانت ترتكب في حق راحته الجسدية، ليرسم له قصصا خيالية ويسرد له أشكالا من الانتقام التي ستقع عليه صباحا، حتى وصل به الأمر وتمنى ألا يخرج عليه الصباح.

تذكر كل من اختفوا من العمال بعد سرقتهم من منذر، تذكر نظرة باقي العمال المرعبة له ولمنذر، فالكل كان يلومه مثلما كان يلوم منذر، لم يكن يستطيع الدفاع عن نفسه وتبرئتها.

أيقظ زوجته وابنه عابد، وخرج إلى شرفة مهترئة، ليتناول كوب الشاي قبل أن يواجه مصيره، أو ينجح في وضع القطعة دون أن يلاحظ أحد، لكن الاختيار الأول له كان أكثر منطقية.

تأمل الناس الحفاة الذين يقتلهم الفقر، المنازل الفقيرة المبنية من الأواني الفخارية المتراصة أفقيا ورأسيا ومملوءة بالطمي، فكر بعفوية قائلا لنفسه ماذا لو عرضت كل تلك الآثار المنهوبة في أماكن كمتاحف أوروبا ويأتي الأجانب لرؤيتها، بمقابل مادي يستفيد به هؤلاء البسطاء.

قطع تفكيره أخيرا صرخة زوجته، نهض مسرعا إلى داخل المنزل، لمح زوجته تقف أمام باب غرفة النوم ونور قوي ينتشر خارجا من الغرفة.

أسرع بالدخول ليجد ابنه عابد مرتديا تلك القلادة التي يخرج منها نور قوي، ارتفع الولد في الهواء، وازداد النور حتى غطى حبيب وزوجته وجههما، انصهرت القلادة داخل صدر عابد، انطفأ النور وسقط الولد في أرض الغرفة.

كانت الصدمة كفيلة لصراخ زوجته المستمر، فأسكتها عابد بيديه حتى لا يتحول ما حدث إلى فضيحة، اتجه إلى ابنه ليحدثه ويطمئن أنه بخير.

كان الولد بكامل صحته، وعندما اطمأن عليه والده، حدثه بعنف:

. ماذا فعلت؟

رد الولد في ذعر:

. رأيتها في صندوق الملابس فجربت ارتداءها.

صرخت زوجته:

. ماذا جلبت لنا، أهي لعنة؟

كيف تضع شيئا كهذا في البيت؟ أنه ابننا الوحيد يا حبيب، ما الحل؟

انهار على أرض الغرفة، فقد بلغت الهموم منه أقصاها، ولم يعد يحتمل المزيد.

وبعد صمت طويل، احتضنت فيه زوجته ابنها ولم تتوقف عن البكاء، نهض حبيب من مكانه:

. لا تخرجي من المنزل، لا أنتي ولا الولد، سأذهب إلى منذر لأخبرة بكل شيء، وربما يحن قلبه ويساعدنا في حل تلك المشكلة.

ارتدى ملابسه، واعتلى حماره، ودون أي توجيه منه، فلم يكن منتبها لأي شيء، سار في الطريق المعتاد للعمل.

وصل متأخرا لأول مرة، كان جميع العمال حاضرين في انتظار أوامره لبدء العمل، أعطاهم الأمر، وذهب بحثا عن منذر.

لم يطل انتظاره، فقد أتت العربة مثيرة الأتربة من حولها ولكن لم يكن بداخلها منذر بل ترجلت منها فتاة جميلة، ترتدي لباسا إنجليزيا فاخرا.

أصيب حبيب بالذهول، لم تعطه الفتاة الوقت للكلام، بل تحدثت معه:

. الشيخ حبيب، أنا مساعدة الشيخ منذر، لقد سافر في مهمة عاجلة إلى القاهرة، وأرسلني فقط لأن أتأكد أن كل شيء على ما يرام، هل أرسلت المومياء إلى أشعيا؟

أجاب في ارتباك:

. نعم كما أمرني سيدي الشيخ منذر

نظرت إليه ليكتارا قليلا، وشعر حبيب بارتباك أكثر، ثم أكملت حديثها:

. ماذا عن باقي محتويات المقبرة؟

. سنرسلها إلى المخازن، وندونها في الدفاتر كما أمر سيدي منذر.

. جيد جدا، إذا حدثت أي مشكلة أرسل لي فورا، أريد الانتهاء من تفريغ تلك المقبرة اليوم، هل هذا مفهوم؟

أومأ حبيب برأسه في صمت، وتأملها وهي تعتلي تلك العربة مرة أخرى، غير مصدق لما حدث.

لم يعلم منذر بالأمر..

لقد منحة الله هو وأسرته فرصة أخرى..

لم يكن يعلم بتلك المسئولية التي ألقيت على عاتق ابنه وأحفاده من بعده..

لم يكن ليكترث أبدا..

غاب منذر لمدة شهر، كان كل شيء ذهب في طي النسيان.

لكن عابد لم يعد كما كان..

الفصل الرابع

أمريكا بعد عامين

مدينة ويست بروك

كانت أمريكا في منتصف القرن الـ 18 محفلا لنهضة صناعية كبرى، وأكثر تحررا من معظم الدول الأوروبية التي قيدتها الأوامر الملكية.

كانت أرض الأحلام لمن لم يجد له مكانا في بلاده، يمكنك أن تفعل ما تشاء هناك، أن تصبح غنيا، أو تكتفي بالعمل في مصنع صغير لتتدبر قوت يومك.

مدينة ويست بروك هي مدينة أقامها صامويل دينيس وارين، لخدمة مصنع الورق الذي يمتلكه، كان صمويل يمتلك عدة مطاحن ومصانع للورق، يصنع فيها ورق الكتب والجرائد وحتى أوراق الخضار والجزارة.

أغلب قاطني تلك المدينة من عمال مصنع ومطاحن الورق، وكلما ازدهرت تلك الصناعة واتسع المصنع، تطورت المدينة وصارت أكثر ازدحاما.

ضج المصنع بضوضاء عالية ناتجة عن ماكينات صنع الورق، الكل يعمل بلا توقف، بعضهم وضع خرقا قديمة من القماش على فمه تجنبا للرائحة الكريهة التي تملأ المكان، والبقية اعتادت على تلك الرائحة، وأصبحت لا تبالي إلا بلقمة العيش.

جلس صمويل وارين في مكتبه العلوي بالمصنع، يفكر في ذلك المصنع الوليد الذي يستهلك كل طاقته وجهده ليبقيه عاملا، عليه أن يوفر عددا كافيا من العمال، ومصدرا ثابتا للمادة الخام، حتى يلبي طلبات الشراء المتزايدة.

ظل يكافح مستميتا، ما بين مدينته الصغيرة الناشئة، ومتطلبات مصنعه، وطموحاته في تطويره.

غرق في أفكاره لفترة طويلة، عمل خلالها العمال على استلام الطرود الواردة من مصر، وتفكيكها تمهيدا لتهيئتها حتى تدخل في عملية صناعة الورق.

ولم يمض سوى بضع دقائق حتى صرخ أحد العمال، وسادت حالة من الفوضى، وصلت إلى مسامع صامويل في مكتبه العلوي.

ركض سريعا في اتجاه صوت الفوضى وهو يتمنى ألا يكون عامل قد أصيب أو، آلة تعطلت.

وصل إلى مصدر الفوضى، حيث كان العمال يشكلون دائرة حول تابوت مصري رائع الصنع، وبجانبه جسد هزيل لعامل ينتفض بشدة على الأرض.

صرخ بصوت عال: بالله عليكم ليخبرني أحد ماذا حدث.

رفع أحد العمال يده ليمنحه صمويل الإذن بالكلام، فتكلم حاكيا ما حدث:

. سيدي كنا نحاول أن نفتح الصندوق، لكن شيء ما خرج من الصندوق أصاب زميلي بصاعقة كهربية، سقط بعدها على الأرض.

استغرق عقله دقيقة واحدة ليجري فيها حساباته، بالطبع ستنتشر تلك الحادثة كالبرق بين العمال وفي المدينة الناشئة، وربما يلتقطها أحد الصحفيين لتكون عنوانا عريضا في جريدة ما.

اتخذ قراره دون تفكير كثير، لن تتواجد تلك المومياء لحظة واحدة أخرى داخل أسوار المصنع.

صرخ في العمال:

. احملوا التابوت وضعوه على عربة، سيمكث في بيتي حتى أتحقق إن كان ما حدث فعلا من تلك المومياء أو هذا العامل مصاب بمرض ما.

نظر العمال إلى بعضهم في حيرة وخوف دون حراك، من يقدر أن يلمس ذلك التابوت الملعون.

أدرك سريعا ما يدور في عقولهم، ولم يكن صعبا عليه قراءة الخوف الظاهر في عيونهم، فأسرع ليحرك الصندوق بنفسه حتى يطمئن العمال ولو قليلا، لم يحدث له شيء، فأسرع بعضهم بمساعدته بينما آثر البعض السلامة ووقف موقف المتفرج.

غادرت المومياء المصنع وسط همسات العمال التي تناقلتها الألسنة بسرعة البرق، وصار هناك خوف يحتل الأعين في كل ركن، هدأ قليلا عندما أفاق ذلك العامل من صدمته ولم يكن مصابا بشيء، لكن كان يقسم رغم ذلك أن تلك المومياء هي السبب، أعطاه صمويل مبلغا كبيرا من المال لكي يصمت ولا يتحدث إلى الصحافة، وطويت صفحة المومياء وصندوقها الفخم في المصنع، لتفتح صفحة أخرى مغايرة تماما في منزل آل وارين.

الفصل الخامس

عام 2019

يقولون أن العمل الحكومي هو مأساة، فهو لا يعطيك الحد الأدنى للحياة الكريمة، لذلك البعض يرفضه تماما، وآخرون يعتبرونه أمانا ماديا ومصدرا ثابتا للدخل رغم قلته.

الأمر ليس كذلك بالنسبة لـ عم "ضاحي"، أقدم حارس في معبد دندرة وأكبرهم سنا.

ذلك الرجل الذي تيم بجدران المعبد، كل حجر وكل تمثال، كل نسمة هواء تمر بين أعمدة المعبد فتتعطر برائحة التاريخ، عشق عمله حد الجنون، المعبد هو روحه قبل أن يكون منزله، لم يعتبره أبدا عملا حكوميا رغم قلة العائد المادي الذي لا يكفي شيئا.

كان معروفا لدى كل المرشدين السياحيين الذين يتوافدون على المعبد باستمرار مع أفواج السياح، لصرامته في حماية الآثار، والتشديد الدائم على عدم لمس الأحجار.

يذكر الكل ما فعله مع أحد زائري المعبد، الذي تسلق أحد الأحجار المرتفعة وصرخ في الزوار على أن المعبد هو مكان دنس ومجرد أحجار وتماثيل وثنية يجب أن يهدم وعلى الناس ألا يدفعوا مليما لزيارة تلك المعابد الدنسة.

ذلك اليوم المشئوم تحول عم "ضاحي" إلى شخص آخر، فخلع نعليه الاثنين وجذب الرجل أرضا وأبرحه ضربا، أصيب الرجل المعتوه على إثرها بعدة كسور، ولم يفلح الحراس الشباب في تخليصه من يده.

اليوم هو الأخير في عمله، شعر أن العمر جرى به سريعا حتى وصل لسن المعاش. كان يوما لا يتساوى حزنه بأي شيء كان قد مر به على الإطلاق.

شعر بغصة شديدة المرارة في حلقه، وكلما غلبته عيناه وذرفت دموعا، جففها سريعا بإحدى أكمام جلبابه.

سار في المعبد تائها في تفاصيله، لم يلتفت لأي من الزوار، ولم يسمع له صوت في ذلك اليوم، على غير عادته.

خلع نعليه وتلمس الأحجار الصغيرة المفروشة في إحدى ساحات المعبد، وضع يديه لأول مرة على نقوش الحوائط ولمسها كمن يلمس محبوبته، تأمل كل انحناءة صغيرة، وكل حرف نقش على الحائط، أمسك بحفنة من الرمال وفركها بين يديه ليشعر بتلك الأجسام الصغيرة تلتصق بين ثنايا أصابعه.

تاه في ذكريات كل تلك الأعوام التي قضاها، هنا نقشت التجاعيد على وجهه مثلما نقشت الصلوات على الحوائط، دخل إلى غرفة صغيرة وجلس على أرضها متأملا تجويفا مستطيلا في الحائط، ثم أخرج من جلبابه قلادة مستديرة الشكل ذهبية المعدن، وحدث الحائط قائلا:

حان الوقت لأسلم المفتاح إلى شخص آخر ليحفظ سر البوابة.

تنهد بعدها تنهيدة طويلة ليخرج بها أثقال الزمان التي تجمعت بصدره، ونظر إلى القرص الذهبي الذي تحمله يداه يتأمل تلك النقوش الصغيرة، والبريق الخلاب الذي يخرج منه في صمت.

في نفس الوقت عند بوابة المعبد..

وقفت فتاة خيالية الجمال أمام البوابة الإلكترونية، ترتدي فستانا قصيرا للغاية ونظارة شمسية، التفت الجميع إلى تلك الفتاة مأخوذين بانبهار إلى ذلك الحسن، ورغم ما يمر عليهم كل يوم من نساء من مختلف الجنسيات لم يروا مثيلا لها.

ابتلع الضابط لعابة بصعوبة وهو ينظر إليها وهي تضع حقيبتها على ممر جهاز التفتيش الإلكتروني، وقال لها بالإنجليزي ظنا منه أنها ليست مصرية:

سيدتي الجميلة، المعبد سيغلق أبوابه بعد نصف ساعة، والزيارة صعبة الآن فالكل يغادر المكان.

خلعت نظارتها الشمسية لتكشف عن عينيها الساحرتين، فابتلع الضابط لعابه مرة أخرى متسمرا أمام تلك العينين، فقالت له بالعربية:

فلتسمح لي لا أريد سوى صورة واحدة فقط، وسأخرج سريعا.

نظر الضابط متعجبا لها:

. أنت مصرية؟

فقالت له وهي تلتقط حقيبتها، لا تتخيل يا سيدي كم مر علي من الزمن وأنا مصرية، أكملت الجملة بابتسامة، وتركته في حالة ذهول هو وكل من حوله.

كان كعب حذائها المرتفع يصدر طقطقات على أرض المعبد بصوت عال، ويكسر في حجارتها المرصوفة بها ليترك حفرا صغيرة، لم يتجرأ أحد من حراس المعبد أن ينبهها، كان جمالها وسيلة صعبة المقاومة.

أكملت مسيرتها لتصل إلى تلك الغرفة الصغيرة، التي جلس فيها "ضاحي" صامتا .

انتبه إلى صوت حذائها العال، فنهض من مكانه ليخبرها أن وقت الزيارة انتهى ولكنه توقف عندما نظر إليها وتراجع إلى الخلف مذعورا.

ضحكت بسخرية وبصوت عال:

هل تعلم يا عزيزي ضاحي كم كلفني البحث عنك؟

تنهدت لتكمل:

ثلاثون عاما وأنا أبحث عن حامل سر المفتاح، وأخيرا وجدتك

تراجع "ضاحي" إلى الخلف ممسكا بالقلادة الدائرية في عنقه ناظرا إليها برعب، محاولا الصراخ لكنه لم يستطع، وضع يديه الاثنين على عنقه محاولا التنفس بعد أن شعر بحبال خفية التفت حول رقبته لتمنع عنه الهواء، بينما كانت تنظر إليه بتركيز وابتسامة شماتة.

سقط عم "ضاحي" ليضرب بقدميه الأرض بشراسة في محاولة أخيرة منه لمقاومة الموت، وتركت إحدى يديه رقبته لتتمسك بالقرص الدائري بكل قوة، ليحاول حمايته حتى آخر نفس من أنفاسه، ظل يقاوم قلة الأكسجين لمدة دقائق رغم كبر سنه، لم تفلت يداه خلالها القرص، حتى همد جسده تماما وكف عن المقاومة.

اتجهت إليه الفتاة بنظرة نصر وشماتة، واختطفت القلادة المعلق فيها القرص الذهبي من عنقه وأسرعت مغادرة المعبد.

اليوم فقط سقط معبد دندرة، ومات قلبه النابض، وحاميه الباسل، اليوم رحل الشيخ "ضاحي" شيخ حراس معبد دندرة، مدافعا لآخر لحظة في عمره عن مكان عشقه إلى آخر نفس.

الفصل السادس

لقد رأت كل شيء..

كانت تتنفس باضطراب شديد..

العرق الغزير يتصبب من جبهتها..

وقلبها يدق كراكض في حلقة السباق.

استيقظت سارة بعد موت "ضاحي" فزعة، تمسح دموعا سقطت أثناء نومها، أمسكت ملاءة السرير بيديها الاثنين، في حسرة، وبكت بكاء مرا.

كان الأمر أكبر من احتمالها، هي التي عاشت عمرها ما بين تدليل والديها إلى تدليل جدها دكتور توفيق، الآن تعيش كابوسا مستمرا تتخلله بعض الأحلام.

منذ أن قص عليها جدها ما حدث مع جدتها دكتورة منى وهي تحاول ربط أحلامها والقلادة وما يحدث معها، تحاول البحث عن المسئول عن كل تلك الأحداث، أفرغت كتبها، وحاولت عبثا إيجاد أوراق البحث الذي تسبب في مقتل جدتها ولم تجده كما أخبرها جدها.

اختفت تلك الأوراق عن ذلك المنبوذ وأصبحوا أمام عدو مجهول، عليهم محاربته وهم عميان.

كانت صدمتها وحسرتها كبيرة لأنها عرفت عم ضاحي، كان بالنسبة لها رجلا عاشقا للآثار، يساعد أي باحث بود ومحبة.

أدركت معضلتها سريعا، كان عليها الذهاب إلى حسام وإقناعه بالبحث في مقتل ضاحي، تحتاج إلى خبرته ومساعدته، شعرت ولأول مرة بعدم الأمان، فكرة الذهاب وحيدة والتحقيق فيما حدث كانت صعبة التنفيذ رغم تهورها في بعض المواقف في السابق، بات الأمر الآن خطرا، لا تريد كسر قلب والدتها إذا حدث لها شيء، لكن في النهاية، أن لم يوافق على مساعدتها ستذهب وحيدة.

في لحظة تذكرت كل تلك السجالات التي دخلت فيها مع والدتها بسبب مهنتها، ونظرات الخوف التي كانت تراها في عينيها كلما سافرت وابتعدت عنها.

ولأول مرة تجد نفسها كاذبة.

بالطبع ستختلق الأكاذيب، لكن بما أنها ليست ماهرة في الكذب جلست بعد نوبة البكاء تفكر في كذبة مقنعة تطلب بها مساعدة حسام.

الفصل السابع

وقف مراسل قناة "أيه بي سي نيوز" ينظر للكاميرا ويشير بيده إلى بقعة جليد دائرية ضخمة للغاية في نهر مدينة ويست بروك، ويتحدث إلى مشاهديه قائلا:

لا تحتاج إلى الذهاب إلى مصر ومشاهدة عجائب الدنيا "الأهرامات"، لأننا لدينا هنا في ويست بروك عجيبة من عجائب الطبيعة، حيث تكونت بقعة جليدية ضخمة على شكل دائرة رائعة في منتصف النهر.

تجمع الناس حول سور البحيرة بهواتفهم المحمولة يتسارعون لالتقاط الصور.

بينما في الطرف الآخر من المدينة كانت تنظر إلى جهاز التلفاز بعينها الزرقاء وخصلاتها الصفراء المتناثرة على وجهها، "موري وارين" حفيدة إمبراطور صناعة الورق ووريثته الوحيدة.

كانت موري قد عانت يوما شاقا وليلة طاحنة من البكاء، ورغم برودة الجو الشديدة وتساقط الثلوج إلا أنها ظلت الليل كله في شرفة غرفتها تبكي.

يوم عصيب، لا تعرف متى بدأ كي تتيقن أنه سينتهي، لكن القرص الجليدي الذي ظهر في نهر مدينتها علامة تحذيرية لها بضياع المفتاح الآخر، فهمتها على الفور.

إنها أولى العلامات لموت رفيقها الثاني، شعرت بكل شيء حدث لضاحي، كانا مترابطين روحيا، منذ اليوم الذي حملت فيه ذلك القرص المستدير في عنقها، وتعرفت عليه كحامل للمفتاح الآخر.

تلك اللعنة العائلية التي توارثتها من جدها الأكبر، ولامته على كل شيء، كانت تظن أن ما حدث لعائلتها سببه جدها الذي انتهك حرمة الأموات.

اقترب سنها من الخامسة والخمسين عاما، ولم تكن تستطيع الاختلاط والمواعدة والحب أو الزواج كباقي أصدقائها.

في البداية عندما ارتدت القرص الذهبي أوشكت على الانتحار وترك المفتاح لأي شخص يعثر عليه، حتى تقابلت مع ضاحي ذات يوم.

لم تكن تتحدث العربية وكان ضاحي يتحدث إنجليزية ركيكة تعلمها من السياح والمرشدين الذين توافدوا يوميا على دندرة، تعرف عليها وتحدث معها، وطالت أحاديثهم وجلساتهم.

وكما حدث قديما، كأنما أعيدت المشاهد من آلاف الأعوام، ربط الحب بينهما، وصار لقاؤهما يوميا.

صارا عاشقين يلتقيان خلسة بين الممرات الزمنية، محبان كل واحد منهم في طرفي الكرة الأرضية، وصلتهما البوابة الزمنية.

تغيرت حياتهما وعادت موري المبتسمة، التي تختلط بالناس تراجعت عن فكرة الانتحار، تقبلت كونها حاملة للمفتاح، وعلي الرغم

أن أمنيتها الوحيدة كانت هي السفر إلى مصر، إلا أن ضاحي كان يرفض باستمرار خوفا عليها.

الآن لا مفر لها من السفر، نظرت إلى ذلك الصندوق الفخم أمامها، حيث ترك القرص الذهبي به، وحدثته كشخص أمامها:

. تحملت الكثير بسببك، والآن حان وقت إرجاعك إلى بلدك ومكانك.

تنهدت وأمسكت هاتفها المحمول، نقرت عليه عدة مرات ثم تحدثت مع الشخص الآخر:

. احجز لي من فضلك تذكرة إلى القاهرة في مصر.

أنهت المكالمة، وأغلقت الصندوق بعصبية، أحضرت حقيبة السفر لتضع بها ملابسها.

وكل ما تفكر فيه، ماذا لو وجدني قاتل ضاحي عن طريق المفتاح كما وجدته أنا.

هذا ما كان يخشاه ضاحي طيلة حياته، لكنه ترك لها خيطا من الأمل، وأخبرها بعد وفاته إلى من تذهب وتطلب المساعدة.

الفصل الثامن

وقفت ليكتارا بزهو أمام معلمها الأكبر، في مكتبه الأسطوري، تحمل في يدها غنيمتها بعد قتلها لضاحي.

أحنت رأسها ولامست ركبتاها الأرض في خشوع لتسلم معلمها المفتاح.

تقدم نحوها بنظرة شرهة، وابتسامة جانبية يخالطها إحساس بعدم التصديق، فبعد مرور كل تلك القرون حصل على نصف مبتغاه.

أمسك القرص منها بشدة، وتقدم ليجلس على كرسي مكتبه، بينما نهضت ليكتارا من جلستها متحدثة:

. بقي يا سيدي المفتاح الآخر، فقط أخبرني من يحمله، وسيكون تحت أقدامك.

نظر إليها بخبث:

. قريبا سنعرف من هو حامل المفتاح الثاني، لكن الآن أريدك في مهمة أخرى.

أومأت رأسها في صمت، فأكمل حديثه:

. حفيدة توفيق تلك الفتاة الصغيرة، قوتها تزداد يوما عن يوم، أنا أشعر بها.

قالت ليكتارا:

. يمكنني قتلها

رفع يده بالرفض:

. لا أريد قتلها الآن، لم يحن وقتها، أريد معرفة دورها ولماذا اختارها كهنة آمون، علمت أن وسيلة اتصالها بهم كانت الأحلام.

. من السهل أن نرى أحلامها، أو إذا أردت أيها العظيم نجعلها لا تذوق النوم أبدا.

بينما كان ينظر إلى كل تفصيلة في القرص، هز رأسه علامة الرفض:

. لا نستطيع اختراق أحلامها، قوتها أكبر من أن نفعل ذلك معها، ولا أريد منعها من الأحلام ربما يخطئ كبير كهنتهم ولو مرة وأحصل على مبتغاي.

رفع نظره إلى ليكتارا، مستطردا:

. لكن يمكننا تشتيتها وإرباكها

نظر إلى المفتاح دقيقة كاملة، ثم عاد بنظره إليها:

. ذلك المدعو حسام، أريدك أن تلقي بتعويذتك عليه، أريده أن يموت ببطء، بمرض من أمراضهم لا علاج له، يجب أن يتم الأمر بطريقة طبيعية لا تشك بها سارة، ولا يعلم عنها توفيق، أريدها وحيدة، لا مساعد لها.

تكلمت ليكتارا:

. لكن لماذا أقتله دون أن يعلموا أننا من قتلناه؟ يمكنني التخلص منه وإرهابهم منك سيدي.

رفع يده في رفض:

. لا، إذا قتلتيه وعلموا أنني وراء ذلك، ستشحن مشاعر تلك الفتاة بالانتقام، وسيزيدها إصرارا على محاربتي، أما إذا مات قضاء وقدرا،

ستتجه مشاعرها إلى لوم الحياة والنصيب، وتصاب بالإحباط ويزيد تشتتها.

لقد عشت آلاف الأعوام، تمكنت من فهم نفسية البشر، كيف يفكرون، كيف يصابون بالحزن وكيف يفرحون، كائنات أضعف مما تتخيلين، عليكِ فقط تعلم كيفية البحث عن نقطة الضعف، بعدها يمكنك الضرب بقوة.

أومأت ليكتارا برأسها في خضوع تام، ليس لها أن تتكلم أو تتناقش، هي تسلم نفسها بالكامل له، طالما تمتعت بالقوة والشباب الدائمين.

لكن غيرة النساء قاتلة، تلك الغيرة التي بدأت تتكون داخل قلبها، حديث معلمها عن قوة سارة، جعلها تشعر بالتهديد لأول مرة منذ قرون، هي التي ظلت مئات السنين أقوي امرأة في عالم السحرة، لا يقف أمامها عدو ولا يصمد رجل أمام جمالها.

شعر بما يدور في رأسها، فابتسم لها بسخرية قائلا:

. مهما منحت من قوة وجمال لا زلتِ امرأة تقتلها الغيرة.

. سيدي..

قاطعها مكملا:

. فقط اجعلي من تلك الغيرة وقودا للتغلب عليها، المشاعر التي نشعر بها علينا أن نجعلها دائما وقودا لمصلحتنا، لا وجود للمشاعر الطيبة والمشاعر السيئة كما يزعم البشر، المشاعر لها جانبان، أما أن تجعلك ترتقين إلى الأعلى، أو تقوم بتدميرك وإغراقك في القاع.

البشر تقتلهم مشاعر الإحباط والفشل واليأس، تلتف حول رقابهم بحبال فتخنقهم ببطء، حتى يقرروا في لحظة قتل أنفسهم، يخسرون حياتهم لأسباب في كثير من الأحيان تكون تافهة.

إنها سلاح فتاك عليكِ فقط إجادة استخدامه، وسترى أعداءك يدمرون أنفسهم أمامك.

أومأت برأسها في صمت، وأدت التحية بخضوع وغادرت مكتبه.

الفصل التاسع

انهمر ماء الصنبور البارد على رأسه بقوة، وضع يديه على وجهه ليغسله، ثم عاد ووضع رأسه مرة أخرى بكاملها، لم يجبره الماء على إغلاق عينيه، كانت المياه تنساب على جفونه ورموشه كمن يبكي دموعا بغزارة.

كانت روحه التي تبكي، وعقله تقتله الحيرة، أغمض عينيه للحظة فتذكر تلك الأحلام التي تزوره كل ليلة.

المعبد بألوانه الزاهية، سارة الغارقة في دمائها، ونقاط الذهب التي تسيل على الأرض.

أغلق الماء وجفف نفسه، ارتدى قميصه وخرج باحثا عن والدته، تجول في أرجاء الشقة حتى وجد والده على كرسيه المتحرك جالسا في الشرفة، يرتشف قهوته.

. مرحبا يا أبي.

نظر إليه والده وابتسم:

. لقد أصبحت الحاضر الغائب يا حسام، وصرت قلما أراك رغم أنك لا قضية لديك لتنشغل عنا.

تنهد ومسح وجهه بيديه، وتناول سيجارة أشعلها وهو يتأمل النيل قائلا:

. أخبرني يا أبي، هل تعرف الدكتور توفيق، دكتور المصريات الشهير.

ارتبك والده واهتز فنجان القهوة بيديه فوضعه على منضدة صغيرة بجانبه، لاحظ حسام ذلك الارتباك وتلك الانتفاضة، فأكمل حديثه:

. أنني على وشك التحقيق في قضية تشبه قضية زوجته، التي قتلت منذ أعوام.

تكلم والده بتردد وبكلمات متقطعة:

. نعم كان مشهورا، وبحكم عملي في تحقيقات القضايا المتعلقة بالآثار كنت التقيت به مرة أو مرتين، لا أذكر التفاصيل.

كان حسام ينظر إلى والده دون أن يجفل، زادت مرارته عندما علم أنه يكذب، حاصرته الشكوك والأفكار وضيقت عليه الخناق.

كذب والده بمثابة طامة كبرى له، الأمر الذي يجعل والدي يكذب، بالتأكيد ليس أمرا هينا.

. هل تعلم أي شيء عن مقتل زوجته؟ أي شيء يا أبي؟

قال جملته الأخيرة وقد ظهر الرجاء في صوته.

. لم أحقق بها، لكن الأقاويل اتجهت إلى إدانته رغم أنه لم يكن هناك دليل ثابت ضده.

شعر حسام وقتها بمزيد من الكذب يخرج من والده، وهو الذي اعتاد أن يسمع منه الصدق والصراحة دائما، كان الشيء الوحيد الذي يكذب فيه والده هو عدد فناجين القهوة التي تناولها، خشية ثورة زوجته والصراخ عليه بأوامر الطبيب التي حفظها.

أرهق حسام نفسيا، كثرة الأحلام وقلة النوم، استهلكت صبره واحتماله، قرر أن يضع والده أمام الأمر الواقع:

. هل تذكر متى قابلته؟

هز والدة رأسه:

. ربما في المديرية في قضية ما، والمرة الأخرى أظن أنها كانت في نفس المكان.

جلس حسام على كرسي ليواجه والده:

. أبي لقد حصلت على صورة قديمة تجمعني بدكتور توفيق وأنا صغير في أحد معابد الأقصر، هل تستطيع أن تخبرني كيف التقيت به؟

زاد ارتباك والده، وتعرقت جبهته، اهتزت يداه فأمسك بأذرع كرسيه المتحرك ليسيطر على نفسه:

. ربما تقابلنا صدفة عندما كنا في رحلة أنا وأنت ووالدتك، كان هذا منذ أعوام كثيرة، لم أعد أتذكر تفاصيل كل شيء.

. حسنا ربما تتذكر أمي، طالما كانت معنا، أين هي؟

. ذهبت إلى هبة، حتى تهدأ الأمور بينكما.

ثار حسام على أبيه:

. ومن طلب منها أن تذهب وتتكلم بلساني؟

صرخ فيه والده وقد قفزت شرايين رقبته:

. أنا لم أربيك كي تكون أقل من رجل مع خطيبتك.

. أنا لن اعتذر عن شيء لم أخطأ فيه، يكفيني هموم وظيفتي، وعليها أن تراعيني وأن تتأقلم.

. كان يمكنك أن تشرح لها بهدوء

. كيف أشرح لواحدة لا تريد أن تنصت.

رن هاتف حسام قبل أن يرد والده، تناول الهاتف ليرى اسم سارة، نهض من مكانه ليحدثها بعيدا عن والده:

. دكتورة كيف حالك.. نعم اطلبي ما تريدينه.. حسنا سألقاكِ بعد نصف ساعة.. وداعا.

اتجه إلى والده وبعينيه نظرة غضب لم يرها فيه من قبل:

. سأذهب لقضية ما، عندما تعود أمي أخبرها أني أريد الحديث معها.

أمام صمت والده اتجه إلى غرفته ليغير ملابسه، وعندما فتح الباب مغادرا تقابل بوالدته:

. إلى أين أنت ذاهب، لنا حديث طويل معا.

. بالتأكيد يا أمي ولكن دعيني أولا انتهي من عملي.

أغلق الباب وراءه بعصبية فاجأت والدته، التي ذهبت إلى الشرفة بحثا عن زوجها، وهمت بسؤاله:

. ماذا حدث بينكما، ولماذا حسام بتلك العصبية؟

ابتلع لعابه بمرارة، ونظر إليها:

. يبدو أن ابنك قد تعثر بقضية تقلب له الماضي، ابنك لن يرتاح حتى يعرف كل شيء.

انهارت على الكرسي أمام زوجها، كان الماضي بالنسبة لهما أشواك لا يمكن الاقتراب منها دون الموت.

الفصل العاشر

كان مكتبه في المديرية بسيطا، كرسي ومكتب، ومقعد مستطيل للزوار صباحا والنوم ليلا إذا حتم عليه عمله المبيت، تلك البساطة التي تنم عن صراحة ووضوح، أو هكذا رأتها سارة عندما زارته بمكتبه لتخبره بشكوكها عن مقتل حارس المعبد.

. غرفة مكتبك صريحة وواضحة مثلك تماما.

ابتسم حسام وهو يعدل لها كرسيها لتجلس عليه:

. وهل قضية واحدة تجعلك تظنين أنك تفهمينني؟

. ليست قضية واحدة وإنما نظرة واحدة.

توقف ونظر إليها متعجبا، تلاشت ملامح الغضب التي حملها من منزله إلى مكتبه، وظهرت عليها لأول مرة ملامح الخجل، أحمرت وجنتاها وتظاهرت بفتح حقيبتها لتخرج ورقة جريدة وصورة لها مع ضاحي.

لكنه أعطاها ظهره مبتسما، فقد استطاع أن يظهر نقطة ضعف لها، تلك العملة التي أصبحت نادرة للغاية، الخجل.

رأى كثيرات يصطنعن الخجل بتبجح، من السهل عليه أن يكشف اصطناعهن، لكن خجلها كان صادقا، فما من خجل مصطنع يضخ الدم في الوجنتين فيلونهما بلون أوراق الورد.

وللحظة تناسى كل شيء تركه خلفه في المنزل، كل شكوكه وكوابيسه، تساؤلاته وحيرته، كأن الكل توقف.

ولما توقف الكل توقف الألم أيضا.

جلس على المقعد المواجه لها، أصبح يستمتع بالتنقيب داخلها، وما من مصباح يساعدك على التنقيب داخل أحدهم سوى العينين.

إنها تفضح كل شيء.

أعطته ورقة الجورنال والصورة.

قرأ الخبر بتمعن، ونظر إلى الصورة كانت منذ أعوام دراستها، كانت تبدو صغيرة، فابتسم مرة أخرى متعمدا وواثقا أن الخجل سيقوم بفعلته مرة أخرى.

أحمرت وجنتاها لثاني مرة، شعرت بالحنق داخلها لأنها لم تتحكم في مشاعرها، لكنها حاولت أن تتدارك الموقف:

. حسنا لقد كانت تلك الصورة منذ أعوام، الآن أريد أن أعرف رأيك.

صمت حسام ليقرأ الخبر مرة أخرى، ثم طوي الورقة وأعطاها لها:

. ماذا تعتقدين، أريد أن أعرف رأيك أنتِ؟

. أنا لست محققة جرائم، لكن ما أعرفه أن ضاحي كان بصحة جيدة جدا، وموته عليه كثير من الشكوك.

تنهد حسام، وهو ينظر إليها، طالت نظرته الصامتة، ثم تكلم أخيرا:

. بالطبع رأي لن يشكل فارقا، أنت ستذهبين معي أو من غيري للتحقيق.

. كان ضاحي رحمه الله يملك الكثير من الأسرار، وأنا أثق أن أحدها سبب موته.

رفع حاجبيه متوقعا إجابتها، أتت أمامه صورتها وهي غارقة في دمائها، تلك الصورة المخزنة في عقله من كوابيسه الليلية:

. وبالطبع لأنك محققة جرائم وتمتلكين خبرة كبيرة في استخدام ومواجهة الأسلحة، ومدون في بطاقتكِ المهنة امرأة خارقة، ستذهبين بكل الأحوال.

تضايقت ملامحها، لكن لم يمنعها الضيق من الرد:

. أنا أمارس لعبة التايكوندو وأملك الحزام الأسود في الكاراتيه، أنت للأسف لم تراني فقط وأنا أوسع أحدهم ضربا.

. في الحقيقة أن لسانك يقوم بالمهمة على أكمل وجه.

في إشارة منه على معاركهم الكلامية في قضيتهم الأولى.

ثم أكمل:

. لا خيار لدي سوى الذهاب معكِ، خاصة بعد أن أصبحنا في وحدة تحقيق واحدة.

لم تصدق سرعة وسهولة موافقته، لقد قضت ساعات تؤلف أكاذيب لتقنعه بها، قطع سيل أفكارها بكلامه:

. لكن سأذهب معكِ بشرط واحد..

عمت الدهشة ملامحها، وهزت رأسها في تساؤل عن ذلك الشرط دون أن تتكلم:

. في الحقيقة أريد أن أقابل جدكِ الدكتور توفيق، أريد أن أتحدث معه وأستفيد من خبرته، إنها مقابلة واحدة ترتبينها لي معه.

. شرط بسيط، لك ذلك بالطبع، ومعه وجبة غداء على شرف زيارتك لنا.

. حسنا لنسافر غدا، سأتحدث مع إبراهيم ليرتب أمره.

هزت رأسها ونهضت وهي مبتسمة، كان الأمر أسرع وأسهل مما تخيلت، كل ما ضايقها أنها ظهرت أمامه بمظهر أكثر ضعفا مما اعتاد عليه.

فقد طحنتها الأيام الأخيرة، غيرت داخلها، هدت وشيدت حوائط وحواجز كفيلة بتغييرها من الخارج.

أوقفها حسام:

. لماذا تغادرين سريعا، لم تتناولي قهوتك بعد؟

. اعذرني لدي الكثير من الأمور لكي أنجزها قبل السفر.

غادرت مكتبه الذي غرق لأخره برائحة اللافندر، ذكرته تلك الرائحة بالقضية الأولى، وجلستهما معا في منزل العمدة، نظر إلى صورتها بجانب ضاحي، تأملها قليلا.

وقف ليصنع لنفسه قهوته المعتادة، لكن باغته ألم حاد في رأسه، جعله ينهار على مقعده بعنف محدثا صوتا عاليا نتيجة احتكاكه بالحائط خلفه، وضع رأسه بين يديه محاولا تخفيف الألم، لكن صفير أذنيه زاد كثيرا، وتصبب عرقه بصورة غزيرة، زاد الألم أكثر فصرخ وترك كرسيه ليجلس على ركبتيه في الأرض.

مرت دقيقتان، قبل أن يبدأ الألم في الزوال، بدأ في استعادة تركيزه وحركته ببطء، استند على مكتبه، لينهض ويجلس على الكرسي بصعوبة، فتح قميصه وأراح رأسه على المسند، محاولا إدخال أكبر قدر من الهواء إلى رئتيه.

يبدو أن الإرهاق وقلة النوم، وعصبيته الزائدة نالت منه أخيرا، هذا ما فكر فيه أن يكون سببا للألم.

الفصل الحادي عشر

خلع نظارته الطبية وفرك عينيه ناظرا إلى دائرة الأبراج أمامه، وهي تدور بسرعة، تتبدل عليها أماكن النجوم والمجموعات السماوية، كانت سرعتها زادت كثيرا بعد مقتل ضاحي.

نظر توفيق إلى ساعته، فقد مضت خمس ساعات كاملة في تلك المكتبة الأسطورية، يبحث بين الكتب عن أي شيء يساعده، حتى فقد الأمل تماما.

تيقن بخبرته أن معظم المخطوطات والكتب التي يمكن أن تساعده قد احترقت أو ضاعت في ظروف غامضة، هو لا يملك شيئا سوى بحث زوجته التي أخفته قبل مقتلها خوفا عليه، ولم يجده إلى الآن.

حتى عندما مكثت حفيدته ثلاثة أيام تبحث في مقتنيات جدتها لم تجد شيئا.

علمه بموت ضاحي من الجرائد جعله يتأكد أن هناك خطأ ما، ودائرة الأبراج التي تتسارع حركتها أخبرته أن هناك شيئا رهيبا على وشك الحدوث، كل ما يعلمه أن الدائرة ربما كانت إشارة تحذيرية عن الكتاب العظيم.

كتاب تحوت، أو حكمة تحوت، الكتاب الذي قيل إنه يحتوي على كل المعرفة والحكمة التي نالتها البشرية خلال عقودها.

الكتاب الذي قيل إن من يملكه، يملك العالم، بكل معرفته وأحكامه وقوانينه.

ذلك الكتاب الذي بحث عنه السحرة والكهنة وحتى الملوك على مر أجيال طويلة. ينقبون في كل مكان ويفعلون أي شيء أملا في إيجاده، والحصول على قوته.

فكر في كل ما دفعه من أجل تلك الحرب التي دخل غمارها رغما عنه، حتى أن كل محاولات زوجته منى إبقاؤه خارج هذا الصراع باءت بالفشل.

حفيدته تلك التي يتمنى أن يراها عروسا، ويرى أبناءها، تنهد بمرارة، يا له من قدر يمارس العهر مع الفسدة ويمارس الشدة والقسوة مع من يناضلون ليلا نهارا للإصلاح.

مر قرابة الشهرين منذ عودته وكل ما يعلمه أن حفيدته وقعت في طريق من لا يرحم، قص عليها ما حدث لجدتها حتى تتراجع وتأخذ حيطتها، خاصة بعد كل تلك الأحداث المتتالية التي حدثت مؤخرا.

ترجاها أن تتراجع، لكنه رأى عنادا وغضبا في عينيها، مثيلين لتلك التي اعتاد أن يراهما في عين زوجته، كذبت عندما سألها ما يحدث معها، وعلم أنها تكذب.

حذرها كثيرا، لكن كانت كمن لا يسمع بعد علمها بمقتل جدتها، والآن يحاول أن يبحث وراءها ويوفر لها كل سبل الحماية دون أن تعلم.

تكالبت الأفكار عليه لتمزق ضميره، كان يظن أنه السبب في مسار حفيدته، وأن أي شيء يحدث لها سيكون بسبب تشجيعه لها، ندم كثيرا أنه رشحها للواء منصور كي تعمل على تلك القضية في القرية، كل ما أراده أن يكافئ طموحها، لكن ما حدث أنها تورطت، تحدث إلى نفسه قائلا، يا ليتها أصبحت طبيبة مثل والدها.

رن هاتفه..

نظر إليه فوجد الرقم غير معروف، تمنى ألا تكون مشكلة أخرى، ترددت يده في الرد، لكنه استسلم أخيرا، وفتح المكالمة ليجد محدثته امرأة تتحدث الإنجليزية بلكنة أمريكية، وعندما عرفته بنفسها وعائلتها، أصابته الدهشة والفضول لسبب مكالمتها، لكنها أخبرته أنها قادمة إلى مصر وتريد رؤيته لأمر ضروري يخص ضاحي، وافق توفيق على الفور.

أنهى المكالمة وتتخبط برأسه الأسئلة، لكن كان السؤال الأهم، ماذا تريد مني تلك المرأة بتاريخ عائلتها الأسود، وكيف تعرف ضاحي؟

الفصل الثاني عشر

لم تفعل مثلما تفعل كل مرة تسافر فيها، تلك الحقيبة التي اعتادت تكديسها بالكتب حتى تزن أطنانا يعسر على بطل في رفع الأثقال حملها.

رحلتها تلك المرة ليست في تحقيق أثري إنما ولأول مرة تذهب لتحقيق جنائي، أكملت ترتيب ملابسها ثم وقفت لتنظر حائرة، إلى صفوف الكتب، لن تسافر دون اصطحاب أي كتاب.

"هم أصدقائي الأوفياء" حدثت نفسها بتلك العبارة، نظرت مليا، ثم اختارت ثلاث كتب، مجملها يتحدث عن معبد دندرة وتاريخ المدينة.

فتحت إحدى الكتب على صورة للهو داخل المعبد، تذكرت في تلك اللحظة عندما كانت تقوم ببحث مصغر فيه، وجاءها "ضاحي" بكوب من الماء المثلج، وزهرة اقتطفها من شجرة نمت داخل أسواره.

رغم بساطته، إلا أنه كان محاربا، يعشق إرث الأجداد، قال لها في ذلك اليوم شديد الحرارة جملة لن تنساها "يا بنيتي إذا أردنا الاحترام من أحفادنا، علينا أن نحترم أجدادنا"، جلست على فراشها، تقلب تلك الذكريات مرارا ومرارا، ثم تذكرت جدتها، جال في رأسها كل تلك الأحاديث والذكريات التي كان يسردها والدها وجدها.

ماذا لو كانت تعيش معنا إلى الآن؟

يقولون أنني أصبحت أشبهها كثيرا، من طريقة تفكيري لطريقة تناولي الطعام.

هل يسمعنا الأموات عندما نحدثهم بما في قلوبنا؟

هل يتعرفون إلينا إذا كانوا قد رحلوا قبل مجيئنا إلى هذه الحياة؟

طرقات الباب، أيقظتها من تخبط أفكارها بين الماضي والحاضر، كانت والدتها ياسمين تستعد للمحادثة المعتادة قبل كل سفر لابنتها. لا تمل أبدا ولا تنسى أن تسرد عليها نصائحها مودعة إياها بنظرات غضب وخوف وقلق، تلك المشاعر التي لا تفارق امرأة أنجبت أبدا.

. كالعادة مغادرة دون إذن، أو حتى كلمة لي؟

. أمي أنا تحدثت إلى أبي وكنت في طريقي إليكِ

. نعم اهتممت بترتيب حقيبتك أولا قبل إخبار والدتك

انهارت سارة على فراشها، متوقعة المشادة القادمة بينها وبين والدتها.

. أنا آسفة للغاية، لديكِ كل الحق لتغضبي، ستكونين أول من يعلم إذا سافرت مرة أخرى.

حاولت بتلك الجملة امتصاص غضب والدتها.

لكن ملامح ياسمين لم تتغير، كان قلبها يجتاحه قلق مرعب، لا تعلم سببه، رغم أن ابنتها سافرت كثيرا في الماضي، لكن الأيام الماضية وانفراد ابنتها بجدها عدة مرات، وخروجهم سويا، إلى جانب التغييرات التي طرأت على ابنتها لم تكن أي أم لتفوت كل هذا.

. إلي أين تلك المرة؟

. إلي دندرة، لدينا تحقيق هناك

. هل هذا ضمن الوحدة التي انضممت إليها؟

. نعم، وسأسافر مع ضابط وأمين شرطة، فأنا لست بمفردي، لذا اطمئني.

تنهدت ياسمين، وارتاحت ملامحها قليلا، نهضت من مكانها، فتحت باب الغرفة وتوقفت قبل أن تغادر لتسأل ابنتها.

. من هذا الضابط؟

كان هذا السؤال يبدو عاديا جدا، إذا نوقش بين شخصين غير أم وابنتها، أما سارة فقد عرفت تماما ما تقصده والدتها.

. أنه شاب كفء ومجتهد في عمله، خلوق، ولديه خاتم فضي مستدير في يده اليمنى أكبر من قرص الشمس.

تنهدت الأم في حسرة، بعد أن خاب أملها، خرجت وأغلقت خلفها الباب دون كلمة أخرى.

تاركة ابنتها ولأول مرة تفكر في حسام.

كانت ترفض أي شخص يبدي لها اهتماما، رغم أنها لم تكن تجيد قراءة الناس بشكل جيد قبل ارتدائها القلادة لكن قراءة الرجال أسهل كثيرا ولا تحتاج لمجهود أو تعويذة ما.

أرادته رجلا ذكيا لماحا ذا شخصية قوية، مجتهدا في عمله مثلها، يفهم نظرتها قبل حديثها، يتدارك مشاعرها سريعا، يحترم عقلها، يخوض معها المخاطر.

رأت كل هذا في حسام، كان واضحا وجليا كأنها طوعت أفكارها لترسمها لوحة فنية على ذوقها لتخرج إنسانا يوافق كل ما تمنته.

أدركت ذلك متأخرا، خاصة بعد ما قرر الذهاب معها دون تحقيق، لمست في حديثه خوفا عليها غير مفهوم ومبرر.

تعلم أنه شخص يقدس عمله كثيرا، ولن يذهب معها في قضية ليضيع وقته، هناك سبب ما يخصها.

هو لا يعرف "ضاحي" ولم تلفت انتباهه القضية في شيء، ولم يتحدث عنها، كل ما كان يهمه، ذهابها من عدمه.

وضعت حقيبتها وأفكارها جانبا، كان حديثها لا طائل له، هو مرتبط، رجل يتمتع بتلك الشخصية العنيدة والقوية، لا يمكن أن يرتبط دون حب أو دون اقتناع، شعرت أنه يتحتم عليها أن تغلق موضوع حسام، وتركز فيما هو آت.

الفصل الثالث عشر

تلك المرة لم يكن الفندق مطلا على النيل، اعتبرته فألا سيئا، لم يجدوا إلا ذلك الفندق البسيط في قنا ليقيموا به، كان الوقت يسرقهم، تركت حقيبتها وعادت إلى بهو الفندق مرة أخرى في انتظار حسام وإبراهيم.

أرادت المغادرة سريعا بعد أن وصل إبراهيم وحسام للبهو، لكن حسام أشار لها بالجلوس.

. أريد فقط أن نضع معا خطة التحقيق، حتى نصل لشيء.

تململ إبراهيم الذي بدا على وجهه عدم الاقتناع بالقضية من الأساس:

. الفكرة أننا سنذهب لنحقق في رجل يبدو للجميع أنه توفاه الله بشكل طبيعي، ماذا سنقول لهم؟

أشار حسام بيديه له كي يهدأ، عندما أخبر حسام تفاصيل القضية البسيطة لإبراهيم، قبل وصولهم قنا، كان سؤال إبراهيم له: أين القضية؟

ولم تكن سارة ليفوت عليها ملامحه المترددة والغاضبة، حاولت أن تهدئه قليلا كما فعلت مع والدتها، لكنه من النوع الصارم رغم ثقته بها التي بناها من القضية السابقة، فلم يتقبل كثيرا كلامها، كان يعتب على حسام بشكل كبير، لماذا انساق وراءها بسهولة دون أي دليل، لو كان هناك شيء ما ولو صغير لكان أخبره به، إنهم معروفون بسمعتهم، وعليهم الحفاظ على هذا الذكر.

أخرج حسام من جيب قميصه ورقة بها عنوان ضاحي، أعطاها إلى إبراهيم:

. أريدك أن تذهب إلى منزله وجيرانه، تسأل وتنال كل شيء تستطيع معرفته.

وأشار بيده إلى سارة:

. أما أنا وأنتِ سنذهب سويا إلى المعبد، نطلب الفيديوهات الخاصة بكاميرات المراقبة، لنرى ما جرى.

تكلمت عندها سارة، ولكن بأسلوب لين حتى يتقبل كل منهما اقتراحها:

. اسمحا لي، ما يعطي جوابا نهائيا إن كانت جريمة قتل أم لا. هي الجثة، أي آثار ستكون موجودة عليها، بحثنا في أي اتجاه آخر ليس له معنى دون دليل على الجثة.

نظر إليها إبراهيم بإنكار لما تطلبه، بينما تداركها حسام:

. لا نستطيع ذلك دون إذن ذوي الميت أو إذن النيابة، وما دام لا وجود للجريمة، لا نستطيع نبش الجثة.

كانت تعلم أن كلامه صحيح، تمنت فقط أنه ربما هناك حل ما لتلك المعضلة، لكنها لم تكن لتفوت زيارة منزله والحديث مع أسرته، كانت تفكر أنها ربما ترى شيئا ما في منزله، لا يراه إبراهيم، عليها أن تذهب معه ثم تذهب للمعبد.

. هل يمكنني أن أطلب شيئا؟

رفع حسام حاجبيه وأومأ برأسه موافقا:

. أريد أن نذهب سويا إلى بيت ضاحي، ربما وجدت شيئا ما.

نظر كلاهما إلى إبراهيم، الذي سارع بسؤال حسام:

. هل أذهب أنا إلى المعبد؟

. حسنا يمكنك الذهاب، وجلب لقطات الفيديو نفحصها ليلا ونذهب غدا صباحا إلى المعبد، لكي نكسب وقتا.

تفرق كل واحد إلى مهمته، ركب كل من حسام وسارة سيارة أجرة، إلى بيت ضاحي.

كانت "قنا" قد تطورت بشكل كبير جدا في السنوات الماضية، وهي محافظة اشتهرت في العصور القديمة باسم "شابت".

وسماها العرب "اقني" أو "قني"، بمعنى احتضن، لأن ما يظهر على شكلها في الخريطة أنها تحتضن النيل.

مرت السيارة على مسجد سيدي عبد الرحيم القنائي، وهو تحفة معمارية أثرية شيدت في العصر الأيوبي، يتكون من صحن أوسط مربع يحيط به أربعة إيوانات متعامدة، أكبرها إيوان القبلة، يعتبره القنائيون مصدرا للفخر والاعتزاز.

توقفت السيارة كثيرا، بسبب ازدحام الشوارع بطلبة الجامعات، كثير من المحلات علقت صورة الشاعرين أمل دنقل، وعبدالرحمن الأبنودي وهما من أبناء المحافظة.

كانت الفرصة متاحة لحسام لرؤية أشياء جديدة، لأنه لم يزر قنا من قبل، لكن سارة زارتها عدة مرات.

ساد الصمت بينهما، لكن حسام لم يهدأ عقله كلما فكر في سبب مجيئه، حدث نفسه "أنا مصير لا مخير، كانت ستأتي بكل الأحوال، طالما لم نجد شيئا سنغادر"، وكلما تشكك، حدثته خبرته في العمل أن

هناك شيئا ما غامض، لا يعرفه ولا يجد أي سبب ليجعله يعتقد ذلك، هو فقط شعوره وإحساسه الذي طورته خبرته.

مر الوقت حتى وصلا إلى قرية دندرة، وهي قرية تقع بالقرب من المدينة، مرت أقل من نصف ساعة وكانت السيارة بداخل القرية، تمر في الشوارع الضيقة، وبين الكتل الخراسانية المسماة منازل حديثة.

اشتهرت قرية دندرة باسم قرية العمم البيضاء، لتميز أهلها بعمة "غطاء للرأس" عن باقي الصعيد، يشبه إلى حد كبير غطاء المغاربة، إلى جانب اشتهارها بمهرجان للتحطيب وآخر للفروسية.

تذكرت سارة، عندما أرادت أن ترى التحطيب تلك الرياضة التي يرجع تاريخها إلى الأجداد، جاءت إلى القرية وقت المهرجان وصورت اللعبة، كانت كمن عاد بها الزمن آلاف الأعوام، لم يتغير شيء من الأجداد للأحفاد.

ترجلت من السيارة التي توقفت أخيرا إلى جانب الطريق، ولم يكن من الصعب عليهما معرفة منزل ضاحي.

كان النسوة مرتديات الجلباب الأسود جالسات على الأرض، وأصوات البكاء والعديد يصدح صوتها كأنها تخرج من مكبرات صوت.

أداء الواجب في الجنائز لدى نسوة الصعيد يتمثل ببساطة في الصريخ والعديد، حيث تدخل المرأة بموجة من الصراخ والكلمات المقفاة كالشعر تنعي فقدان الميت وهو ما يطلقون عليه العديد.

هي عادة مصرية قديمة لم تنته في الصعيد، ومازالت مستمرة إلى الآن، يتقنها النساء كبار السن، ففي وسط أي عزاء تستطيع أن تكتشف مواهب في الشعر.

تردد كلاهما في الدخول، كان مظهرهما يبدو مريبا، والكل ينظر لهما، وكان من المستحيل على حسام الدخول وسط النسوة لإلقاء الأسئلة على ذوي الميت.

. ماذا سنفعل؟ سألها في حيرة..

. سأدخل أنا أسأل عن عائلته، وإذا استطعت إخراج أي فرد منهم لكي تستجوبه، سأفعل.

انطلقت دون أن تنتظر رده، خافت أن يرفض اقتراحها وهو ما كان سيفعله، جلس على حجر ضخم في الشارع، أخرج سيجارته بعصبية، أشعلها ونفث دخانها بقوة آملا أن يخرج مع الدخان، غضبه وقلة حيلته.

الفصل الرابع عشر

دخلت سارة إلى المنزل، سلمت على كل النسوة، حتى تكسب احترامهم، تلك عادة أخرى، كان الكل ينظر إليها لارتدائها ملابس ملونة، وهو ما يعد عيبا كبيرا في قوانين الصعيد، الكل يرتدي لون السواد وقت العزاء ولا مجال للألوان، الأسود فقط.

صرخت "الشلاية" وهو الاسم الذي يطلق على المرأة المختصة بالعديد، عندما رأت سارة، لتحمس النسوة ويتعالى الصراخ:

علي باب دولابك زقزق القمري

ورق الحكومة على الدولاب مرمى

علي باب دولابك زقزق الزرزور

ورق الحكومة على الدولاب مركون

فهمت أن المرأة قصدت أن ضاحي كان موظفا للحكومة، وأوراقه ستكون مهملة فوقها العصافير والطيور لأن صاحبها الذي يهتم بها قد رحل.

ربما خمنت الشلاية أن سارة من مكان عمل ضاحي، فأخرجت تلك الأبيات، جلست على الأرض بجانب فتاة شابة، فكرت أنه سيكون من الأسهل سؤالها، انتظرت حتى يعلو الصراخ مرة أخرى، ومالت على الفتاة لتسألها:

. هل تعلمين أين أجد أهل الشيخ ضاحي؟

. عم ضاحي لم يكن له سوى أخته "فايزة"، هي موجودة بالأعلى ورفضت أن تأخذ بعزائه.

. لماذا؟

هزت الفتاة رأسها في إشارة منها لعدم معرفتها بالسبب. تحيرت سارة، أن ترفض أخته أخذ عزائه هي طامة كبرى في الصعيد. وليس لها معنى إلا أن ضاحي قد قتل وهي تنتظر الأخذ بثأره.

كان المنزل مستطيلا صغيرا، ممتلئا بالنسوة اللاتي افترشن الأرض، والبعض منهن جلس على مصطبة طينية. وفي آخر المنزل سلم من الطوب النيئ، متهالك، له مسند من جريد النخيل.

حددت سارة هدفها، وهي الصعود إلى أعلى ومقابلة أخته. نهضت بهدوء، واتجهت إلى السلم وصعدت لأعلى، بينما تعالت أصوات النسوة في تساؤل، من تلك الفتاة؟

احتوى الدور العلوي على قسمين للنوم، كان جليا لها أن قسم يخص ضاحي، علق فيه صورا للمعبد، وصورة له مع وزير الآثار، وصورة قديمة له مع زاهي حواس.

والقسم الآخر لا شيء سوى مكان النوم، جلست فيه امرأة تعدى سنها السبعين عاما، ضريرة البصر، تمسك بعصا خشبية، تطرق بها الأرض طرقات ضعيفة، وتهتز يمينا ويسارا على تلك الطرقات في وجوم وحزن.

شعرت المرأة بوجود شخص غريب، فتوقفت عن الحركة:

. من هنا؟

جلست سارة بجانبها:

. أنا دكتورة سارة، كنت أعرف عم ضاحي رحمة الله، وجئت لأعز...

لكنها لم تكمل كلامها، قاطعتها المرأة بحدة:

. قلت لن أخذ عزاءه

. لماذا؟

. إنها أسباب شخصية؟

ترددت سارة قليلا، ولكنها فضلت الصراحة على أن تخرج خالية الوفاض خائبة الرجاء أمام حسام وإبراهيم:

. في الحقيقة، لقد جئت إلى هنا يصاحبني ضابط شرطة، لاعتقادي أن عم ضاحي قد قتل.

صمتت المرأة وتسمرت بلا حركة، غاصت داخل عقلها في تفكير عميق، حديث سارة أكد معلوماتها، أن أخاها قد قتل، لكنها ورغم ذلك لم تتفوه بكلمة، فضلت الصمت.

لكن سارة لم تفقد الأمل، بل قررت اللعب بكل أوراقها، عليها أن تخرج منها بأي معلومة تعزز موقفها وتكشف لها ما يحدث:

. يا أمي، أنا أعرف أن عم ضاحي كان يحمل قرصا ذهبيا، وربما كان هذا سبب قتله.

التفت إليها المرأة بعصبية:

. بل هو لعنة، طالما اعتبرته لعنة، وطالما أخبرت أخي أنه لن يعيش لباقي حياته بسبب ذلك المفتاح.

. ألا تريدين العدالة والراحة لأخيك في قبره؟

. لا تستطيعين جلبها له يا عزيزتي، هذا أكبر من قدراتك؟

. لا تحكمي علي، أنت لا تعرفيني ولا تعرفين قدراتي.

ابتسمت في سخرية:

. لم يتبق لي شيء، امرأة طاعنة في السن وضريرة، ماذا تنتظرين مني؟

. أريد المساعدة فقط، إخباري بكل شيء، كما اعتاد عم ضاحي على مساعدتي، صدقيني لن أخذله ولن أخذلك.

. وما سأجنيه إذا أخبرتك؟

. راحة الضمير، هي شيء لا يقدر بثمن تلك الأيام.

تنهدت بحسرة:

. ماذا تريدين أن تعرفي؟

. أريدك أن تخبريني بكل شيء ولكن أمام الضابط الذي أتى معي.

. وهل ستصدقون ما أقوله؟

هل أنتم على استعداد لفعل ذلك؟

. كلي آذان صاغية لكِ، في مجال عملي رأيت الكثير لن يكون عصيبا أن أصدقك.

أومأت المرأة برأسها موافقة.

رفعت سارة هاتفها تطلب من حسام الصعود، وبعد مشادات معه، دخل المنزل وسط النسوة وصعد إلى أعلى ليجدها، ومعها فايزة جالستين في صمت، أشارت بيدها إليه ليجلس ثم تحدثت إلى فايزة:

. أخبريني بكل شيء، لا تخافي، تحدثي بحرية.

. نحن نملك إرثا قديما في عائلتنا، تناقلته الأجيال لأكثر من 150 عاما، كان جدي الأكبر حبيب، يعمل بتجارة الآثار، وفي يوم مشئوم أحضر معه من إحدى المقابر بالخطأ قرصا ذهبيا، كانت ترتديه إحدى المومياوات، لم يكن أثرا عاديا أبدا، وعندما قرر جدي الأكبر إرجاعه،

كان الأوان قد فات وارتداه عابد ابنه الوحيد، أثناء لهوه وقد علم والده بعد فوات الأوان.

ومن ذلك الوقت تغير كل شيء، صار عابد يملك قوة القرص السحرية، وعلم أن القرص هو مفتاح البوابة في معبد دندرة.

نظر حسام إلى سارة وهز رأسه في استغراب، فأشارت عليه أن يتمهل دون كلام، حتى لا يقاطع فايزة التي أكلمت:

. صار المفتاح إرثا، يتوارثه الابن من الأب، ومن يحمله يعاني مسئولية كبرى وتفرغا كاملا لمهمة المفتاح.

ضاعت أعمارهم في سبيل الحفاظ على البوابة، وكان آخرهم أخي ضاحي، كان يحمل ذلك المفتاح وقت مقتله، وعندما جاءوا لي بجثته لم أجد المفتاح، تأكدت وقتها أنه قتل بسببه.

تحدث حسام بداخله "ما تلك المرأة المجنونة"، لم يصدق حرفا مما قالت، قرر استجوابها ربما أنارت له سوء فهمه:

. اسمحي لي، إذا كان أخوكِ يحمل قرصا ذهبيا في رقبته، فبالتأكيد سيتم سرقته قبل يصل إليكِ جثمانه.

ابتسمت في سخرية:

. سيدي المفتاح لا يظهر أبدا في رقبته إلا بأذنه، وفي حالة موته كان من المفترض أن يظهر لوريثه أو لأقرب أفراد عائلته، فمن قتله كان يعلم طريقة ما يستطيع أن يخرج بها المفتاح بكل قوته من جسد أخي.

جذبت سارة الحديث إليها:

. أنا سمعت كثيرا عن تلك البوابة وكل الأساطير التي دارت حولها، ربما كان الأمر رمزيا فقط.

. يا بنيتي ضاحي كان يملك قوة كبيرة، كان يسافر ويغيب بالساعات عن طريق المفتاح، رغم فقدان بصري كنت أشعر بقوته، أتذكر قبل إصابتي بالعمى رأيته عدة مرات في رقبة والدي، قرصا ذهبيا ضخما يحوي كتابات قديمة.

كان حسام في حالة ذهول كاملة، ما يسمعه سابقة في عمله لا يمكن تصديقها، ويرفض عقله بكل منطقياته وتحليلاته أن يسير على خطى تلك العجوز فيما تقوله.

. كل ما تركه أبي رحمة الله لنا هو ذلك القرص، ومذكرات قديمة جدا ترجع إلى جدي الأكبر حبيب، أضاف عليها ابنه عابد الكثير.

حسام: وأين تلك المذكرات؟

فايزة: سلمها أخي لدكتورة آثار أتت هنا إلى المنزل منذ ما يقارب الثلاثين عاما، كان أخي يظن أن تلك المذكرات تحمل أخبارا خطيرة، ويجب تسليمها لشخص أمين عليها.

ابتلعت سارة لعابها بصعوبة مترددة في سؤالها عن تلك المرأة.

. هل تذكرين أي شيء عن تلك المرأة.

هزت رأسها بالإيجاب:

. نعم، أظن أنه كان اسمها دكتورة منى، وقد قتلت بطريقة بشعة بعد عام بالضبط من استلامها المذكرات، فأعلن أخي الحداد شهورا، شاعرا بالذنب أنه كان السبب في مقتلها.

كانوا جميعا كمن يحاربون عدوا خفيا لا أعرف عنه شيئا، ضاحي "رحمه الله" كان دائما يرفض إخباري، خوفا علي.

شعرت سارة بالصدمة، كانت تلك جدتي، ولم تكتب أطروحتها العلمية التي كانت سببا في مقتلها من فراغ بل كان لديها مذكرات قديمة تحتوي على أسرار، أين ذهبت كل تلك الأوراق.

أما حسام فقد علم أن الكلام كان يقصد به، منى جدة سارة. ومن الصدمة البادية على وجهها تيقن كل اليقين أن أول سمع لها بكل هذا كان الآن.

. هل أخبر ضاحي أي شخص بخصوص المفتاح؟

. مستحيل، أنه سر لا يمكن إخباره إلا للمقربين والوريث..

صمتت لحظة وظهر التردد على وجهها، كان حسام في انتظار تلك اللحظة.

. ربما عرفوا بالمفتاح الآخر.

. مفتاح آخر؟؟؟ سارة متحدثة بدهشة

. نعم كل ما أعلمه أنه هناك مفتاح آخر للبوابة وبكليهما فقط تستطيعين استخدامها.

حسام بنفاد صبر: وأين ذلك المفتاح؟

فايزة: لا أعلم تحديدا مع من، فقد أبقى أخي هويتها سرا، لكن كل ما أعرفه أنها من خارج البلاد وتتحدث معه بالإنجليزية، فقد أمضى شهورا يحاول تعلمها من أجل التحدث معها، كان يلتقيان دائما عن طريق المفتاح، إلا أنني كنت أسمعه يناديها بكلمة "مورا" أو "موري" ظننت أن هذا ربما يكون اسمها.

شعر حسام بالتشتت، لكنه لم يكن ليصدق كل ما سمعه من تلك المرأة، كان يثق أن هناك تفسيرا آخر أكثر منطقية.

أما سارة فقد كانت تعرف أن دليل القتل لتأكيد كل هذا موجود على جثمان عم ضاحي، ساقتها جرأتها لتطلب ذلك الطلب:

. سيدتي أريد أن أطلب منكِ طلبا كبيرا، لكنه قاسيا.

. تفضلي

. نريد أن نرى جثمان عم ضاحي، إذا أردنا أن نتأكد أنه قتل.

. لكن لم يكن على جثمانه أي دليل للقتل.

. لن يخبرك بالتأكيد سوى خبير في فحص الجثث، وأنا لدي خبرة كبيرة، أريد أن أراه فقط، لن أقوم بتشريحه.

صمتت المرأة في تردد، لكن سارة أكملت في إقناعها وسط ذهول حسام:

. ربما مات طبيعيا، وكل ظنوننا في غير محلها، علينا أن نتأكد أولا.

. لكن جثته لم تحمل أي جروح.

. إذا مات خنقا من الصعب اكتشاف ذلك إلا بعين خبير، وآثار الخنق لا تظهر بوضوح إلا بعد مرور عدة ساعات.

رفعت المرأة يدها:

. افعلي ما تريدينه، عليكِ فقط أن ترجعيه كما كان، وأن تخبريني بما وجدتِ.

. بكل تأكيد.

استأذن حسام من المرأة وغادرا المكان إلى سيارة مستأجرة، متجهين لمحل إقامتهما في الفندق.

كان الطريق يخيم عليه الصمت بسبب وجود العنصر الثالث وهو السائق. لكن صراع الأفكار لم يمهل كلا منهما راحة.

تساءلت سارة عن تلك المذكرات التي حصلت عليها جدتها. ماذا كان بها حتى تقتل بسببها؟

لقد أخفت حصولها على المذكرات حتى عن جدي.

تذكرت حديثه معها وعن بحث جدتها. لكنه لم يذكر أي مذكرات معه. والراجح أنها لم تخبره خوفا عليه.

وبالطبع لن تخبره حتى إذا كان يعلم بأمر تلك الأوراق القديمة.

لن تدعه يعلم أنها عرفت. سيقيد بحثها خوفا عليها.

فكرت في تلك الكلمة التي قالتها فايزة "عدوا خفيا". من هذا الذي يقتل كل شخص يقف أمامه.

بالطبع تلك الفتاة التي رأتها تقتل ضاحي تنتمي إليه

هم ليسوا بشرا عاديين

لقد قتلته دون أن تلمسه

توضح لها أن ذلك العدو لديه معرفة بأمور السحر

معرفة قديمة لا يستهان بها

لكن كان السؤال الذي أشعرها بالضعف

من أنا لكي أواجه هؤلاء؟

هل تلك القلادة في رقبتي ستساعدني؟

بينما كثرت تساؤلاتها. كان حسام يستخدم تحليلاته ليرسم قضيته كما اعتاد.

ما فكر فيه أنه لا وجود لتلك الخرافات التي تحدثت بها تلك المرأة عن المفتاح المزعوم.

المفتاح هو قطعة أثرية بالغ بقدرها ملاكها، وبالتأكيد علم عنها تجار الآثار وسعوا إليها حتى وصلوا لها.

زال كثير من تشككه بشأن ميتة ضاحي، وأصبح أكثر تأكدا أن القضية تحمل الكثير، وعليهم اكتشافه.

الفصل الخامس عشر

توقفت السيارة الفارهة أمام فندق الفورسيزون في القاهرة، ترجلت منها سيدة أنيقة تحمل حقيبة صغيرة في يدها وحقيبة أكبر حجما في يدها الأخرى سلمتها إلى حامل الحقائب.

دخلت بهو الفندق، متحدثة إلى موظف الاستقبال بلغة إنجليزية:

. قمت بحجز جناح لديكم باسم موري وارين.

نظر الموظف دقيقة ليؤكد الحجز في الحاسب أمامه ونظر إليها بالإيجاب:

. نعم، سيدتي ولدينا جناح بالكامل مجهز كما طلبتِ

. حسنا، انتظر زائرا مصريا يدعى دكتور توفيق، من فضلك أرسله إلى جناحي مباشرة عندما يأتي.

. كما تأمرين سيدتي.

كان جناحها في منتهى الفخامة، وجدت حقيبتها قد وضعها الساعي في الغرفة، خلعت نعلها وفتحت الحقيبة تناولت سيجارا نسائيا رفيعا، فتحت شرفة جناحها لترى القاهرة، وتتمتع بدفء الشمس التي قلما تراها في ويست بروك.

أراحت رأسها على الكرسي، تفكر فيما فعلته قبل أن تأتي إلى مصر، تذكرت كيف غلفت تلك المذكرات القديمة التي ورثتها من جدها بقماش من الكتان القديم ثم أخذته في رحلة قصيرة إلى أكثر البنوك أمانا في أمريكا، اشترت خزنة مؤمنة بشكل كامل داخل البنك

ووضعت فيها المذكرات، وبعدها كتبت وصيتها، أن تسلم تلك المذكرات إلى دكتور توفيق في مصر، فكرت أن تلك هي ورقتي الأخيرة.

سأتخلص من هذا المفتاح، كما تخلصت من تلك المذكرات، وسأتفرغ لأحيا حياتي.

تذكرت عندها ضاحي الذي كان يأمل نفس الشيء بعدما يخرج على المعاش، كان يقول لها دائما، سأسلم المفتاح وأفعل ما أريده بحياتي.

لم يمر أكثر من نصف ساعة، حتى سمعت طرقات الباب، أطفأت سيجارتها الثالثة واتجهت إلى باب الغرفة وفتحته، وجدت أمامها رجلا عجوزا بالكاد يستطيع الوقوف، سألته:

. من أنت؟

. أنا دكتور توفيق، في الميعاد والمكان كما طلبت.

أشارت له بالدخول، وجلس كلاهما في الغرفة، حاولت تقديم واجب الضيافة لكنه رفض، طلب منها أن تخبره بما تريده.

موري: بالطبع أنت تعلم من أنا ومن هي عائلتي.

توفيق: بالطبع وفي الحقيقة عائلتك لديها تاريخ لا يشرف على الإطلاق .

ابتسمت له بسخرية: في الحقيقة لقد دفعنا ثمن ما فعله أجدادي لسنين طويلة.

توفيق وقد تغلب عليه فضوله: ماذا تريدين مني سيدتي وكيف تعرفين ضاحي؟

موري: لقد أوصاني ضاحي في حال تعرضه للقتل أن أذهب إليك وأعطيك ما أملكه.

توفيق: تعطيني ماذا؟

وقفت أمامه وأغمضت عينيها، وضعت يديها حول رقبتها الفارغة، فبدأ بريق ذهبي في الظهور والتشكل على هيئة قلادة ضخمة تحمل قرصا ذهبيا.

أصابت الصدمة توفيق وابتعد بكرسيه قليلا عنها، فتح فمه من كثرة الدهشة، عادت المرأة للجلوس بعد أن خلعت عنها القلادة، وضعتها بين يديها بحزن.

موري: سيدي أقدم لك إرث عائلتي ولعنته في نفس الوقت، لقد كنت أحمل المفتاح الآخر لبوابة النجوم، وهكذا تعرفت على ضاحي، كلانا يحمل نسختي المفتاح الوحيدين، كان هذا ما يربط بيننا.

حقيقة في البداية لم أكن أثق في ضاحي، لكنه أثبت لي أنه رجل يستحق الثقة، أصبحنا أصدقاء مقربين ومع مرور السنين أصبحت فيه ثقتي عمياء، أخبرني ضاحي أن أسلمك المفتاح في حال حدث له أي شيء، فقد كان يثق بك، وأخبرني أنك تستطيع التصرف والحفاظ على المفتاح الآخر، لأني أعلم أنه بدونه لا يستطيع أي كان من قتل ضاحي أن يفتح البوابة.

كان توفيق ينظر باستمرار وذهول إلى ذلك القرص في يديها، لا يعرف ما يقوله، الآن حصل على سلاح ذي قيمة كبيرة في حربه ضد عدوه.

رفعت موري يديها وأعطته المفتاح، تسلمه منها باحترام، وهو ينظر إلى حرفية صنعه، والكتابات الهيروغليفية عليه.

موري: الآن أستطيع أن ارتاح، الآن لن يكون على أفراد عائلتي دفع المزيد من أعمارهم لحماية آثاركم، فقد دفعنا ثمن ذنوبنا.

هز توفيق رأسه في دهشة: أنا لا أصدق ما أحمله في يداي، تلك أول مرة يرتقي لمسامعي أن للبوابة نسختين من المفتاح، وأنهما موجودان بالفعل.

موري: ليسا نسختين، إنهما مفتاحان يكملان بعضهما، يتحدان معا لكي تستطيع استخدام البوابة، لكن بالطبع ما دام ضاعت نسخة ضاحي فهذا المفتاح لا طائل منه الآن سوى تعطيل القاتل من استخدام البوابة.

توفيق: هل يعرف أي أحد بكل تلك الأمور.

موري: بالطبع لا، أنا وضاحي فقط وربما أخته الوحيدة المتبقية من عائلته.

توفيق: إذا كيف عرف قاتل ضاحي أنها حارسة للبوابة وتحمل مفتاحها.

موري: في الحقيقة لا أعرف، بالتأكيد هذا حدث من هنا في مصر، هناك خائن، لضاحي بالتحديد وعليك الاحتراس، أما من جهتي فلا أحد يتخيل مواطنة أمريكية حارسة للمقبرة وحاملة للمفتاح.

أومأ توفيق مقتنعا بكلامها، بينما نهضت موري من مكانها أحضرت صندوقا قيما للغاية أعطته له ليضع به المفتاح، أغلقه توفيق جيدا وشكرها كثيرا وهو يشعر بأمل وسعادة كبيرين، غادر غرفتها متجها إلى المكتبة، فهي أأمن مكان يستطيع أن يضع فيه المفتاح بعيدا عن الخطر.

بينما، ظلت موري ثلاث ساعات تستمتع بضوء الشمس الدافئ في غرفتها، شعرت براحة كبيرة، كل تلك الأعوام وهي تشعر بحمل ثقيل

ومسئولية كبرى، ضاحي لم يغب عن تفكيرها أبدا، ظلت تفكر كيف أراد أن يزيح تلك المسئولية عنها إذا جرى له أي شيء.

"علي تأمينك إذا حدث لي أي شيء" ظلت تلك الجملة تتردد في عقلها بصوته، نهضت من مقعدها لتنظر إلى الساعة، لقد اقترب موعد طائرتها وستعود إلى ويست بروك لترعى مصانع عائلتها كما يجب، رفعت سماعة الهاتف وطلبت سيارة لتوصيلها إلى المطار.

سمعت طرقات الباب مرة أخرى، ذهبت لتفتحه لتجد أمامها شخصا عجوزا، يحمل في رقبته قرصا ذهبيا، عرفته ع الفور أنه مفتاح ضاحي، تراجعت إلى الخلف في خوف، ودخل الرجل إلى الغرفة بينما انغلق الباب خلفه.

تأمل الغرفة مليا ثم جلس على المقعد الذي جلس عليه توفيق سابقا، ابتسم إلى موري التي ارتسمت عليها كل علامات الرعب.

. في الحقيقة كنت قد أتيت لغرض واحد، أخمن أنكِ كنت تملكينه.

التزمت موري بالصمت في خوف كبير، فاستطرد:

. لكن رائحة توفيق تملأ الغرفة، وأنا لا أشعر بالمفتاح معكِ الآن، لذا نحن أمام موقف سهل الفهم، أنتِ سلمتِ المفتاح إليه وربما تلك الفعلة كانت مشورة ضاحي.

قالت موري والخوف يملا قسمات وجهها: ليس لك شيء هنا

. بالطبع لي الكثير، كنت قد قررت الحصول على المفتاح وقتلك سريعا، لكنك سلمتيه إلى أكبر أعدائي، وأصبحت مهمة الحصول عليه أكثر صعوبة، بالرغم أنني كنت من ساعد أسرتك وجعلتها الأكثر ثراء.

ثم فرك يديه بابتسامة: لن تموتين دون أن تشعري بكل أنواع الألم الذي لا تتخيلينه.

جرت موري ناحية الباب، لكنه أوقفها بإشارة من يده، أطاح بها في الهواء فاصطدمت بحافة الفراش، ورفعها في الهواء مرة أخرى فحركت أذرعها وأقدامها في محاولة للسقوط على الأرض، نظر إليها بتشف وابتسامة ساخرة، بعدها جعلها تشعر بآلام قاتلة، تغيرت ملامحها وجحظت عيناها من شدة الألم، لم يصل صراخها أبدا إلى خارج باب الغرفة، لم يسمعها أحد حتى فارقت الحياة بعد هول عانته تمنت كل ثانية فيه أن تموت.

تركها وغادر الغرفة، وجدتها خدمة الغرف اليوم التالي، وأعلنتها الشرطة جريمة قتل، أصبح لها صدى واسع بسبب مكانة أسرة موري، وجنسيتها الأمريكية.

الفصل السادس عشر

وصل كلاهما إلى الفندق، تلك المرة دخلت سارة خلف حسام غرفته حتى دون استئذان:

. أريد أن أفحص الجثمان أنا جادة في هذا.

. أنتِ تأخذين تلك القضية إلى منحنى خطر، وتفترضين أشياء لا يمكن أن تكون موجودة على أرض الواقع.

. وما هي تلك الفرضيات؟

. ذلك المفتاح، وتلك الأشياء الغير منطقية التي قالتها المرأة، لا أصدق أنكِ تصدقين حديثها.

هزت رأسها في غضب:

. أنت لا تعلم شيئا

زادت حدة كلامه وارتفعت نبرة صوته:

. لا تخبريني مرة أخرى أنها لعنة، في القضية السابقة أثبت لكِ لا وجود لمثل تلك الخرافات، رغم اقتناعك بها.

. أنا لن أتناقش معك في هذا، طالما رأيت نفسك دائما على حق، وأن كان لي وجهة نظر ليس لك الحق أبدا أن تسخر منها.

. كل ما فعلته وتقولين أنني أسخر من وجهة نظرك؟؟

. وماذا فعلت؟

اقترب منها حسام بانفعال شديد بدا على وجهه:

. أتيت إلى هنا دون قضية فقط بناء على وجهة نظرك التي احترمتها، تركت كل شيء وأتيت لأنكِ تعتقدين مجرد اعتقاد.

. أنا لم أطلب منك أن تأتي أبدا، وإذا كنت رفضت لم أكن لأتضايق.

قفزت شراينه من شدة العصبية، تكلم بصوت عال جدا:

. يا الله، أنت فتاة شديدة العناد، متصلبة الرأي، أردت مشاركتك بما أننا أصبحنا فريقا واحدا، وأنت من بداية القضية تحاولين فرض رأيك في كل شيء.

رفع أصبعه بوجهها، مستطردا:

. وهذا لن أسمح به أبدا.

استدارت لتخرج من غرفته تاركة إياه، في حالة غضب عمياء، أخرج سيجارة يخرج في دخانها غضبه وثورته.

شعر بالضيق الشديد، بسبب كلامها الجارح ومحاولتها المستمرة لفرض الرأى، لكنه تأكد أنها تخفي شيئا.

هي تعلم ما لا أعلمه، اهتمامها الزائد بالقضية، ومحاولتها فحص الجثمان، وتوجيه التحقيق لنقاط معينة، يخبره بذلك.

أما هي فقد دخلت غرفتها في غضب، أغلقت الباب بعصبية شديدة، وانهارت على الفراش تمسك برأسها من التعب والإرهاق.

كل هذا يفوق تحملها، "يا ليتني ما أتيت"، هكذا حدثت نفسها، ربما علي أن أتجاهل ما أراه في أحلامي، وأعود إلى حياتي، أعود إلى دراستي البسيطة وأبحاثي، أعود لأنام بدون قلق أو خوف من تلك الكوابيس المستمرة.

الفصل السابع عشر

بعد ثلاث ساعات، أتى إبراهيم حاملا فيديو المعبد، طرق غرفة حسام، واستأذن بالدخول، ليجد مطفأة السجائر ممتلئة لأخرها:

. يبدو أن هناك سوء تفاهم قد حدث؟

نظر حسام إليه في غير رغبة بالحديث سوى بالقضية:

. ماذا فعلت؟

. رفض الضابط المسئول إعطائي أي شيء وأنا لا ألومه، فأنا لا أحمل إذن نيابة أو أي ورق لسبب طلبي الفيديو، بالطبع لم استسلم، واتفقت مع أحد أمناء الشرطة أن أرى الفيديو وأصوره بكاميرا هاتفي على أن أدين له بخدمة في القاهرة.

. جيد، كنت أعرف أنك لن تعود خالي اليدين.

مد يديه ليأخذ هاتفه، أعطاه له إبراهيم متحدثا:

. ألن تكلم الدكتورة لتراه معنا.

. يمكنك أن تذهب وتطرق باب غرفتها وتستدعيها، فأنا لن أستدعي أحدا.

وقف إبراهيم ثوان، ليستبين رغبة حسام، لكن حسام لم يلتفت إليه، فذهب وأحضرها معه.

وقفت في صمت، وحسام لم يلتفت إليها، أما إبراهيم فكان في المنتصف، يريد أن يصلح قليلا، لكن لم يكن ليعرف كيف يفعلها،

حتى أنه لا يعلم سبب المشكلة، فقد كان الغضب يملأ عين حسام وتلك المطفأة دليل على أن شيئا ضخما قد حدث.

لم يجد ما يقوله سوى فيما يخص القضية:

. الفيديو يظهر امرأة تجتاز بوابة الدخول، تتبعتها الكاميرات في بعض أجزاء المعبد، الغريب أنها بالرغم من دخولها لكن لم تسجل الكاميرات خروجها، حتى كاميرات بوابة الخروج الرئيسية لم تسجل خروجها، لقد اختفت تماما.

. بالطبع هناك تفسير ما، ربما خرجت من الأماكن المفتوحة في المعبد، أو مع اكتشاف جثمان ضاحي لم يلاحظ أحد مغادرتها.

أعطى إبراهيم هاتفه لسارة كي ترى ما صوره، ولم تكن مندهشة عندما رأت تلك المرأة التي شاهدتها سابقا في الحلم وهي تقتل ضاحي.

. علي كل حال أمر تلك المرأة يستوجب البحث، علينا أن نبحث في أمرها لنجيب كل الأسئلة.

. هل تحدثت مع أحد من أصدقائه؟

. لا، فقد كان غالبيتهم في واجب العزاء، لكن جميعهم موجودين غدا.

انتظر قليلا، حتى أعطته سارة هاتفه وأكمل محاولا تلطيف الجو:

. ماذا وجدتم في منزل ضاحي؟

تنفس حسام بعصبية:

. أخته على يقين أنه قتل، تقول إنه كان يحمل مفتاحا ذهبيا لبوابة ما في معبد دندرة، هذا المفتاح كان إرثا عائليا وقد سرق من ضاحي وقت مقتله.

. على حد علمي، لا يوجد بوابات في المعبد سوى بوابات الشرطة وبالتأكيد ليس لها مفتاح ذهبي، لكن أن صح قولها فهذا دافع للقتل.

قال حسام بسخرية:

. يمكنك أن تسأل الدكتورة عن أي بوابة تحدثت تلك العجوز.

استدارت سارة وتركت الغرفة دون كلام، بينما أراح حسام ظهره على الفراش:

. إذا سمحت يا إبراهيم، اتركني أريد أن ارتاح.

أومأ برأسه موافقا، وخرج من الغرفة، تاركا إياه في غضب واضح، كان يعيد بعقله شجاره مع سارة، كلماتها وقلة تقديرها، كل ما فعله ولم تظهر أي شكر.

أما هي، فوضعت نفسها في حمام دافئ لتنفض غبار أفكارها، استرجعت هي أيضا مشاجرتها معه، كان ضميرها يصرخ فيها أنها كانت مخطئة تماما، وكبرياءها يرفض تلك الفرضية ويحاول جاهدا إسكات لسان ضميرها.

أغمضت عينيها، لتحاول التركيز.

"لقد جاء معي دون سؤال أو شرط، لكنه لا يصدق إلا المنطقيات، وفي عملي تعلمت إلقاء المنطق جانبا، آه لو استطيع إخباره ما يحدث معي"، لكن كبرياءها ظل يخبرها أنه سيقابل كل هذا بسخرية.

كانت أمام تحد كبير، هي تعلم علم اليقين أنها أخطأت، وعليها أن تعتذر فلا مفر من ذلك، حتى تستمر القضية.

هناك شيء آخر كان يتحدث بداخلها أخرس كبرياءها تماما.

قلبها..

أصبح الحوار دائرا بين القلب والعقل، القلب يعطي مبررات منطقية للعقل، فيغريه باللغة الوحيدة التي يستطيع أن يتحدث بها.

المنطق..

بتلك الطريقة دائما ما يسوقنا القلب لأقدارنا حتى نظن أن العقل كان له اليد الكبرى.

لم تنتبه أنها تأثرت كثيرا بغضبه، كانت تنكر كل ذلك حتى أخرس قلبها كل الكبرياء داخلها.

وسط كل هذا، تلقت طنينا من هاتفها، كانت مشتركة في تطبيق أخبار الساعة، فتحت الخبر لتقرأه، كان عن قتل سائحة أمريكية تدعي "موري وارين" في غرفتها بفندق الفورسيزون، وهي سليلة عائلة وارين العريقة ووريثة مصانع الورق.

ربطت كل شيء معا في جزء من الثانية، هي حاملة المفتاح الأخرى، عليها إخبار حسام.

لكن عليها الاعتذار أولا..

الفصل الثامن عشر

ارتدت فستانا قصيرا، وضعت كحلا ثقيلا أظهر جمال عينيها، أطلقت شعرها لينسدل بنعومة خلفها.

للمرأة طرق عديدة تجعلك تبتلع اعتذارها عن أي شيء حتى لو كان اعتذارا عن القتل.

كانت تثق أنها ستجده في استراحة الفندق يتناول قهوته، اتجهت مباشرة إلى هناك ولم تفكر بطرق باب غرفته، وجدته كما تخيلت، يتحدث مع إبراهيم، الذي انتبه لها فاستأذن من حسام، ترك لهما المكان وغادر على أمل أن تنصلح الأمور بينهما.

لم يرفع حسام بصره لينظر إليها، لكنه علم بوجودها من رائحة اللافندر التي أغرقت المكان، حتى أن دخان سجائره أصبح بلا رائحة أمام قوة عطرها.

جلست إلى جانبه، ولم تتحدث سوى بكلمتين، في بساطة شخصيته التي عرفتها:

. أنا آسفة.

رفع نظره إليها، أخذه جمالها، تلك الخصلات التي سقطت عفويا على جبينها، العينان اللذان يشبهان نشوة قهوته، ونظرة الاعتذار والبراءة التي أظهرتهم باحتراف.

لكن ملامحه لم تظهر شيئا بالافتتان الذي فاض بداخله، وظل دون كلام منتظرا منها المزيد من الاعتذار، قررت أن تتنازل قليلا وللمرة الأخيرة.

كان قلبها وعقلها في مصارعة حرة، يقتتلان ليفوز أحدهما في النهاية.

إذا لم يستجب ستغادر المكان:

. أنا ممتنة لك لأنك أتيت ثقة في اعتقادي، دون أن تسأل.

نظر لها مرة أخرى:

. أنا لا أحتقر رأي أحد أبدا، لكني أحب أن أفكر بمنطقية هذا ما تربيت عليه وتلك هي الطريق التي تسير عليها وظيفتي.

. جيد جدا، وأنا أتقبل منطقيتك في أشياء كثيرة، عليك أن تتقبل عدم منطقيتي وخرافاتي، هذا هو تعاون الفريق.

. الخرافات لا تبني قضية.

. لكنها تسهم في حلها.

قالت ذلك قاصدة قضيتهم الأولي.

تنهد، بعد أن أطفأ سيجارته:

. أنا وإبراهيم، نرى أن ضاحي قد قتل، وأنك على حق، علينا أن نتعاون لكشف القاتل، كل ما أريده منكِ أن تثقي بي.

. أنا أثق بك جدا وإلا لم أكن لأخبرك بالقضية من البداية وذهبت وحيدة للتحقيق.

. إبراهيم سيذهب غدا إلى فايزة ليجعلها تبلغ بشكوكها في مقتل أخيها، وسيكون علينا التحقيق ومعنا القانون، هذا سيسهل الأمر كثيرا.

هزت رأسها متفهمة:

. هناك تطورا قد حدث، تلك المرأة التي أخبرتنا عنها فايزة من المرجح جدا أن تكون موري وارين، السيدة التي وجدوا جثتها قتيلة في الفندق.

. وما علاقتها بكل هذا؟

. إنها قصة طويلة جدا، أغلبها حقائق وأحداث تاريخية والباقي ما تسميه أنت خرافات، فلن تكون مستمتعا بسماعها.

. العكس تماما أنا استمتع بحديثك، خاصة فيما يتعلق بالآثار.

ثم أشار إلى النادل وطلب كوبين من القهوة.

. الآن يمكنك أن تتحدثي، وكلي آذان صاغية.

الفصل التاسع عشر

أشعل حسام سيجارة، عندما أتى إبراهيم بعد أن رأى أنهما تصافيا، أشار له أن يجلس:

. اجلس لأنني أريدك أن تسمع معي ما ستقوله الدكتورة، حتى نفهم ماذا يحدث.

ثم أشار إليها لتبدأ بالحديث.

في الحقيقة أن من أخبرني بتلك الأحداث التاريخية لأول مرة هو جدي، واجتهدت في محاولة الوصول لمعلومات أكثر، لكن لم أجد سوى فتات خبز لأكمل بها تلك الأحداث.

في منتصف القرن الثامن عشر، كانت مصر مرتعا للجاليات الأجنبية، وكانت سوقا كبرى للآثار، يتبارى فيها فريقان أساسيان هما الفريق الإنجليزي والفريق الفرنسي.

مقابر كاملة ومسلات فككت ونقلت على سفن إلى خارج البلاد، كانت المومياوات تباع على الأرصفة بالقليل، والمصريون للأسف يتسابقون في حفر وإخراج ما تحميه الأرض لبيعه إلى السياح بسبب الفقر الشديد.

في تلك الفترة جاء إلى مصر تاجر من نوع آخر، يبحث عن تجارة لها رواج كبير في أمريكا، وهي تجارة الورق، تقابل هذا التاجر مع وسيط مصري للآثار، فأشار عليه بمصدر ثابت للورق، يمكنه أن يشتريه بأبخس الأثمان من مصر، ويعيد تصنيعه مرة أخرى في أمريكا.

وللأسف هذا ما حدث بالفعل..

إبراهيم بعد أن اندمج في رواية سارة: وما هو؟

. إنها لفائف الكتان التي حفظت بها المومياوات بعد تحنيطها، فهي متوفرة وبكثرة

يبلغ طولها عشرون مترا في أغلب الأحوال

رخيصة الثمن.

وبحساب بسيط فعله أشعيا لسكان مصر قديما أدرك أنه يستطيع الحصول على كمية ضخمة من الكتان بسعر بخس. وبدأت السفن في نقل المومياوات لمصانع الورق، والبعض كان يستورد اللفائف مباشرة دون المومياء، التي كانت تحمل على سفن إلى إنجلترا لتطحن وتستخدم كمخصب للتربة.

ظهر الذهول على كل من حسام وإبراهيم، لاحظته سارة، فقد كانت تلك هي نظرتها عندما قص عليها جدها تلك الوقائع.

. كان من أشهر تجار الورق الذين استوردوا لفائف المومياوات هو تاجر يدعي "صامويل دينيس وارين"، الذي أنشا مصنعا ضخما ومدينة كبيرة تخدم المصنع سميت "ويست بروك west broke"، كانت المومياوات وقتها معروفة في أمريكا التي كانت بلدا حديث النشأة، تعرض في المتاحف وعروض السيرك. كان المهرج مثلا يقوم بفك لفائف المومياء وإعادة تغطيتها مرة أخرى لتسلية المتفرجين.

في مصنع الورق كانوا ينقعون لفائف الكتان في مياه حتى تتعفن، ثم تمزق قطعا صغيرة، لتمر على غربال ضخم أو منخل، و يتم تجميع تلك القطع الصغيرة وضغطها لتصبح ورقا.

استخدمت اللفائف الجيدة لصنع ورق الصحف والكتب، واللفائف التي حملت آثارا لزيوت التحنيط في صنع ورق الجزارة والفاكهة والبقالة.

اندمجا كلاهما في حديثها حتى أنهما لم يشعرا بالنادل الذي وضع أكواب القهوة أمامهم:

حسام: إن ما تقولينه فضيحة تاريخية.

سارة: هي أكبر بكثير من الفضيحة، أخبرني جدي أنه بعدها بمدة انتشر مرض الكوليرا بين عمال مصانع الورق ومنه إلى باقي أنحاء أمريكا، وقالوا وقتها أن السبب هو المومياوات المصرية، حتى أن دينيس وارين استدعى إلى لجنة حكومية للتحقق من مدى صحة تسبب المومياوات في انتشار الكوليرا.

يقول جدي أنه انتقام الأجداد.

حسام: هذا ليس انتقاما، إن ما تقولينه يستدعى الحرب.

إبراهيم: أوافقك تماما، أن كسرا ولو بسيطا في أي قطعة أثرية يدخلك السجن، وما تقولينه يسمى إبادة كاملة لتاريخ وحضارة، وبعد كل هذا يسموننا العالم الثالث وهم المتحضرون.

سارة: لقد أخبرتنا فايزة شقيقة ضاحي، أن اسم المرأة التي ربما تحمل المفتاح الآخر هو "موري"، اليوم قتلت سائحة أمريكية في القاهرة، تسمى "موري وارين" وهي حفيدة دينيس وارين مؤسس مصانع الورق الذي أخبرتكم عنه، ذكرت الصحافة أيضا أن قصرها يقع في مدينة ويست بروك.

حسام: وأنتِ تظنين أنها حاملة المفتاح الآخر.

سارة: نعم، لقد قلت لي سابقا ما من شيء يحدث صدفة.

هز حسام رأسه موافقا وأكمل:

. هذا يعني أن كلا المفتاحين قد ضاعا.

إبراهيم: أية مفاتيح؟

حسام: كنت سأسال نفس السؤال لها.

سارة: ذلك هو الشق صعب التصديق، قديما انتشرت ما يسمي بـ "بوابات الآلهة" أو "بوابات النجوم" في حضارات العالم القديم، وسادت عدة اعتقادات بهدف إنشاء تلك البوابات، منها أنك تستطيع السفر بالزمن، أو مقابلة الآلهة.

من تلك البوابات الباقية بوابة الآلهة في "بيرو" وبوابة الآلهة أو ما نطلق عليها بوابة النجوم في معبد دندرة، الغريب رغم استحالة اتصال الحضارتين معا، إلا أن شكل البوابتين متطابق تماما.

بوابة النجوم المصرية، أنشأها رمسيس الثاني، وانتشر أن للبوابة مفتاحا على شكل قرص ذهبي يستطيع به حامله أن يعبر البوابة إلى حيث اللامكان واللازمان، إلي حيث الشخصيات المقدسة والآلهة، وكانوا يصنعون مستنسخات لهذا القرص للزينة.

تحدث المصريون قديما بكثرة عن بوابات حقيقية تنقل الناس إلى كواكب بعيدة، وجاء في أحد تلك الأقاويل أن كبير كهنة رع كان يصعد ويهبط من السماء.

بوابة الآلهة في بيرو

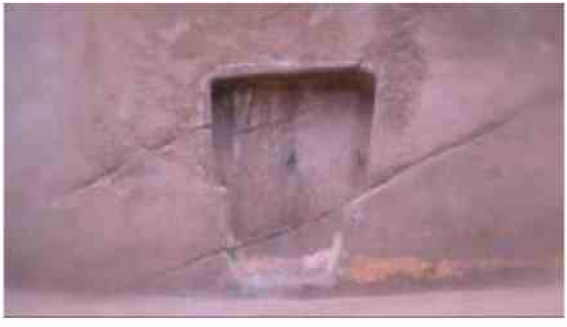

رمز لبوابة النجوم في مصر

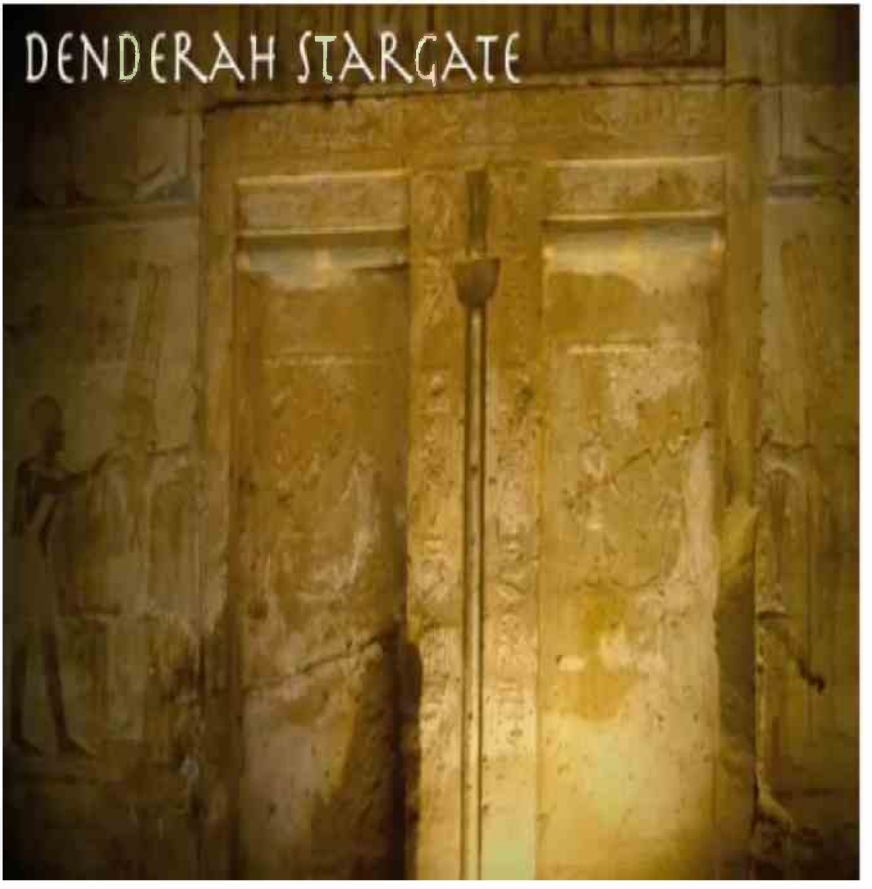

بوابة النجوم بحجمها الكامل في دندرة.

تنهد حسام مستفسرا: وأنت تصدقين أن تلك البوابة في مصر تعمل بالفعل وأن من يملك المفتاح يستطيع تشغيلها.

سارة: المشكلة ليست فيما أصدقه أنا، بل فيمن صدق ذلك، وقتل ضاحي وموري بسببه.

إبراهيم: دقيقة واحدة أريد أن أفهم، ما علاقة تلك السائحة بكل هذا؟

سارة: من المرجح بقوة أن مقبرة حراس البوابة تم اكتشافها في مصر في منتصف القرن الثامن عشر وقت تجارة الورق، حصل جد ضاحي على أحد المفاتيح من إحدى المومياوات، والأخرى سافرت ليستغل كتانها في صناعة الورق، وجد صاحب المصنع المفتاح وصار إرثا عائليا حتى وصل إلى موري، كما حدث تماما مع ضاحي.

أنا على ثقة إذا احتسبنا أجداد ضاحي من بداية حصولهم على المفتاح سنجده متزامنا مع حصول عائلة وارين على المفتاح.

قضيتنا معرفة قاتل كليهما، واستعادة تلك المفاتيح التي لا تقدر بثمن.

إبراهيم: كنت أظن أن القضية السابقة لن أرى في مثل غرابتها، إلا أنه يبدو أن تلك القضية ستكسر كل حواجز الدهشة لدي.

حسام: إبراهيم نريد تفويضا بالتحقيق من شقيقة ضاحي، بأي شكل، عليك أن تقنعها بكل الطرق، يجب أن نفحص جثة ضاحي.

ويجب أن نفحص تلك الكاميرات جيدا، لن يحدث هذا دون تقديمها ببلاغ.

اذهب صباحا باكرا إليها، حتى نستطيع استغلال بقية اليوم.

إبراهيم: كما تأمر.

ثم استأذن منهما ليذهب إلى غرفته، عاد حسام وانفرد بسارة مرة أخرى، لكن تلك المرة كان يريد أن يسألها في قضية جدتها وتلك المذكرات.

أعاد ترتيب الأسئلة سريعا في ذهنه كي لا يجرحها بأي شكل، فقد اعتاد طرح الأسئلة بوقاحة في مهنته، وتلك المرة فكر أنه بحاجة شديدة ألا يفعل ذلك تقديرا لها.

حسام: كنت أريد أن أسألك عن جدتك، وتلك المذكرات التي جاءت على ذكرها فايزة؟

تنهدت سارة بحسرة، صمتت قليلا تسأل نفسها هل تأتمنه لتخبره بالحقيقة أم لا؟

لم تجد سببا يجعلها تخفي شيئا مما يريد معرفته:

. ما سأخبرك به لا يعرفه أحد حتى جدي نفسه.

أومأ برأسه متفهما أنها تريد السرية.

. أخبرني جدي أن جدتي قتلت بسبب بحثا ما كتبته، وكل تلك الفترة الماضية كنت في رحلة بحث مضني عن هذا البحث ولم أجده، وكان جدي خائب الأمل أيضا.

والآن عرفت أنها كتبت هذا البحث بناء على مذكرات تسلمتها من ضاحي، وجدي لا يعرف تلك المعلومة، ربما أخفتها عنه حفاظا على حياته عندما شعرت بالخطر.

وأنا أنوي ألا أخبره فيكفيه ما ذاقه، لكن سأحاول جاهدة معرفة مكان الورق.

حسام: ماذا تظنين فيما يحتوي عليه هذا البحث؟

هزت رأسها في حيرة: لا أعرف حقيقة، ولكني أتمنى أن أعرف، على الأقل أجد سببا لقتل جدتي.

حسام: سامحيني لقد قرأت قضية جدتك عندما انضممتي إلى وحدتي، كنوع من التحري، وقرأت أقوال جدك وقت الجريمة، لقد وجدوه بجانبها فاقدا للذاكرة، ولولا أن آثار القتل كانت عبارة عن لدغة ثعبان ضخمة، وسبب توقف القلب هو السم الناتج منها، لاتهموه في قتلها.

لكن من وجهة نظر منطقية الوفاة طبيعية نتيجة التعرض لهجوم من حيوان، لماذا يظن جدك أنها قتلت وخاصة بسبب ذلك البحث؟

. لا أعلم، ويستمر بالرفض في إخباري، وفي الحقيقة لقد عانى كثيرا جدا بسبب تلك الحادثة، وفي السنوات الماضية تدهورت صحته، فلم يعد يحتمل أن أقلب له مواجع الماضي.

صمت كلاهما، لكن سارة ربطت طلب حسام لرؤية جدها في بداية القضية، بقراءته لأوراق قضية جدتها:

. هل طلبت مني رؤية جدي لهذا السبب؟

شعر حسام بالإحراج، فلا سبيل معها للكذب، ستكشفه قبل أن ينطق بكلمة:

. في الحقيقة، نعم أردت سؤاله ربما تذكر شيئا.

. هذا لن يحدث، قالتها بعصبية

وأكملت: كان يجب أن تخبرني بالسبب الحقيقي لطلبك، أنا أعتب على نفسي أنني لم اكتشف مراوغتك من اللحظة الأولى لكن تفكيري كان مأخوذا بقضية ضاحي.

. وجدت في مصارحتك بعض الإحراج.

هدأت قليلا، ونهضت من مكانها:

. أرجو ألا تتحدث في هذا مع جدي مهما حدث، وكل ما يعلمه قد أخبرتك به.

أومأ برأسه موافقا، فاستطردت:

. سأذهب للنوم، لدينا الكثير غدا، تصبح على خير.

تركته وغادرت إلى غرفتها، بينما أشعل سيجارته المائة، وأراح ظهره على المقعد، غارقا في التفكير.

تلك القضية معقدة ومتفرعة في عدة اتجاهات، لكن كان هناك شعور كامن بأسفل روحه ينتظر الانفجار، شعور الرعب الذي يصيبه كلما غلبته تلك الأحلام، وفكر "ماذا لو عثرت سارة على تلك المذكرات التي أخفتها جدتها، وكان مصيرها مثلها كما يراه في الحلم؟"

الفصل العشرون

وقف دكتور توفيق بصعوبة مستندا على مقعد بجانبه، بعدما ارتفع ضغط دمه عند قراءة أخبار الجريدة الصباحية بمقتل موري، كان صدره يعلو ويهبط باضطراب شديد، وهو ينظر إلى الصندوق الزجاجي أمامه والذي يقبع في منتصفه مفتاح بوابة النجوم.

فتحت بوابة المكتبة خلفه ليدخل اللواء منصور وبصحبته دكتور جلال، وهو دكتور المصريات المعروف، وهو العضو الثالث من أعضاء المجموعة السرية التي يترأسها توفيق.

منصور وهو ينظر إلى الصندوق الزجاجي: هل هذا ما قتل لأجله الحارس وتلك السائحة؟

جلال: يا إلهي أنه حقيقة، لم أكن لأصدق حتى أراه بعيني.

استدار توفيق ليتمشى في المكتبة ناظرا إلى دائرة الأبراج التي تتحرك بسرعة، ثم جلس على أحد مقاعد طاولة المكتبة المستديرة:

. لقد قتلت موري، والأكيد أن عدونا علم بمكان المفتاح الآخر، المكتبة الآن في خطر شديد.

نظر حوله إلى أرفف الكتب العتيقة، بعض البرديات النادرة المحفوظة في صناديق زجاجية، دائرة الأبراج، واستطرد:

. علينا تأمين كل شيء في المكتبة، وتأمين بقية أعضاء المكتبة

خلع جلال نظارته الطبية، وانهار بجسده الرفيع على مقعد مقابل لتوفيق:

. هل تعتقد أنه يستطيع مهاجمة المكتبة، أو معرفة بقية الأعضاء ومهاجمتهم.

توفيق: نعم، ما الذي يمنعه، لقد ازدادت قوته كثيرا بعد حصوله على المفتاح.

منصور جالسا على مقعد بجوارهما: ماذا عن كل تلك التعاويذ التي صممتها لحماية المكتبة.

توفيق: تلك التعاويذ تحمي المكتبة من أي خطر، لكنها في النهاية ضعيفة، ما دمت لم أصنع تعاويذ ضد خطر محدد أو شخص بعينه.

هز جلال رأسه في يأس: ونحن لا نعلم من نواجه.

منصور: منتهى العبقرية ألا تدع أعداءك يعلمون من أنت فلا يستطيعون توقعك وغلبتك.

جلال: وما الحل؟

توفيق الأمل أن أجد مذكرات زوجتي، ربما نعلم ما نواجهه.

منصور: وماذا إذا لم نجدها؟

مسح توفيق وجهه بيديه مستسلما: أنا أول اللاحقين بزوجتي.

وقف جلال أمام دائرة الأبراج ينظر إليها وهي تتحرك، مر الوقت في صمت، قطعه منصور:

. ألم تجد أي شيء في الأوراق الخاصة بدائرة الأبراج يا جلال؟

التفت جلال إليه: من أين حصلت على تلك الأوراق يا توفيق؟

توفيق: أرسلها صديق لي كان يدعى دكتور "ديفيد"، كل ما أذكره من مكالمته الأخيرة لي، عندما أخبرني أنه حصل على تلك الأوراق القديمة المكتوبة باللغة الفرنسية من شاب فرنسي وجدها في

متعلقات جده الذي كان عالما في الآثار المصرية، لما رأى أنها قديمة سلمها إلى ديفيد فقد ظن أنها ربما تكون مهمة.

تنهد متذكرا صديقه وحادثة الطائرة المشئومة: ثم أضاف عليها ديفيد من علمه ومعرفته قليلا، فقد كان مجنونا بالآثار والحضارة المصرية.

منصور: لماذا تسأل يا جلال؟

جلال: هناك كلمة مكررة كثيرا أبحث عن ترجمتها.

منصور: وهل كلمة تستطيع حل معضلتنا.

جلال: نعم علينا إيجاد الأمل في قصاصة ورق، لكن أنا أثق أن تلك الأوراق شديدة الأهمية، ودائرة الأبراج تلك تحمل سرا كبيرا، أو تخفي هوية من نحاربه، وإلا لما قتل صديقك ديفيد في سبيل تدمير تلك الأوراق التي كانت بحوزته، نشكر الله أنه أرسلها إليك قبل صعوده تلك الطائرة.

توفيق: حاولت كثيرا وبحثت في كل مكان ربما أستطيع قراءة الدائرة كاملة، لكني لم أصل لشيء.

اتجه جلال إلى المكتبة، وتناول ثلاثة مجلدات قديمة للغاية، فتحهم على طاولة المكتب، فسأله منصور:

. ماذا ستفعل يا جلال؟

جلال: علينا تأمين المكتبة أكثر، لتعطيله واكتساب المزيد من الوقت، ربما جاء المنقذ أو توصلنا لشيء.

تكلم منصور بوجوم ويأس:

. ماذا عن الأعضاء الآخرين؟

توفيق: كل ما أستطيع إخبارك به يا منصور أنني أرجح أننا مراقبون. وعليهم أن يتجنبوا المكتبة تلك الفترة حفاظا على حياتهم، حتى إذا حدث شيء لا قدر الله يمكنهم التصرف.

الفصل الواحد والعشرون

ثلاث ساعات هي ما استغرقها إبراهيم في الذهاب إلى دندرة وإقناع فايزة بالمحضر. كان حسام وسارة ينتظرانه عند نهاية القرية التي تقع بها المقابر.

حسام لم ينتظر إبراهيم، وبدأ في الحفر بمعول، تحت الشمس التي ازدادت حرارتها رغم الشتاء، وصل إبراهيم إليهما، فوجد حسام مغطى بالتراب، خلع معطفه وأعطى الورقة إلى سارة، وهم بمساعدته وهو يتحدث بغيظ:

. تلك المرأة شقيقة القتيل في منتهى الاستفزاز، ساعتان أقنعها أن تضع بصمتها على الورقة، وهي لم تكف عن الأسئلة والاستفسار.

جاء اللحاد مسرعا عندما لمحهم يحفرون، ورفع سلاحا بحوزته في وجههم: من أنتم وكيف تحفرون قبرا دفن صاحبه منذ يومين؟

انتصب حسام وخرج خارج الحفرة، اتجه إليه دون خوف، والرجل يصوب سلاحه في استعداد لإطلاق النيران بلا تردد:

. نحن الشرطة، ومن غير الشرطة يستطيع أن يحفر قبرا في النهار.

تراجع الرجل قليلا: أريد أن أرى هويتكم.

علا صوت حسام تلك المرة بعصبية:

. أية هوية، أنت ترفع سلاحا أنا على ثقة أنه غير مرخص، في وجه الشرطة، هل تعلم ما عقوبة تلك التهم.

. أنا أعرف ضباط مركز دندرة، وأنت لست منهم.

. الضابط حسام، أتيت من القاهرة في التحقيق في مقتل ضاحي المدفون في هذا القبر.

ظهر الاندهاش على وجه الرجل: لكن ضاحي لم يقتل، لقد أماته الله طبيعيا.

. هذا ليس ما قالته شقيقته فايزة التي قدمت محضرا لتبلغ الشرطة.

. إن شقيقته بعد أن تقدم بها السن وقد ضاع عقلها، لقد وضعته في القبر بيدي، وفككت كفنه بيدي، لقد كان طبيعيا.

. من يحكم بذلك الدكتور، وأشار حسام بيده إلى سارة، وليس أنت.

. على الأقل هل يمكنني رؤية محضر الشرطة.

أخذ المحضر من سارة، وأعطاه له، قرأ الرجل المحضر وأعاده إلى حسام بعد أن أنزل سلاحه.

. أنا آسف على تصرفي، فالبعض ينبش القبور بحثا عن أجزاء من جسد الميت ليفتحوا بها قبور الفراعنة.

توقف إبراهيم بعد أن وصل إلى باب القبر، منتظرا من اللحاد فتحه، بينما تجاهل حسام اعتذاره:

. هل كنت تعرف ضاحي؟

. نعم، الكل هنا يعرف بعضه البعض، كان ضاحي رحمة الله رجلا مضيافا، خلوقا، يساعد الكل.

حسام: هل تعرف أي أصدقاء له؟

اللحاد: صديقه المقرب لطفي، وهو حارس يعمل معه في المعبد.

قرأ حسام في عينيه كلمات لم يخرجها، أشياء احتفظ بها لنفسه وفضل عدم الإفصاح عنها.

حسام: وما رأيك في لطفي؟

اللحاد: رجل في حاله تماما، يعمل من أجل أسرته، ولا يختلط كثيرا بأهل القرية.

حسام: أليست عائلته من دندرة.

اللحاد: نعم لكنه نشأ يتيما، كل أهل القرية كانوا يساعدونه، حتى وظيفته كان الفضل لضاحي في الحصول عليها.

عندما انتهى حسام، طلب منه أن يفتح له المقبرة، كان الجسد متحللا والرائحة كريهة، غطوا أنوفهم، وأنار حسام كشافا معه، ارتدت سارة قفازا، بينما وجه حسام ضوء مصباحه على رقبة ضاحي.

كانت علامات الخنق سوداء رفيعة وملتفة عدة مرات حول الرقبة، رفع إبراهيم هاتفه، وصور عدة صور لتلك العلامات بعدها خرجوا جميعا ليتنفسوا هواء نقيا، بينما أسرع اللحاد في غلق باب المقبرة وردم التراب إلى مكانه.

بعد أن تنفست سارة عدة مرات، لتنقي رئتيها، تحدث:

. للأسف تأكدت شكوكنا.

انتظر حسام حتى انتهى اللحاد من ردم الأتربة، وعاد إليهم:

. أسمع، أنت لم ترانا، ولا يوجد تحقيق في مقتل ضاحي، وضاحي لم يقتل، إذا خرج حرف واحد ستتمنى العودة لخدمة الأموات.

ظهر الخوف على الرجل: اطمئن لن أتحدث، ومن يستطيع عصيان الشرطة يا سيدي، لك ما أمرت.

صعد ثلاثتهم سيارة قد استأجرها حسام تجنبا لضياع وقتهما في المواصلات.

إبراهيم: لماذا أخبرته بعدم الإفصاح عن التحقيق في مقتل ضاحي؟ ألن ننتدب طبيبا شرعيا ليكتب تقريرا مفصلا عن الجثة؟

ابتسم حسام في خبث: بالطبع. لكني أخبرته بذلك لغرض ستعلمه فيما بعد؟

فهمت سارة مقصده فلم تسأل سوى عن وجهتهم.

سارة: إلى أين؟

حسام: إلى الفندق بالطبع، كيف نذهب إلى المعبد بأكوام الأتربة التي تغطيني أنا وإبراهيم.

إبراهيم: أنا أحتاج أن أغسل ذهني من ترهات تلك المرأة العجوز.

أمسك حسام بمقود السيارة، لكنه شعر بآلام رأسه تهاجمه مرة أخرى، مال رغما عنه على المقود، واعتصرت يده عجلة القيادة بعصبية، أغمض عينيه، وضغط أسنانه بقوة من شدة الألم متمنيا أن يمنع نفسه من الصراخ.

لاحظ كلاهما ما يحدث له، سارع إبراهيم بسؤاله: ما بك؟

لكنه لم يرد، واستمر على وضعيته يقاوم الألم، غادرت سارة السيارة وفي يدها زجاجة مياه، فتحت باب كرسي القيادة وحاولت إعطاءه بعض الماء لكنه لم يستطع الالتفات إليها مقاوما الألم، لمدة تزيد على العشر دقائق، وهي مدة طويلة، جعلتهم يشعرون بالقلق عليه.

مال إبراهيم على سارة قائلا: علينا أن نأخذه للمستشفى ليراه طبيب.

سارة: لقد عاشرته أكثر مني، وتعلم بعناده.

إبراهيم: ربما استطعت تغييره وإقناعه

فاق حسام عندما بدأ الألم في الزوال تدريجيا، أرجع رأسه لمسند الكرسي، وبدأ يتنفس طبيعيا.

أعطته سارة زجاجة المياه فارتشف بعضا منها، وأدار محرك السيارة لكن إبراهيم أوقفه:

. على الأقل دعني أقودها أنا وارتاح في الخلف.

حسام متحاملا على نفسه: أنا بخير، إنه إرهاق شديد بسبب قلة النوم، أصعدا ليس لدينا وقت.

طوال عودتهم إلى الفندق، شعرت سارة بالذنب الكبير، لإدخالها حسام في تلك القضية وهو بحالته تلك، وكيف لها أن تعلم، تخللها بعض نصائح إبراهيم له:

عليك أن تتوقف عن التدخين بضعة أيام

عليك أن ترتاح قليلا

يمكننا العودة غدا للتحقيق.

تدخلت سارة: نعم، نعود غدا، القضية يمكنها أن تنتظر.

أكمل إبراهيم: يمكن أن نذهب إلى طبيب في المساء فقط لنطمئن.

هز حسام رأسه معلنا رفض تلك الفكرة.

سارة: الأمر بسيط سيعطيك حبوبا لتنام وأخرى مسكنة للألم.

أعلن حسام رفضه مرة أخرى، لأنه عانى كثيرا أعراض الإرهاق والصداع، اعتاد تناول الأقراص المسكنة، واعتاد آلام رأسه..

لكن...

تلك آلام التي تباغته فتفقده صوابه كانت قاتلة، لم يشعر بها من قبل، وإحساسه يخبره يقينا أن الإرهاق ليس سببا لها.

منذ اللحظة الأولى التي تألم فيها عندما كان وحيدا في مكتبه، علم أن عليه الذهاب للطبيب، لكنه سيذهب وحيدا، تحسبا لأي شيء.

قطع إبراهيم تفكيره: يمكنك أن تعطيه شيئا يوقف الألم كما فعلتِ المرة السابقة عندما أصابه الحرق.

ظهر اليأس على وجهها: للأسف لقد عالج المصريون القدماء الصداع بجرعة كهرباء يستخرجونها من بعض أنواع الأسماك المنتجة لها، وتلك الطريقة صعبة التنفيذ الآن.

حسام: أنا بصحة جيدة، وزال ألم رأسي، أنا بخير لا تقلقا.

وصلوا جميعا إلى الفندق، وكان مظهرهما مثيرا للغرابة بكل أكوام الأتربة، توجه كل منهما سريعا إلى غرفته، ليضع نفسه تحت الماء.

لكن الذنب لم يغادرها، تركت غرفتها إلى استراحة الفندق، عندما أتى حسام، أخبرته أنها لن تذهب معه إلى معبد دندرة، وعليه أن يرتاح اليوم، لحق بها إبراهيم من غرفته ليشاركها نفس الرأي ورفض الذهاب.

حسام: ماذا سنفعل باقي اليوم؟ سنضيعه؟

سارة: أنا سأكون في غرفتي أبحث عن أي شيء يفيدنا، وسأرتاح قليلا حتى المساء، وربما أذهب للتسوق في المدينة.

إبراهيم: أنا أعشق النوم وأنت تعرفني، سأكون نائما حتى تحتاجني.

سارة: وأنت أيضا عليك أن تلتزم غرفتك وترتاح، نل قسطا من النوم، عليك التركيز غدا.

وأمام إصرارهما توجه إلى غرفته ليقضي باقي اليوم، يقرأ أخبار الجرائد عن حادثة مقتل السائحة.

أما هي فقد جلست على فراشها، تسأل نفسها عن تلك القلادة، والقوى التي تمنحها لها، "أريد تطويعها لي"، هكذا تحدثت إلى نفسها.

كانت فكرة الانتقام قد سيطرت عليها.

الرهان الآن على من يملك قوى أكبر، لكن الامتلاك يعني الفهم الكامل، وأنا لا أفهم لماذا أنا تحديدا، وكيف استخدم ما أملكه.

في التحقيق السابق ظهرت تلك القوى عندما احتجتها بشدة، وأما الآن صار لزاما علي أن أعرف كيف استخدمها في أي وقت أحتاجها.

أغمضت عينيها، وهيأت تنفسها ليكون بطيئا، حاولت التركيز داخلها، في البداية شعرت بحرارة تسري بجسدها، استمرت في طريقة التنفس، لكن لا شيء سوى تلك الحرارة التي تظهر وتختفي.

فتحت عينيها في يأس، الطريقة الوحيدة لمحاولة معرفة أي شيء عما أملكه هو البحث في الكتب، هذا ما أتقنت فعله، لكن تلك المرة نوعية الكتب تختلف، وستختلف أيضا طرق الحصول عليها.

كتب السحر، والقوى الخفية، ربما بعض البرديات القديمة، شعرت باليأس، لكن هذا الشعور قاطعه سؤال قفز من العدم إلى ذهنها.

من الذي أعطاني تلك القوى؟ وما غرضه؟

لا يمكن أن أكون حصلت عليها من باب الصدفة، ومن ملكني تلك القلادة له غرض من ذلك.

شعرت بالخوف.

كان هذا السؤال يحتمل إجابتين:

أولهما حسن النية

والثاني لغرض خبيث

تنهدت بضيق ويأس، لماذا عليها السعي دائما لاكتشاف كل شيء.

شعرت بالإرهاق من كثرة التفكير.

أغلقت أضواء غرفتها وقررت النوم.

وقبل أن تضع رأسها على الوسادة كان حسام مسيطرا على تفكيرها، شعرت بتلك الحرارة التي شعرت بها منذ لحظات عندما حاولت استخدام قوتها.

كلما استرجعت مواقفهما معا، افتتنت لا إراديا بجرأته وذكائه، انساقت تدريجيا بلا مقاومة في التفكير فيه.

عيناه التي تفهمها دون تكلف عناء الحديث.

عدم محاولته التظاهر أمامها بالرجولة، كما اعتادت من زملاء دراستها وأقاربها.

ذلك الإحساس الغامض الذي يحضر بينهما كلما اجتمعا معا .

اعتدلت في نومها لتنظر إلى سقف غرفتها، مسحت وجهها بيديها لتحاول إزالة تلك الأفكار.

فقد أفاق عقلها من غيبوبته التي وضعه فيها القلب لتتذكر في جزء من الثانية أنه مرتبط.

هناك واحدة أخرى أعطاها قلبه، وارتبط بها.

وعليها أن تخرجه من قلبها، حتى لا ينكسر، فهي لم تجرب كسرة القلب من قبل، لكن عاشتها مع صديقتها التي أوشكت أن تنتحر.

الآن فهمت مشاعر صديقتها التي لم تجد لها أي مبرر قديما.

الفصل الثاني والعشرون

استسلمت للنوم أخيرا، ليبدأ عقلها الباطن في العمل.

عاد الزمن بها آلاف الأعوام، وقفت في قدس الأقداس، تلك الغرفة الأكثر قدسية في أي معبد، لكنها لم تتبين المكان.

كل شيء حولها شديد الجمال، الألوان، الهدوء، رائحة الأبخرة المتصاعدة، الهيبة، الناووس الذي يتوسط قدس الأقداس.

انتبهت للشخص الساجد أمام الناووس بسبب صوت نحيبه.

كان يبكي بمرارة، أخفى وجهه بين يديه، لكنها لاحظت ملابسه الكهنوتية المصنوعة من جلد النمر، والتي تدل أنه رئيس للكهنة.

رغم أنها لم تر وجهه، ورغم أنه بدا أصغر سنا عما رأته سابقا لكنها تعرفت عليه.

هو ذلك الكاهن الذي ألبسها القلادة.

حاولت التحدث إليه، حاولت لمسه لعله يجيبها فتنطفئ نار الأسئلة التي تثير فضولها لكنها كانت غير مرئية، أدركت أنه لا يستطيع سماعها أو رؤيتها.

شعرت بالخيبة، وقلة الحيلة، انتبهت عندما نهض وجفف دموعه، رتب ثيابه.

راقبت تعبيرات وجهه، كيف زالت تلك الدموع، والخيبة والندم، وتحولت إلى تعبيرات رجل قوي، شديد البأس.

نظرت إلى عينيه التي كانت غارقة بالدموع منذ دقيقة، فلم تجد سوى رجل متوسط السن قوي الشخصية.

ولولا أنها رأته يبكي ساجدا، وشعرت بالألم من صوت بكائه، وصدق ندمه، لما صدقت أنه تحول في دقيقة لتلك الشخصية الجبارة التي تراها أمامها الآن.

خرج الكاهن من قدس الأقداس، ووقف أمام الباب، كان يبدو أنه ينتظر شخصا ما.

لم يدم انتظاره طويلا، حتى أتى شاب، أعطته في عقلها ثلاثين عاما، يرتدي إزارا حول وسطه، مفتول العضلات، أسمر البشرة، شعرت شعورا لا إراديا بعدم الارتياح له.

تكلم الكاهن وسيمات الغضب على وجهه:

. ما الذي أتى بك إلى هذا المكان المقدس، ليس لك قدما هنا.

. ومن قال أني أريد قدما في المعبد، تلك طموحات الكسالى ضعيفي الشخصية ممن يرتادون المعبد مترجين عطفه ورحمته وأشار بيده إلى قدس الأقداس من خلف الكاهن، فاستشاط غضب الكاهن واقترب من الشاب رافعا يديه لتهديده:

. إياك أن تهين الإله، أنت لست سوى خائن، وناكر للجميل، ذلك الإله الذي تهينه لولاه لما أصبحت شابا، هنا أطعمناك وعلمناك كل شيء.

فهمت سارة أن الشاب أحد أعضاء المعبد المتدربين ليكونوا كهنة، لكنه انشق عنهم.

ابتسم الشاب بسخرية:

. فلتخبر الملك، لأرى ما يستطع عمله معي.

ثم ابتعد عنه، ورفع يديه في تباهي وبابتسامة تحمل كل التحدي، وصرخ بصوت عال:

. فلتخبر ملك مصر المعظم يا أبي، أخبره أن هناك من يتحداه، ويستطيع غلبته، أخبره أنني لا أخافه ولا أخاف آلهتكم جميعها.

صرخ الكاهن عاليا بغضب: لست أباك، ولا يشرفني ابن مثلك، والملك لا يكلف نفسه بالرد على الخونة، من أنت؟

أنت لا شيء، لا أحد.

خفض الشاب يديه، ناظرا نظرة مطولة إلى الكاهن أمامه، ثم تحدث:

. صدقني غصبا عنه سيبحث عني، عندما أصبح أعظم منه.

. العظمة ليست في القوة، إنها في الأخلاق، وأنت بلا أخلاق.

ولأول مرة يستفز الكاهن الشاب، فصاح مرة أخرى بغضب:

. القوة تطوع الأخلاق، وبقوتي سأضع معايير جديدة للأخلاق أتى حرس المعبد على أثر صوته العال، وعندما حاولوا مهاجمته، رفع يده فارتفع الحرس جميعا في الهواء، وتعالت صرخاتهم.

صرخ الكاهن: ما الذي تريده؟

. أريد الكتاب؟

الكاهن: لا أعلم ما القدر العظيم الذي تمتلكه من السذاجة، ليجعلك تعتقد أنه يمكنك الحصول عليه بأي طريقة، حتى لو قتلتنا جميعا، لن تحصل عليه أو تعرف مكانه.

ابتسم الشاب في تحد: أنا لا أخبرك لأطلب منك أو أهددك، أنا أخبرك لأجعلك تشاهد بنفسك كيف سأحصل عليه.

سقط بعدها الحرس جميعا على أرض المعبد، بينما ابتسم الشاب إلى الكاهن قائلا في سخرية واستفزاز: يا أبي.

اتجه بعدها خارجا، تاركا الكاهن وقد تحول وجهه إلى اللون الأحمر من شدة الغضب، فاستدار عائدا إلى قدس الأقداس.

أفاقت من نومها، وانتهى حلمها.

شعرت أن الزمن عاد بها إلى الوقت الحاضر، وأنها لم تكن تحلم.

جلست على فراشها تفكر في كل ما رأته، تمنت لو سمعت اسما للملك، أو اسم الكاهن أو ذلك الشاب الفظ، ربما استطاعت البحث ومعرفة القصة الكاملة لما رأته.

لكن أدركت أن ذلك السؤال الذي باغتها قبل النوم، عن هدف إعطائها سر تلك القوى.

كان هذا الحلم إجابة للسؤال، وراحة لها من كثرة التفكير فيه وتشتيت ذهنها.

بقى سؤال واحد يؤرقها:

ماذا عليها أن تفعل، وكيف تستخدم تلك القوى؟

الفصل الثالث والعشرون

استيقظ حسام بصعوبة على رنين المنبه المضبوط على الساعة السابعة. أطفأه ولأول مرة بدلا من الاستيقاظ بنشاط، تمنى العودة مرة أخرى إلى النوم.

فكر، أنه ربما عليه أن يرتاح قليلا. وأن ما يعانيه سببه الإرهاق الشديد، لكنه تذكر سبب نومه الثقيل لأول مرة منذ أسابيع، وهو أنه لم يحلم الليلة.

تقلب عدة مرات، محاولا أن يسرق خمس دقائق إضافية للنوم، لكن ضميره لم يتركه للنوم، نهض بتكاسل، وفتح المياه على رأسه ووجهه.

جفف نفسه، ارتدى ملابسه سريعا، وقرر أن يدخن سيجارته الصباحية في الشرفة، فتح الستائر لتدخل الشمس، فتح النافذة ليملأ رئتيه بالهواء البارد.

أشعل سيجارته، لكن شخص رفع يديه في حديقة الفندق التي تطل عليها شرفته، انتبه إليه، رأى إبراهيم يتناول إفطاره مع سارة التي ابتسمت لتحيته.

حياهم برأسه، ونظر إلى ساعته ليدرك أنه تأخر نصف ساعة، لم يبال كثيرا لأول مرة بالوقت.

يستطيع أن ينظر إليها الآن دون أن تلاحظه أو حتى تراه، يستطيع أن يتأمل ضحكتها، حركاتها، عفويتها بحرية.

في الأيام الماضية ولأول مرة يعتاد السرقة، كان يسرق نظرة لابتسامتها، لغضبها، خجلها، ونظرات وهي تعتذر له.

تلك الفتاة التي يعرفها بالكاد تحدت عقله وذكاءه وشخصيته.

شعر أنه يتعامل مع توأمه، لكنه أكثر عنادا.

استغرق إبراهيم أعواما ليفهم خفايا كلامه ونظراته، وهي لم تستغرق دقيقة في فهمه من اللحظة التي رآها فيها.

نظراتها عندما يسود الصمت بينهما لأي سبب، تخترق قلبه لتنسيه غرض الحديث.

عندما جاءت لتعتذر له، كان حسنها قاتلا، ولو أن امرأة أخرى فكرت في قول نصف ما قالته لقطع علاقته بها.

صرخ بداخله "يا الله أنا ارتدي خاتم امرأة قررت الارتباط بها، وواقع في غرام أخرى".

سأل نفسه: هل أنا حقا أحبها، أم أنني فقط معجب بها وعقلي يخدعني لأنها تتحداه في كل شيء؟

هل أنا الآن خائن، لأنني أفكر بامرأة أخرى؟

تلك المقاييس لا يعترف بها القلب.

ومن ذلك الرجل الغبي الذي لا يفتن بامرأة ذكية، جميلة ومثقفة، احتوت على كل مقومات الجمال.

شعر أن ما حدث له، احتلال لا حل له، لقد استسلم لها برضا تام، دون أي مقاومة.

قتل سيجارته في المطفأة لتخرج آخر خيوط الدخان، وتوجه إلى الخارج ليتناول إفطاره.

كان الحديث بين إبراهيم وسارة، جاريا حول بوابة النجوم، جلس حسام وأشار للنادل، ليحضر له كوب القهوة.

إبراهيم: كيف حال صحتك اليوم؟

حسام: جيد جدا، لقد نمت كثيرا.

سارة: كل ما كان عليك فعله أن تستمع للنصيحة دون جدال.

نظر إليها مبتسما: نعم أنا من يرفض النصيحة.

قاصدا لها بكلامه.

تناول جريدة من منضدة الإفطار، جريدة محلية، قرأ قليلا في أخبارها، فتح صفحة الحوادث، لم يجد ما يختلف عن القاهرة، جريمة قتل بسبب الثأر، سرقة محل مشغولات ذهبية والقبض على مرتكبيه، اختفاء ثلاثة أطفال وجاري البحث عنهم، حادث سيارة يؤدي إلى ثلاثة مصابين.

طوي الجريدة في ملل، وأعادها إلى المنضدة.

إبراهيم: ما خطتنا اليوم؟

. سنذهب إلى منزل لطفي أولا.

سارة: لن نجده في المنزل، سيكون في عمله بالمعبد.

حسام: وهذا ما أريده بالضبط.

فهمت ما يعنيه، هو يريد رؤية المنزل ربما لاحظ شيئا ما، أو وجد شيئا، يستطيع سؤاله حينها الأسئلة المناسبة عند رؤيته في المعبد.

تناول إفطاره سريعا وتحرك ثلاثتهم إلى دندرة مرة أخرى.

الفصل الرابع والعشرون

في الصباح الباكر، القرى المصرية في أوج نشاطها على عكس المدينة تماما، التي تنام متأخرة، وتستيقظ متأخرة إلا قلة قليلة.

كان منزل لطفي على غير ما توقعه حسام وسارة تحديدا، ثلاثة طوابق من البناء الحديث، متكلف الزخرفة.

طرق حسام الباب عدة طرقات، وانتظر حتى فتحت له الباب امرأة في العقد الثالث من عمرها من الوهلة الأولى، تشعر أنك أمام لوح من الثلج، قاسية الملامح، متبلدة، زادها الجلباب الأسود قسوة، سألها حسام بنبرة عصبية عن قصد منه ليرى رد فعلها:

. هل هذا منزل لطفي؟

المرأة: نعم، من أنتم؟

حسام: إننا شرطة، نريد الدخول وسؤالك بعض الأسئلة؟

أشارت المرأة لهم بيدها مفسحة مجالا كي يدخلوا.

حسام: هل أنتي زوجة لطفي؟

المرأة: نعم، أنا آمال زوجته

وقفت في ترقب، بينما دار كل من حسام وسارة بنظرهم في المكان، ومن تلك اللحظة تولى إبراهيم دفة الأسئلة ليشغلها ويترك لهم المجال في البحث.

إبراهيم: أين لطفي؟

آمال: في المعبد، أنه وقت وردية حراسته، هل استدعيه.

حتى إبراهيم التفت إلى رباطة جأشها، وتمالك أعصابها.

إبراهيم: لا داعي لذلك، سنذهب إليه هناك بعد أن ننتهي هنا.

وقفت المرأة صامتة، دون كلام بينما أدركوا أن عليهم الصعود والبحث في بقية أجزاء المنزل، رفع حسام يديه متحدثا إليها:

. نريد رؤية باقي المنزل.

هزت المرأة رأسها في غير مبالاة:

. بالطبع تفضلوا

وصعدت قبلهم، أنارت لهم باقي المنزل، ليرجع إبراهيم متوليا دفة الحديث:

. هل كنتِ تعرفين الشيخ ضاحي؟

آمال: بالطبع، صديق زوجي منذ أعوام، كان رجلا طيبا، لا غضاضة له مع أحد.

إبراهيم: هل كان يأتي إلى منزلكم كثيرا؟

آمال: أتي مع زوجي مرات عدة، ضيوف زوجي يجلسون في الطابق الأرضي، ولا أراهم في الكثير من الأحيان.

اقتاد إبراهيم آمال جانبا، غامرا إياها بالأسئلة ليفسح مجالا أوسع لحسام وسارة.

شعرت سارة برائحة كريهة للغاية، سألته بصوت منخفض:

. هل تشم ما أشمه؟

هز رأسه في رفض.

أكملت: يا إلهي كيف لا تشم تلك الرائحة الكريهة.

حسام: لا وجود لأي رائحة كريهة، ربما أصاب أنفي شيء، لا تلقي لي بالا، ماذا تعتقدين تلك الرائحة؟

اتجهت سارة إلى غرفة من غرف المنزل، وهي تفكر من المستحيل أن يكون حسام قد فاتته تلك الرائحة، إلا أن كانت هي وحدها من تشعر بها، شعرت أنها رسالة، أو أن تلك القوى التي تمتلكها هي من قادتها لتلك الرائحة.

وصلت إلى غرفة جانبية، فتحت بابها، كانت غرفة فارغة، حسام التقط الرائحة أخيرا، كانت رائحة براز طيور، لكن لا وجود لأي طيور أو أي بقايا في الأرض لطيور.

يبدو أن الغرفة تم تنظيفها حديثا، ولم يمر الوقت المناسب لتذهب تلك الرائحة الكريهة.

اقتحمت آمال الغرفة، خلفها إبراهيم وسيمات الغضب على وجهها لكنها أحكمت حديثها جيدا.

. تلك الغرفة اعتدنا أن نربي بها الطيور لكنها غير جيدة التهوية، فقمت بنقل الطيور إلى أعلى، لا وجود لشيء هنا.

لكن سارة لم تلتفت لحديثها، كانت تفحص كل أنش في الغرفة ببصرها.

آثار منضدة في أرضية الغرفة، تم نقلها حديثا، وبعض من آثار فرن وضع سابقا، تاركا حروقا بالحائط خلفها.

التفتت إليها بعد أن انتهت من الغرفة:

. وهل تخبزين أيضا في تلك الغرفة بجانب الطيور؟

آمال: نعم، كل المنازل في القرية تفعل ذلك.

سارة: ماذا تربين من الطيور؟

آمال: وما بال الشرطة مهتمة بما أربيه من الطيور؟

سارة: أنا لست الشرطة، أنا أعمل في الآثار.

تنهدت المرأة في ضيق بينما بدا التعجب على وجه حسام وإبراهيم، لأن السؤال كان لا يهمهم كثيرا.

آمال: أربي بعض الدجاج، والديكة الرومي.

سارة دون تردد: جيد هل يمكنني أن أراهم.

المرأة في استغراب شديد: تعالي.

صعدت سارة إلى أعلى خلف آمال ومعها حسام بينما بقي إبراهيم، يبحث بعينيه عن أي شيء مثير للشكوك.

كان السطح بلا سقف، به غرفتان من الخشب لهما سقف من جريد النخل، الغرفة الأولى كانت صغيرة، وقد وضعت بها الدجاج.

الغرفة الثانية كانت كبيرة بها ثمانية من الديكة الرومي، أربعة نساء ميزتهم من تلك الأربطة التي ربطتها آمال حول بطونها حماية لهم من مخالب الذكر، والأربعة الآخرون ذكور.

التفتت إليها سارة: يبدو أنكم تحبون لحوم الديكة الرومي جدا حتى تربي ثمانية مرة واحدة.

لم ترد المرأة تلك المرة، وتاه انتباهها مع حسام الذي كان يتفحص بقية سطح المنزل.

وقفت سارة وحيدة، لكن لم تكن في منزل لطفي، بل وجدت نفسها في منزل من الطوب اللبن عتيق الطراز، بسيط في بنائه، يدل على فقر قاطنيه.

التفتت في أرجاء المنزل لترى غرفة يكشف بابها المفتوح جزئيا عن وجه تعرفه جيدا، وجه قاتل ضاحي منذ عدة أيام.

كانت المرأة تجلس بغرور ظاهر، وتتحدث إلى شخص آخر في الغرفة لم تتبينه:

. أريد أن أعرف كل ما يفعله، مع من يتحدث، إذا رأيت أي شيء يجب أن أعلم به، ولك عندي أن أبيع بضاعتك بثمن لا تحلم به.

أيقظها حسام عندما هز مرفقها، بعد أنا وجه إليها الكلام عدة مرات فلم تلتفت، كانت كالغارقة في غيبوبة، فانتبهت إليه.

حسام: ما بكِ، هل أنتِ بخير؟

سارة: نعم، لقد غلبني خيالي قليلا، لا حاجة لي في هذا المنزل.

أومأ برأسه موافقا، غادر ثلاثتهم المنزل، متجهين إلى المعبد لاستجواب لطفي وباقي أصدقاء ضاحي في العمل.

الفصل الخامس والعشرون

كان المعبد مليئا بالزوار، توجه ثلاثتهم إلى غرفة الأمن في مدخل المعبد، أراد حسام و إبراهيم فحص الكاميرات بصورة أوضح، لمعرفة كل التفاصيل، لكن سارة لم تكن في حاجة إلى ذلك، لقد رأت كل شيء وقت وقوعه.

توجه حسام إلى الضابط المسئول مباشرة، لطلب تلك اللقطات منه، وسؤاله عن عم ضاحي.

إبراهيم في وقت سابق أخبره، أن اسمه محمود، وهو مسئول الأمن والمراقبة، وقد رفض سابقا أن يعطيه تلك اللقطات دون أي أوراق قانونية.

لولا أمين الشرطة "عوض" الذي أعطى اللقطات خلسة إلى إبراهيم، على أن يرد له إبراهيم تلك الخدمة في المستقبل.

دخل حسام مكتبه، كان ممتلئ القوام، بجسد غير رياضي، أسمر البشرة، ويدخن بشراهة أكثر مما يفعل حسام، حتى أن مطفأة السجائر بجانبه ممتلئة.

شرح له حسام سريعا ما جاء لأجله، وإثباته أن ضاحي قد مات مخنوقا على يد قاتلة.

ظلت سارة في كرسي أبعد ما يكون عنه، بعد ما رأته يتحرش بتلك المرأة التي قتلت ضاحي، كانت تشعر بالقرف، وفي التفاتة سريعة من حسام إليها، قرأ وجهها متعجبا، فالرجل بدا متعاونا معهم، ومرحبا بعد ما سمع كل التفاصيل.

فكر أنها ربما رأت شيئا لم يره بعد، فمن غير المنطقي أن ترتسم عليها كل تلك الملامح دون سبب.

محمود: أنا لا أصدق، عم ضاحي كان رجلا مسالما جدا، وعلى خلق، ومحبوبا من الجميع، هل عرفتم دافع الجريمة؟

حسام: في الحقيقة لا، وهذا ما نبحث عنه.

تدخل عوض في الحديث:

. طالما اهتم بحاله، ليس بينه وبين العاملين هنا إلا كل خير.

محمود: أسمح لي أن أخبرك شيئا، لقد كان ضاحي شخصا غريبا، يعشق هذا المكان بشكل غير مبرر.

قاطعته سارة: وهل من يحب آثار بلده، يعد شخصا غريبا؟

تدارك حسام العصبية التي ظهرت في سؤالها:

. إنها دكتورة سارة، دكتورة في المصريات، تعشق الآثار مثل عم ضاحي.

نظر إليها محمود باندهاش مستتر لأسلوبها:

. في الحقيقة أن ضاحي كان أكثر من رأيتهم في خبرتي العملية وطوال فترة عملي هنا، لم أر شخصا محبا للمكان مثله، كان يعتبر المعبد أكثر من بيته، لا يسمح لأحد عربيا كان أو أجنبيا أن يهين أو يتلف أي شيء في المعبد، الكل كان يعتمد عليه اعتمادا كبيرا، الحراسة لم تكن بالنسبة له وظيفة، بل كانت حياته.

من المؤسف أن يوم وفاته كان آخر يوم في عمله كحارس، الكل كان يراهن أنه سيعود متطوعا لحراسة المكان دون أجر.

حسام: هل كان ضاحي في آخر أيام عمله؟

محمود: بل في آخر ساعة له في العمل على وجه الدقة، فقد كنا نستعد لإغلاق المعبد وتأمينه لتسليم وردية الحراسة الليلية.

شعرت سارة بالغرابة من توقيت موته، لكنها كانت متأكدة أنها ليست صدفة.

عوض: لقد تجنب الجميع في ذلك اليوم، كان حزينا جدا، ولم يتكلم مع أحد حتى موته.

نظر إليه حسام صامتا، ثم قطع صمته متسائلا:

حسام: نريد أن نرى لقطات المراقبة، ربما وجدنا شيئا.

محمود: في الحقيقة كان يوما عاديا، لم يمر أحد من البوابة يمكننا الشك فيه، أو توقيفه، أظن أن القاتل ربما جاء من خلف المعبد هربا من التفتيش.

ردت سارة في استهزاء: في الحقيقة، أنا أعطيك عذرا خاصا، فأنت تنظر إلى كل هذا الكم من النساء الجميلات يوميا، وتنتظر منا أن نصدق أنك تولي القليل من التركيز أو حتى الاهتمام بتفتيشهم.

نظر إليها حسام مصدوما في عتاب شديد، بينما شعر محمود بإهانة:

. سيدتي أنا لا أعلم لماذا تكرهينني فأنا لم يسبق لي مقابلتك، لكن أمنيا، والضابط حسام يعلم ذلك لا يمكنني تفتيش النساء الأجنبيات لمجرد شك غير موجود، كما أنه لا يوجد داع أمني لعملية التفتيش ما دام لا يوجد تهديد.

أكملت سارة متجاهلة نظرات حسام المتوسلة لها أن تصمت، لكنها كانت تشعر تجاهه بغضب كبير، وتحمله مسئولية موت ضاحي لأنه سمح بمرور تلك المرأة:

. من المؤسف أن ضابطا بخبرتك لا يعرف ما الذي يمكن أن تفعله امرأة جميلة، بعينين ورباط حقيبة.

نهض حسام من مكانه مسرعا، قبل أن يعطي الفرصة له في الرد: أستأذنك في لقطات المراقبة، لأننا ما زلنا لم نستجوب أصدقاء ضاحي في العمل.

نهض من مكانه وأشار إلى حسام في إتباعه، لكن حسام نظر إلى إبراهيم في غضب:

. خذ الدكتورة وأذهبا للتحقيق مع أصدقائه وأنا سأتولى أمر لقطات المراقبة.

ثم رمى سارة بنظرة غاضبة، فقابلته بنظرة غير مبالية.

فأشار عليهم عوض لمساعدتهم في التحقيق داخل المعبد، وتعريفهم بأماكن أصدقائه.

تفرقا، واتجه إبراهيم معهما إلى حرم المعبد، تحديدا إلى أماكن تمركز الحرس:

. في القائمة التي أحملها ثلاثة حراس، لطفي واثنان آخرين هما، بدوي، وزيان، لنتكلم مع كليهما ونترك لطفي في النهاية ليكون حسام معنا.

عوض: لا مشكلة فهما الأقرب إليك، لأن لطفي يتولى منطقة نهاية المعبد.

إبراهيم: هل لهم أي سوابق، أو حتى مشاكل من قبل؟

عوض: إطلاقا، الناس هنا في غاية الطيبة والمودة.

سارة: هل أنت من دندرة يا عم عوض؟

عوض: لا، أنا من قرية بجانب قنا المدينة.

أثناء سيرهم في طرقات المعبد تذكرت الحلم، الطرق التي مشت فيها المرأة قاتلة ضاحي.

الأماكن تعيد علينا إحساس الألم كما لو كان يحدث لأول مرة.

كانت سابقة لها أن ترى شخصا يموت رؤية العين، وكان أليما أن يكون شخصا تعرفه.

هي تعرف أغلب حرس المعابد، بحكم تعاملها معهم كثيرا في دراستها، لكن ضاحي كان أكثرهم مودة.

وصلا إلى زيان، كان الأقرب إليهما.

قصيرا يرتدي جلبابا، وغطا الرأس الصعيدي "العمة"، أسمر الوجه، ممتلئ الجسم، قرأت ملامحه سريعا.

كان يظهر عليه أنه شخص هادئ، لا يمارس الخداع والخبث.

إبراهيم: صباح الخير، هل أنت زيان؟

وقف الرجل وهو يهز رأسه بالإيجاب:

. نعم، أنا هو، من أنت.

إبراهيم: أنا من الشرطة وتلك دكتورة سارة دكتورة في المصريات.

عوض: لديهم بعض الأسئلة يا زيان، أخبرهم بكل ما تعرفه.

زيان: إن لطفي هو المسئول عن الدارسين والطلبة، يمكنني أن أرشدكما إلى مكانه.

إبراهيم: نحن للتحقيق في جريمة قتل ضاحي، هل كنت تعرفه؟

ظهرت على ملامح الرجل الدهشة والذهول والصدمة، وزع الرجل بصره بين إبراهيم وعوض متسائلا:

زيان: ضاحي قتل؟؟

إبراهيم: نعم، لقد كان كلامي واضحا.

زيان: لكن أنا من وجده، وقد كان سليما، لم يكن به أي آثار دماء، كان ظاهرا لنا أنه مات حزنا، لقد كان آخر يوم في عمله.

إبراهيم: هل كنت تعرفه جيدا.

زيان: بالطبع ومن لا يعرف عم ضاحي، رجل لا تشوبه شائبة.

إبراهيم: هل كانت له مشاكل مع أحد؟

زيان: بتاتا، كان رحمه الله يكره المشاكل.

شعرت سارة بعدم جدوى ما يفعلونه، تلك المرأة الغامضة هي السر الكبير الذي تريد اكتشافه، ويا ليتها تستطيع إخبارهم بما رأته، وضعت يدها على رقبتها بحركة عفوية، فلامست يدها القلادة، شعرت بدهشة شديدة، رفعتها قليلا ونظرت لها، ثم حولت عينيها لتتأكد هل من أحد يراها غيرها.

لكنها لم تجد إبراهيم أو زيان، لم تجد أي أحد على الإطلاق، كان المعبد خاليا من الزوار، والليل يقبع بالصمت القاتل في جوانبه.

أحست بالغرابة لكنها علمت أن القلادة ستريها شيئا آخر، تجولت في المعبد، حتى تناهى إلى سمعها أصوات غريبة وغير واضحة يصرخ بها شخص ما.

اتجهت إلى مصدر الصوت، إلى منطقة بعيدة قليلا عن حرم المعبد، كان الشخص بعيدا بحيث لا تستطيع رؤيته.

لم يكن الصوت واضحا، ولم تكن تستطيع التقاط حرفين لتفهم كلمة مما يقوله.

لكن تلك الحلقة التي كان واقفا فيها، وحركته الدائرية وصراخه بكلمات أمام النيران ليس لها إلا تفسير واحد لديها، مجنون يقدم قربانا في عصرنا الحالي لإله من آلاف السنين.

هل من معتقد في زمننا لهذه الخرافات؟

كان الرجل قد انتهى من طقوسه، رفع سكينه عاليا أمام النار المشتعلة، وصرخ عاليا بصوت بالكاد سمعته، بعد أن هبت عاصفة هواء قوية وظهر برق في السماء على شكل ثعبان واختفى في أقل من الثانية، خبطتها رمال الصحراء في وجهها وعينيها، لتصبح رؤيتها أكثر صعوبة.

مرت دقيقتان، قبل أن تهمد تلك العاصفة، تحرك الرجل بدلو ماء أطفأ به النيران، ثم حمل جوالات تشبه جوالات الدقيق وهم بالمغادرة عندما أدركت سارة أن القربان ربما كان بشريا، حركت قدميها متجهة إليه دون أي حساب للخطر، لكنها في الحال وجدت نفسها قد عادت مرة أخرى للمعبد، وبجانبها إبراهيم ما زال يستجوب زيان.

شعرت بالحنق والغضب لأنها لم تنل فرصة معرفة ذلك الشخص، لكنها علمت أنه كان يقدم قربانا لأبيب، إله قديم كان يرمز له بالثعبان.

وضعت يدها على جيدها فلم تجد القلادة، شعرت بيأس أكبر، فكل ما تريده هو تطويع تلك القوى لمساعدتها لكنها لا تجد المساعدة إلا قليلا.

الأسوأ لها، هو أنها تأكدت الآن أن قضية ضاحي أكثر اتساعا، وتعقيدا مما كانت تظن.

أفاقت على صوت إبراهيم وهو يشكر زيان، ويخبرها أنهم سيتوجهون إلى بدوي.

تمشيا في المعبد حتى وصلا إلى منطقة مفتوحة، كان الرجل أكبر سنا من زيان، رفيع الجسم، أسمر البشرة، لكنه كان أكثر صعوبة منه.

إبراهيم: هل أنت بدوي الحارس؟

بدوي: نعم من يسأل؟

إبراهيم: الشرطة

انتفض الرجل من مكانه، وهو متردد في النظر بينهما، متسائلا في نفسه هل تحضر الشرطة معها سيدات، ظن أنها ربما أضاعت شيئا في المعبد.

بدوي: كيف أخدمك؟

إبراهيم: هل كنت تعرف ضاحي؟

نظر لهما في دهشة بينهما:

. بالطبع، نحن الاثنين الأقدم هنا في المعبد، لكن ضاحي يكبرني بستة أشهر.

إبراهيم: هل كان له مشاكل مع أي أحد؟

بدوي متعجبا: لا أبدا، كان رجلا ذا خلق.

إبراهيم: هل لاحظت أي شيء غريب وقت مقتله؟

صمت بدوي لدقيقة كي يستوعب الكلمة: وهل قتل ضاحي؟ لقد مات ميتة طبيعية، حملته بيدي أنا وزيان ولطفي خارج المعبد، لم يكن فيه شيء.

إبراهيم: نعم وإلا ما كنا هنا نسألك عنه.

بدوي: لم يكن له أي مشاكل مع أحد، سوى المشاكل اللحظية التي كان يخوضها مع بعض زوار المعبد الذين يكسرون القانون.

إبراهيم: هل كان يزوره أحد من أقاربه أو معارفه هنا؟

بدوي: عم ضاحي لم يكن له أقارب سوى شقيقته فايزة الكفيفة، وصديقه لطفي لأنه من دندرة نفس بلدة ضاحي، ونحن حراس المعبد، لكن اختلاطه الأكبر كان مع لطفي.

شعرت سارة أن الرجل يخفي شيئا، فاقتحمت المحادثة:

. كيف كانت علاقته بلطفي في أيامه الأخيرة؟

شعر الرجل بارتباك وتردد، لاحظه إبراهيم أيضا:

. في الحقيقة يبدو أن في الفترة الأخيرة كان بينهما سوء تفاهم حتى أن عم ضاحي توقف عن الجلوس معنا في فترات الحراسة الصباحية، وكان يفضل تناول الإفطار وحيدا.

وفي حراسة الليل كان يجلس نوبة الحراسة وحيدا لا يكلم أحدا، حتى عندما كان يأتي شقيق زوجة لطفي الذي اعتاد مسامرتنا، لم يكن يلقي السلام.

لكن في النهاية سوء التفاهم لا يؤدي إلى القتل، نحن هنا نتحامى عن بعضنا البعض.

ابتعدت سارة عنهم قليلا وأمسكت هاتفها لتستعجل حسام، فلم يتبق لهم سوى لطفي.

انتهى إبراهيم من استجواب بدوي وانضم إليها هو وعوض منتظرين حسام، وعندما أتى إليهم كان ما زال يحمل في عينيه علامات الغضب بسبب ما فعلته سارة، لكنه لم يجادلها كونه يعلم أن الجدال سيطول وربما يتسبب ذلك في مشكلة أخرى بينهما، وكل ما يريده الآن التركيز في القضية.

انطلقوا إلى حيث لطفي، جلس الرجل على مصطبة أمام الغرفة التي قتل فيها ضاحي، بدا أنه في عالم آخر لا يأبه كثيرا بالزوار، عندما لمحهم نهض من مكانه، وبدا عليه أنه يعرف من هم.

كان حسام متأكدا أن زوجته قد اتصلت به وأخبرته عن الشرطة التي أتت البيت وفي طريقها إليه.

لطفي رجل ممتلئ الجسم قليلا متوسط الطول، ذو بشرة فاتحة، على خلاف أقرانه، ظهر عليه الارتباك عند رؤيتهم، وكان عليهم أن يميزوا سبب الارتباك.

حسام: صباح الخير يا لطفي، بالطبع أنت تعرف من نحن ولماذا نحن هنا، أتوقع أن تكون زوجتك قد أخبرتك كل شيء.

ابتسم لطفي له ابتسامة مهتزة: أنت تعلم النساء، ينقلون الكلام أسرع من الهواء، ولا لوم عليها عندما تزورها الشرطة بالطبع ستتصل وتخبرني.

لاحظ حسام خوفه، وتردده، فأراد أن يخيفه أكثر، فالخوف يتبعه ارتكاب الأخطاء، أراد اصطياد الكلمات منه لأنه الشخص الأخير أمامهم لاستجوابه.

. هل كان لضاحي أعداء؟

أجاب لطفي دون تردد: بالطبع لا، عم ضاحي كان الكل يحبه، رجل لا أنسى فضله علي.

اقتحمت سارة المحادثة، لعدم علم حسام بما قاله لهم بدوي عن أيام ضاحي الأخيرة:

. علمنا أنه كانت هناك مشاكل بينكما، وضاحي في أيامه الأخيرة تجنب الجلوس معك أنت وشقيق زوجتك، كما اعتزل باقي أصدقائه من الحراس دون أسباب.

ظهر الارتباك أكثر على لطفي:

. أقسم لكم أنني لم أفعل له شيئا، لقد تغيرت معاملته فجأة، وصار يتجنبني تماما دون سبب، ثم تجنب الجميع، ففهمت أن الأمر لا يتعلق بي وحدي، حاولت التحدث معه لكنه رفض تماما.

كل ما شعرت به سارة أنه يخفي شيئا عنهم، لا يريد التحدث به، لاحظت جفاف شفتيه نتيجة الخوف.

عرق جبهته، هروب عينيه من النظر إليهم.

حركة أكتافه التي تتخذ وضع الدفاع عن النفس.

جلد يديه شديد الخشونة المليء بالجروح والمتآكل.

كان حسام قد لاحظ كل شيء مسبقا، فقرر أن يضعه تحت ضغط أكبر لعله يتكلم، لكن سارة أدركت قبله أن ما يخافه لطفي أيا كان فهو يخافه أكثر منهم ولن يتحدث.

. هل من مشاكل مع أي أحد في القرية؟

. لا أبدا، يمكنك أن تسأل عمدة دندرة، كان ضاحي ذا سيرة حسنة، ولا ضغينة له مع أي شخص.

. إذا فقد كانت ضغينته معك أنت فقط، وباقي الحرس.

تصبب لطفي عرقا، ورفع يديه مدافعا عن نفسه:

. أقسم لك أنني لا أعلم لماذا كان ضاحي مقاطعا لي أنا والحرس حتى مماته، أنني لم أعلم أنه قتل حتى أخبرتني زوجتي بذلك منذ ساعة.

نظر حسام إلى سارة و إبراهيم وكلاهما فهماه، فاستمر بالضغط عليه أكثر:

. ما علاقة شقيق زوجتك آمال بضاحي؟

. تقابل فارس مع ضاحي عدة مرات في منزلي، وصارا صديقين.

تدخلت سارة في الحوار، مقاطعة حسام:

. هل تملك أرضا زراعية؟

التفت لطفي لها، وهز رأسه نافيا:

. لا ليس لدي سوى منزلي الذي رأيتموه، وعملي في المعبد.

أكمل حسام حديثه:

. أريد عنوان فارس.

أجاب لطفي مدافعا عنه:

. فارس بالكاد كان يعرف ضاحي من خلالي، لم يكن لهما معا معاملات.

حسام: ألم تقل إنهما كانا صديقين.

لطفي: ليس بالشكل الذي تخيلته، كل لقاءاتهما كنت موجودا، فقد تعرفا من خلالي، وإذا كان هناك أي مشكلة بينهما لعلمت بها.

حسام: إذن ليس هناك مشكلة في الحديث معه ما دمت تقول إنهما صديقان، ولا وجود للخلافات بينهما.

استسلم لطفي وأخرج ورقة صغيرة كتب فيها عنوان فارس، لكن سارة اتجه نظرها إلى ما وراء ضاحي، تلك البقعة الصحراوية بجانب المعبد، التي رأت فيها الرجل يقف حول النار، ويقدم قربانا لأبيب.

طوال دراستها لم تشعر أبدا بالارتياح عندما كانت تأتي سيرة أبيب، وست، كانت ترى أنهما رمز للشر والخيانة.

اعتقدت أن أنوبيس كان أكثر هوانا ورحمة، استمتعت كثيرا بدراسة الميثولوجيا المصرية القديمة، أكثر من اليونانية.

رأت فيها مشاعر الحب والفراق والبغض والخيانة، الفعل ورد الفعل، الأمل والحياة، النظم الأخلاقية التي ارتقت كثيرا عن مثيلاتها عبر التاريخ، تمجيد قيمة العلم، واحترام الآخرين.

والأكثر تواضعا عن مثيلاتها في الحضارات الأخرى، وحرمة القربان البشري تماما وهو ما كان رائجا في كل مكان حتى وقت قريب.

انتهى حسام من لطفي عندما أفاقت من ذكرياتها العلمية، انتظرت حتى تمشيا قليلا مبتعدين، ثم توقفت، وتوقف معها حسام و إبراهيم وعوض الذي كان مستمرا في اصطحابهم داخل المعبد.

أشارت بيدها إلى تلك البقعة البعيدة:

. أريد أن أذهب هناك.

حسام: ولماذا هناك؟

. إن تلك البقعة في المعبد هي ناحية غروب الشمس، إذا أراد أحد فعل أي شيء له علاقة بالسحر الأسود فسيفعلها هناك.

إبراهيم: هل تقصدين أعمالا للسحر؟

سارة: في الحقيقة

ترددت قليلا في الكلام:

. أنا أقصد تقديم قرابين.

عوض: سيدتي، تلك البقعة مكشوفة ومن المستحيل لأحد أن يفعل شيئا هناك دون أن نراه، وأنت تتكلمين عن قرابين، هذا مستحيل.

تذكر حسام تفصيلة صغيرة في رأسه، ركض بعدها مسرعا إلى تلك البقعة التي أشارت إليها سارة، ومن بعده ركض الكل.

كانت تبعد عن المعبد نصف الكيلو، وصلوا إليها بعد دقيقتين من الركض.

شعرت سارة بوحشة شديدة في المكان.

دائرة كبيرة مرسومة على الرمال باللون الأسود .

حطام أخشاب محترقة في المنتصف.

وحول الحطام الخشبية ثلاث بقع كبيرة من الدماء.

شعروا بالصدمة، جلست سارة على إحدى الصخور الجانبية في صمت، الآن علمت أن تلك الأجولة كانت تحمل داخلها أطفالا، تلك هي القرابين المعتاد تقديمها.

حسام تذكر ذلك الخبر في الجريدة المحلية الذي قرأه في الصباح عن اختفاء ثلاثة أطفال، لذلك ركض إلى المكان خوفا من شكوك تكونت في رأسه.

عندما رأى كل تلك الدماء تأكدت لديه الشكوك.

القربان البشري في سبيل الحصول على شيء بالمقابل، المال أو القوة.

آخر إحصائية قدمتها إدارة السياحة والآثار في أكثر المحافظات في عدد الحوادث المرتبطة بالتنقيب عن الآثار كانت محافظة قنا.

رفع هاتفه، واتصل بمديرية الأمن في المحافظة، ليبلغ عن بقع الدماء، وشكوكه في أنها بشرية وتنتمي للثلاثة أطفال المختفين منذ أيام.

انهمك عوض في جهازه اللاسلكي ليبلغ أمن المعبد بما وجدوه، ليطلب بعدها قوة شرطة إضافية.

مر أكثر من نصف ساعة وكان المعبد ممتلئا بالشرطة ومعها خبراء من البحث الجنائي.

وقف إبراهيم وحسام يتحدثان مع ضباط آخرين، كان يهمهما أن يعرفا كل ما يتم التوصل إليه.

تنبه حسام إلى سارة التي ظهر عليها الاكتئاب، ولازت بالصمت وحيدة على غير عادتها، دون أن تدور في المكان وتطرح أسئلة على الكل.

ذهب إليها تاركا إبراهيم ليتابع كل جديد.

. يبدو أنها المرة الأولي لكِ في الموت؟

نظرت إليه بعينين رسم فيهما الحزن دروبا طويلة:

. اعتدت على المومياوات، وكنت أشعر بالحزن والكآبة وأنا في حضرتهم، لكن الأطفال..

أنا لا أتخيل أي إنسان عاقل يقتل طفلا لأي سبب كان.

. اعتدت في شرطة الآثار على تلك الجرائم، أطفال صغار أو أقارب أو حتى المعاقين، دائما ما أقول أن ذلك الوجه هو الأكثر قسوة في عملي.

. نعم، التعامل مع الأحجار أكثر رحمة وإنسانية.

جلس إلى جانبها، كانت الصدمة قد غيرت ملامحها تماما، حاول أن يخفف عنها:

. الأطفال الثلاثة من دندرة، هناك شيء يجري في تلك القرية، والكل يخفيه ولا يتحدث عنه.

. وكيف سنعرف ما يخفيه هؤلاء؟

. بطريقتنا المعتادة، نضايقهم في الأسئلة، ونضيق عليهم حتى وقوع الخطأ، عليكِ أن تعترفي، لقد حصلنا على الكثير من الأخطاء منهم حتى الآن ونحن لم نبدأ بعد.

. إن ضاحي كان يعرف شيئا ما قتل لأجله، إلى جانب ذلك القرص.

. لا اتفق معك في موضوع القرص، لكني متأكد أنه كان يعلم شيئا ما، وتسبب في قتله.

نظرت إليه سارة بغضب:

. لماذا أنت دائم التشكيك وعدم الثقة بي؟

أخبرتك أنه قتل وقد كان.

أخبرتك بتلك البقعة، وقد وجدت فيها كارثة.

لماذا لا تصدق بذلك الأمر أيضا.

تنهد حسام محاولا تجنب غضبها الظاهر:

. أنا لم أشكك بكِ أبدا، وأثق في كل كلمة تقولينها، أنتِ فقط لم تعرفيني بعد، اسألي إبراهيم عني، سيقول لكِ أنني أتعامل معكِ كما لم أتعامل مع أحد أبدا من قبل.

صمت قليلا منتظرا أن يرى وقع الكلمة عليها لكنها التفتت للناحية الأخرى، لتخفي اختلاط المشاعر بداخلها، فاستطرد:

. كل ما أقوله إنني كعاقل من الصعب أن أصدق امتلاك شخص لقرص ذهبي يفتح بوابة في جدار ما.

توقف منتظرا رد فعلها، لكنها لم تتكلم، فأكمل لعله يخفف غضبها:

. كل ما تريدين التحقيق فيه، سنذهب ونحقق ونقلب الموائد على رؤوسهم، لأنني أثق بك تماما.

. وماذا الآن؟

. سنذهب إلى فارس أنا وأنتِ، لنقلب له رأسه.

ابتسم مستطردا:

. في الحقيقة أصبحت متعة لي التحقيق معكِ، تلك الحيل التي نمارسها عليهم معا، لم أكن أظن أن مشاركة الخداع بتلك المتعة من قبل.

نظرت له، وقد زالت سيمات الغضب والحزن من وجهها قليلا، لم تستطع منع نفسها تلك المرة من النظر إليه.

وهو لم يمنع نفسه بل استسلم لعينيها تماما.

كل شيء حولهم صمت فجأة.

حديث الناس.

صوت السيارات.

كل شيء أصبح غير موجود.

نظرتها اخترقت قلبه دون استئذان، وأقامت فيه بمكان لا يعرف له النسيان طريق.

الحب لا يعرف وقتا، ولا مكانا.

يفرض نفسه أينما شاء ووقتما شاء.

جاء إبراهيم إليهما، وقد لاحظ ما بينهما، الحب لا يمكن أن يخفيه جبل.

تنحنح ليلفت انتباههما إليه، دار حسام بعينيه إليه مرغما:

. ماذا يا إبراهيم؟

. عينات الدم الأولية أثبتت أنها بشرية وليست حيوانية.

تنهد حسام:

. وهل كنا ننتظر سيناريو آخر.

إبراهيم: اعذريني يا دكتورة، لكن أنا اعتدت أن يذبح الأطفال أمام أبواب المقابر لاسترضاء حارسها من الجن وفتحها، لماذا ذبح الأطفال هنا؟

صمتت قليلا فقد كانت تسأل نفسها نفس السؤال، منذ أن رأت الرجل الذي ارتكب تلك المذبحة، لماذا هنا.

إنها صحراء

لا وجود لمقابر بجانبها.

وخارج ساحة المعبد.

إلا أن فكرة ما لمعت في عقلها فأسرعت بسؤال إبراهيم:

. قل لي ماذا قال خبراء البحث الجنائي عن عمر الدماء.

إبراهيم: ستة أيام أو أسبوع على الأكثر.

سارة: أي أن ضاحي ربما يكون قد قتل في اليوم الثالث بعد ذبح هؤلاء الأطفال.

التفت إليها حسام:

. أريد أن أفهم.

. لابد أن تصدق أولا حتى تفهم.

إبراهيم في سرعة لفتت نظر حسام:

. أنا أصدقك، فقد رأيت العجب العجاب في عملي.

نظرت سارة إلى حسام نظرة فهم مغزاها:

. أنا أعدك أنني سأصدق ما تقولينه أيا كان، فقط أفهمينا ما تعتقدينه.

. في الحقيقة عندما علمت من فايزة أن عم ضاحي كان حاملا للمفتاح وحارسا للبوابة، شعرت بالتعجب أن شخصا ما استطاع قتله، لأن النصوص القديمة وصفت حارس البوابة بالقوة، وأنه كان محصنا من كل أعمال السحر والشر حفاظا على المفتاح، وسألت نفسي لقد حمل المفتاح لأعوام، ولم يقترب منه أحد.

صمتت قليلا متذكرة جدتها.

. حتى عندما سلم جدتي دكتورة منى تلك المذكرات، قتلت جدتي ولم يقتل ضاحي، الذي كان في الأصل مالكها.

لماذا الآن؟

إبراهيم متعجبا: هل قتلت جدتك بسبب مذكرات لها صلة بقضيتنا؟

تنهدت سارة في حزن بعد أن تذكرت حوارها مع جدها:

. نعم، لكنها قصة طويلة.

حسام بعد أن فهم مقصدها: هل تقصدين أنه قدم قرابين من الأطفال حتى يستطيع قتله، والحصول على ما يملكه.

سارة: بالضبط، وفرت القرابين القوة اللازمة لقتل ضاحي، وحاملة المفتاح الأخرى موري.

إبراهيم: لابد أن يكون شيخا من الشيوخ الذين يدعون قدرتهم على إخراج الكنوز.

حسام: لا يا إبراهيم ، من يفعل ذلك، ويملك تلك القوة لا حاجة له للمباهاة أمام الناس، ولا حاجة له للمال.

الآن صارت مهمتنا أصعب كثيرا.

علينا أن ننقب عميقا لنخرج ذلك الرجل وهذا لن يكون سهلا.

إبراهيم: وما العمل الآن؟

نهض حسام من مكانه موجها حديثه إلى إبراهيم:

. أنت ستبقى هنا تتابع التطورات وتخبرني بها أولا بأول، كما أنني أريد تحريات مع كل من حققنا معهم ونحن سنذهب إلى فارس، لعلنا نجد ما نبحث عنه.

تفرقا كل منهم في طريقه.

وبقيت هي منشغلة التفكير. تشعر أن كل ما تفعله لا طائل منه.

حتى إذا توصلوا إلى قاتل الأطفال، فهو لم يقتل ضاحي.

ولم يسرق المفتاح.

المرأة الغامضة هي من قتلت وسرقت.

وبقوة السحر الذي استخدمته، لا يستطيع سلاح القبض عليها أو ترهيبها.

هي لا تعرف كيف تستخدم قوتها.

هي بالكاد تكشف ببطء خفايا القصة.

تقلب بصعوبة لتجد فتاتا من الحقيقة.

الفصل السادس والعشرون

بعد أن انتهت من ارتداء ملابسها، أحضرت حقيبتها، وأخرجت ميدالية صغيرة تحمل قرصا للتخزين، نظرت سريعا إليها ووضعتها في جيب صغير مخفي في حقيبتها.

ذلك الجيب الصغير الذي اعتدنا نحن النساء على وضع الصور الصغيرة لعائلاتنا فيه، قلبت بين صورة زوجها وصورتها ثم صورتين لابنها.

أخرجتهما في حزن، وأطالت النظر إليهما، وجال في رأسها ذكريات لا يحتملها قرص تخزين على الأرض.

ذكرياتنا تلك التي تأتي محملة بالمشاعر.

وكلما تذكرنا أكثر، كلما اختلطت مشاعرنا ما بين حزن وألم، نجاح وفشل.

جميعها متضادات تجتمع بشكل عفوي وفوضوي في نفس الوقت لتهلكنا.

تأملت أولا صورة ابنها الصغير، تلك الملامح الطفولية، الضحكات البريئة، والحياة التي منحها لها.

والصورة الأخرى، صورة تخرجه في كلية الشرطة، الطفل الذي غدا رجلا.

ذلك الطفل الذي كان يختبئ ليلا في حضنها من الخوف، يجاهد ليمسك رغيف الخبز بطريقة صحيحة حتى لا تتساقط محتوياته.

أصبح رجلا لا يخاف شيئا، يتمرد على كل شيء، له قراره المستقل، لكنه يملك كل حنان الدنيا لها.

ما زال يقبلها قبل ذهابه للعمل.

وما زال يصنع معها الطعام يوم إجازته.

تنهت لدموع هربت من عينها، جففتها سريعا وأعادت الصور إلى الحقيبة، لتخرج من غرفتها مستعدة لجدال تنبأ به عقلها، جهزت له كل الردود مسبقا.

كان اللواء فكري يجلس كعادته في الشرفة، يسلي نفسه بمشاهدة الناس، والسيارات، يقلب في صحيفة اليوم ثلاث مرات، متمنيا أن يكون قد نسى مقالا أو خبرا لم يقرأه، فيضيع من وقته قليلا ويكسر مله.

جلست سعاد إلى جانبه في صمت.

رآها وقد ارتدت زيها لتخرج، فعلم ما تنوي فعله، واستعد للمشكلة التي على وشك الحدوث.

فكري: إلى أين؟

ترددت سعاد قليلا، لكن ما من مهرب أمامها سوى الإجابة:

. إلى الدكتور مجدي.

. هل سنعيد ذلك النقاش وتلك المشاكل مرة أخرى يا سعاد، هل هذا ما تريدينه، المشاكل.

. أنا لا أبحث سوى عن مصلحة حسام.

. ومصلحة حسام أن تتركيه لحاله، أنه رجل قراره، كفى تدخلا وضغوطا عليه، بالله عليكِ ارحميه.

. إنه ابني، وليس لي سواه هل تريدني أن أراه هكذا دون أن أساعده

. لم يطلب مساعدة

. ولن يطلبها أبدا يا فكري، ابنك نفسه عزيزة، ويحمل كرامته على كتفه

ظهرت على قسمات وجهه العصبية الشديدة، وقفزت شرايين رقبته:

. أنتِ تضخمين الموضوع، أنتِ السبب في كل هذا.

أشارت إلى نفسها في صدمة: أنا يا فكري؟

. نعم، تلك الكوابيس التي يراها ابنك متى بدأت؟ اخبريني

قابلته بالصمت، لكنه أكمل كلامه بصوت عال، وغضب:

. أخبرك أنا متى بدأت، منذ أن أجبرتيه أن يرتبط بابنة خالته، وأنتِ تعرفين جيدا أنه لا يكن لها أي مشاعر.

تلك الفتاة لا تعطيه أي اهتمام.

ولا تراعي ظروف وظيفته.

وأن كان بقلبه شيء صغير لها لما تركها ليذهب إلى عمله

أنه ابنك بالله عليك، ألا تستطيعين التمييز أن كان يحب أم لا

هل تشعرين بالفرح لمجرد ارتباطه، وليس مهما إن كان سعيدا أم لا.

ضغوط منك، وضغوط منها، وضغوط العمل.

أي إنسان لديه إحساس سيرى تلك الكوابيس ليلا ونهارا.

انهارت زوجته في البكاء، لكنه أكمل دون توقف:

. ماذا ستخبرين الطبيب، ابني يرى كوابيس.

قاطعته ودموعها تغالبها:

. تلك الكوابيس ستصيبه بالاكتئاب. ابنك ليس طبيعيا يا فكري.

. وماذا إذا كان مصابا بشيء، هل تتوقعين من حسام أن يذهب معك بإرادته إلى طبيب نفسي؟ أم ستجبرينه تلك المرة أيضا.

. لن أجبره على شيء، أريد أن يعود ابني طبيعيا، عندما يعود سأخبره أن يفعل ما يحلو له مع هبة.

لكن الآن على أن استشير طبيبا

أنا أراقبه كل يوم

إنه تقريبا لا ينام

يصرخ أثناء نومه ويتقلب بعنف.

أخاف عليه وقلبي يخبرني أن الأمر ليس صغيرا.

هدأ فكري أمام بكائها المستمر وقلقها.

. ماذا ستخبرين الطبيب؟

. لقد اتصلت به مسبقا، فقال لي أن أصوره أثناء نومه المضطرب، وأحضر له الفيديو ليقرر حالته.

. أرجو ألا يعلم حسام بالأمر. ستكون كارثة.

نهضت من مكانها، لتستعد للخروج:

. أنا أفعل ذلك حتى لا تحدث الكارثة.

استقلت سيارة زوجها، واتجهت بها إلى مصر الجديدة، كل ما كان يدور في خلدها ألا يراها أحد.

وأن يتم الأمر في سرية.

اتجهت سريعا إلى مدخل مستشفى صغير في شارع جانبي، صعدت إلى الاستقبال، سألت الموظفة عن ميعادها مع الدكتور مجدي.

أخبرتها أن تنتظر قليلا حتى يحين دورها.

مرت قرابة النصف ساعة، وهي تدعو الله ألا ترى شخصا يعرفها، انتشلتها الموظفة من القلق عندما أخبرتها أن الدكتور في انتظارها.

قفزت من كرسيها بسرعة لتختفي وراء الباب، إلى غرفة الطبيب.

كان الطبيب رجلا طاعنا في السن، أحني العلم والزمن ظهره، وقف بصعوبة لتحيتها.

. مدام سعاد أهلا بكِ، كيف حالك وحال اللواء فكري.

. بخير يا دكتور.

. وحسام؟

. ليس بخير

. أنا فهمت منك القليل في الهاتف، أريد توضيحا لما يحدث معه.

. نومه أصبح ممتلئا بالكوابيس، يستيقظ عدة مرات ليلا، يصرخ في نومه، ويتقلب بعنف شديد.

. هل يتناول أي أدوية، أو أي نوع من المخدرات؟

. لا أبدا، ابني ليس له علاقة بتلك الأشياء.

. هل أنت متأكدة، أغلب الآباء يظنون هذا عن أبنائهم لكن الحقيقة غالبا ما تكون غير ذلك.

. ابني أصبح ضابط شرطة يا دكتور مجدي، وبالتأكيد لا يتعاطى المخدرات، أو أي نوع من الأدوية، أنا أبحث غرفته جيدا.

هز الطبيب رأسه في تفهم:

. هل فعلت ما أخبرتك به؟

. نعم لقد صورته عدة مرات.

فتحت حقيبتها، وأخرجت تلك الميدالية المعلق بها قرص التخزين، أعطتها له.

. سأشاهد ما صورتيه، وأخبرك برأي الطبي، لكن يا مدام سعاد، في الغالب تلك ضغوط نفسية قد تكون في العمل أو البيت سببت له تلك الكوابيس فلا تقلقي.

شعرت بارتياح قليل، عندما تطابق كلام الطبيب مع كلام زوجها، ودعته وغادرت المستشفى في سرعة، وهي تحمد الله أن كل شيء تم في سرية.

الفصل السابع والعشرون

لم يكن الطريق طويلا من المعبد إلى منزل فارس، لكنه لم يخلو من تلك المناقشة التي حاول حسام فيها أن يملأ فراغات اتسعت بداخله.

. كل ما يثير الريبة في كل فيديوهات المعبد تلك الفتاة التي دخلت قبيل مقتل ضاحي واختفت، وبصراحة لا أخفي عليك أنا لست مقتنعا أنها تستطيع قتل ضاحي.

نظرت سارة إلى حسام في غيظ ملأ وجهها:

. ولماذا لا تعتقد أنها تستطيع قتله.

. أنا أظن أنها لا تستطيع قتل صرصور يمر بجانبها، امرأة مثلها لا تستطيع التغلب على ضاحي بدنيا لتحيط رقبته برباط وتخنقه.

القتل بالخنق دائما ما يصاحبه اشتباك شديد بالأيدي ولابد أن يكون القاتل أعلى بدنيا بكثير من ضحيته حتى يتمكن منه.

أشعل سيجارته، مستطردا:

. إنها ترتدي فستانا قصيرا لا تستطيع معه أن تلتقط شيئا من الأرض، أخبرني الضابط محمود أنه أخبرها أن المعبد على وشك الإقفال، أجابته أنها لا تريد سوى صورة وستغادر المعبد سريعا، عندها علم إنها مصرية.

ربما شعرت بالخوف مما حدث فغادرت المعبد سريعا.

ظني أنها ربما طالبة أو تابعة لهيئة علمية، لا يمكن أن تأتي فتاة بهذه الملابس للقتل.

كانت سارة بداخلها بركانا يغلي من الغيظ، لا تستطيع إخباره برؤيتها، ولا تستطيع إقناعه دون إخباره.

حديثه منطقي تماما

من يصدق أن فتاة مثلها تستطيع القتل

أو حتى تستطيع قتل صرصور كما قال حسام.

ظلت صامتة، تعيقها أفكارها عن الكلام، وحسام ينظر إليها بتأني في انتظار أي تعقيب على كلامه لكنها لم تتكلم.

تلك المرة مشاعره كانت مختلطة، أفكار عقله كانت تحاول أن تقرأها كما اعتاد وأن يفهم ما تفكر فيه، لكن مشاعر قلبه أعاقته كثيرا.

أوقف السيارة التي استأجرها في شارع رئيسي، بعيدا عن منزل فارس الكائن بشارع جانبي صغير لا يسمح بمرور السيارات.

ترجلا منها، واتجها إلى الشارع الجانبي، أمسك بطفل صغير يلعب، ليسأل عن بيت فارس بالتحديد.

أخبره أن البيت بابه أخضر اللون في نهاية تلك الحارة على اليسار.

وصلا كلاهما وطرقا الباب عدة مرات حتى فتح لهما، أزاحاه فلم يجدا أحدا.

كان الباب من النظام القديم الذي يفتح بواسطة حبل يصل للأدوار العليا، مربوط بلسان متحرك للقفل.

دخلا المنزل، ولم يغلقا الباب حتى وجدا شخصا ينزل السلم بسرعة.

كان الدور الأرضي بسيطا خاليا تقريبا من الأساس، فيما عدا مقعد مستطيل حرك مؤخرا ليغطي خزانا للصرف الصحي له غطاء خشبي كبير الحجم.

أرض طينية غير مبطنة بأي بلاط.

. أهلا بكما، كيف أساعدكما.

حسام: هل أنت فارس؟

تأملهما الرجل متشككا: نعم، ومن أنتم؟

حسام: هل تريد إقناعي أنه لم يخبرك أحد بقدوم الشرطة إليك؟

ارتبك فارس وفضحت ملامح وجهه تمثيله:

. لقد أخبروني، لكن في الحقيقة لم يخبروني أن الشرطة تأتي معها النساء، لذا ظننتكم أغرابا.

حسام: جيد الآن قد عرفت، إنها الدكتورة سارة خبيرة في علم الآثار، هل تمانع لو تجولنا في منزلك، بينما نتحدث.

صمت فارس مستنكرا، لكنه شعر أن ما بيده حيلة وعليه تنفيذ ما يريدانه: أنار أضواء البيت كله.

كان منزله بسيطا وصغيرا، من طابق أرضي وأول علوي وسطح به أنواع شتى من الطيور كعادة أهل القرى.

سمح لهما أن يتفحصا أول طابقين وبقى السطح، الذي قسم إلى عشش صغيرة من البوص، داخلها بعض من طيور الحمام والدجاج.

سارة: ألا تحب تربية الديكة الرومي مثل شقيقتك؟

نظر لها متعجبا: لا أنها باهظة الثمن وتحتاج رعاية كبيرة وزوجتي لا تملك الوقت لها.

حسام: لماذا كان ضاحي على خلاف معكم في آخر أيامه؟

رفع يديه مدافعا عن نفسه: لا أعلم صدقني، لقد اعتزل مجلسنا، وذهبت عدة مرات إلى المعبد مع لطفي وكان يعتزلنا ويتناول طعامه وحيدا، حتى أصدقائه من الحرس كان متجنبا لهم تماما.

حسام: جربت أن تسأله؟

فارس: نعم وسألت لطفي أيضا عدة مرات.

حسام: وماذا قالا؟

فارس: عم ضاحي لم يخبرني بأي شيء لكنه أتى إلى هنا قبل موته بيومين وأعطاني جلبابا كان قد استعاره مني لأن مقاسي يناسب مقاسه، لكنه شكرني دون أن يطيل الكلام ورحل.

أما لطفي فقد أخبرني أنه لا يعرف لماذا هو غاضب، وأنه حاول الحديث معه لكنه رفض الحديث في أي شيء.

حسام: كيف عرفت ضاحي؟

فارس: في الحقيقة كان عم ضاحي يعرف والدي ووالدتي رحمهما الله، وانقطع الاتصال بيننا حتى قابلته مرة في بيت شقيقتي، ومن بعدها كان الرجل ودودا معي وأصبحنا أصدقاء رغم فارق السن.

اتجه حسام إلى الباب بعد أن انتهى مما يريده من فارس.

جلس في السيارة والضيق على وجهه يظهر كالشمس، أدار المفتاح متحدثا إليها:

. هل تعلمين أنه تم خداعنا اليوم؟

. نعم، لكن عليك أن تستمع أولا لما سأخبرك به.

جلستنا في الفندق مع القهوة ليلا ستكون مناسبة جدا، الآن علينا الذهاب مرة أخرى إلى المقابر.

. هل تعتقد أن القاتل أخفاها في المقابر.

. أنا متأكد من ذلك، مستوى ذكاء القاتل الذي نتعامل معه سيرسله بكل تأكيد ليخفي جثث الأطفال في المقابر حتى لا يحاول أحد العثور عليهم.

يعتمد أن التحقيقات والوقت والروتين إذا توصل للمكان ستكون ملامح الأطفال طمست وتحللت، وسط مئات الجثث المتحللة.

علينا فقط أن نجد الأرض المناسبة، التي حفرت حديثا.

الموضوع أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قش.

قال ذلك ليستفزها، عالما كيف سترد عليه، وقد كان.

نظرت إليه بغرور:

. وبالطبع أنت تعتمد علي لإيجاد تلك التربة التي قلبت حديثا؟

رفع كتفيه متحدثا:

. إنها مهنتك.

. لكنني حاولت تعليمك عندما عثرنا على التمثال.

. وما ضرك أن أعدت الدرس مرة أخرى.

. كان يجب أن أعلم أنك لا تستوعب من أول مرة.

ضحك بمرح متناسيا غضبه من القضية:

. في الفترة التي مرت بين القضيتين في الحقيقة افتقدت مجادلاتنا.

ابتسمت خجلا واحمرت وجنتاها نظرت إلى الجهة الأخرى متفادية النظر إليه، لكنه ترك القيادة والطريق وتناسى كل شيء ناظرا إليها، كان قاصدا تلك الكلمات ليرى وقعها عليها.

راهن بما سيحدث وقد كسب الرهان.

وجهها المخضب بالأحمر أنساه كل شيء.

قلبه منجرف في هذا الطريق ولا يريد العودة، ولا يريد التفكير في التزاماته اتجاه تلك الحلقة التي يرتديها في يده.

سرق الزمن منه في لحظات سريعة، وجد نفسه أمام المقابر، ود فقط أن يطول الوقت ولو لدقائق أخرى.

أجبر على العودة إلى واقعه وإلي قضيته.

الحب هو ما يجعلنا نعيش الأحلام متيقظين.

يسرق الوقت لنظن أن الساعات التي مرت هي دقائق قليلة.

نتمنى من القلب أن تدوم تلك اللحظات مدى الحياة، لكننا لا نرى حقيقة أن لحظاتنا السيئة وإخفاقاتنا ومشاكلنا هي التي تعطي قيمة لتلك التي نعيش فيها الحب، بل وتجعلنا نعيشه بكل خواطرنا.

الفصل الثامن والعشرون

أكملت تلك الرائحة المميزة للمقابر صدمة عودته للواقع، ترجل من السيارة وهو يتحدث إليها:

. سأتولى أنا أمر اللحاد، لابد وأنه رأى شيئا، وأنت عليك بالبحث.

تساءلت في دهشة:

. ألن تأتي معي لتتعلم؟

. ولماذا أتعلم وأنت موجودة؟

ثم غمز لها بعينه، وتركها متجها إلى الكوخ الخشبي المتهالك في نهاية المقابر.

في داخلها كانت ترجو أن تساعده وترتاح من البحث بين الأموات، أشعرها المكان بحزن اعتصر قلبها.

نظرت حولها لتدرس المكان جيدا قبل البدء، تلك المرة عليها البحث في تربة رملية، وهي تربة من الصعب اكتشاف إذا ما كانت حفرت حديثا أم لا على خلاف الطينية.

ساقتها قدماها بين المقابر، تقلب نظرها ما بين القبور والفوارغ، مرت بجانب قبر ضاحي، جرح الألم قلبها عندما تذكرت رؤيتها لموته.

كان على حسام أن يعتصر اللحاد ليخرج منه المعلومات، أو ليجعله يخطئ.

طرق كوخه الخشبي مرتين وسمع صوتا بالداخل يجيبه، فتح الباب ليجد أمامه حسام:

. أهلا حضرة الضابط تفضل.

دخل حسام كوخا قديما، به فراش من البوص، وإلي جانبه خزانة صغيرة تدلت منها الملابس، ومنضدة عليها أدوات الشاي، أسفلها وضعت أدوات الحفر التي يستخدمها.

جلس على الفراش، وهو يفحص الغرفة بعينه، وعندما انتهى، نظر له متحدثا:

. نسيت أن أسألك اسمك في مقابلتنا الأولى، وتلك ليست من عاداتي.

. اسمي جعفر في خدمتك.

وأشار بيده إلى منضدة الشاي:

. هل أصنع لك كوبا من الشاي، إنه واجب الضيافة.

رفع حسام يده في رفض:

. شكرا لا أريد.

جلس الرجل مترددا في ارتياب على مقعد بجانب الفراش، منتظرا من حسام أن يتحدث:

لكن حسام طال صمته وهو ينظر مرارا إلى الغرفة، كان يعلم أن الصمت في الأوقات التي تحتاج إلى الحديث هو أكثر ما يزيد الناس إرباكا.

بجانب عينيه ظل يراقب الرجل، حركات يديه المتكررة كانت تدل على زيادة ارتباكه، يبدل قدميه اليمين بدل اليسار.

طالما شبه حسام أسلوبه بالطعام، عليك أن تراقب جيدا لتتأكد أن الطعام قد طاب وأصبح جاهزا للأكل.

أخيرا بعد صمت طويل، تحدث إليه:

. هل دفن أحد قبل ضاحي؟

. الكثيرون قد دفنوا، لكن الحاج حماد رحمه الله كان يسبق ضاحي بيوم واحد.

. وبطريقة غير قانونية.

ارتاب الرجل أكثر:

. إذا كنت تقصد جثامين هؤلاء الأطفال، فهذا لم يحدث أبدا، ربما جاء أحدهم وفعل ذلك في وقت راحتي وعودتي للمنزل.

. هل لديك منزل غير هذا؟

. نعم أنه بالقرية، فأنا لا أحب قضاء كل الوقت هنا، في النهاية الأحياء يحتاجون إلى التحدث إلى أحياء مثلهم.

. وهل غبت عن المكان قبيل دفن ضاحي.

صمت جعفر برهة، مفكرا:

. نعم بت ليلة في منزلي قبل يومين من دفنه.

صمت حسام مرة أخرى، لكن الرجل لم يكن يحتمل فترة صمت أخرى، فتكلم هو:

. سيدي، إذا أراد أحد إخفاء جثمان أو دفنه، يذهب به إلى النيل، أو يدفنه في الناحية الثانية من القرية، إنها مكب نفايات ولن تظهر للجثث رائحة وسط رائحة القمامة.

. وكيف عرفت أنني أتحدث عن هؤلاء الأطفال؟

ظن حسام أن السؤال سيزيد الرجل ارتباكا، لكنه أجاب بهدوء – في الحقيقة ومنذ خطف هؤلاء الأطفال وأنا أتلقى نفس الأسئلة، هنا في الصعيد الموضوع لا يحتاج الكثير من التفكير في الهدف من خطف ثلاثة أطفال، إنها لفتح المقابر.

بينما كان هو يجادل اللحاد، ويعيد بعض الأسئلة، تجولت سارة في المقابر، كان المكان كبيرا ومزدحما بشواهد القبور التي بنيت على الطراز القديم، والمقابر الحديثة التي أصبحت تتكون من غرف.

دارت حول نفسها عدة مرات، تحاول التقاط أي دليل لحفر حديث، لكن المكان كان أكبر مما تصورت ويحتاج تفرغ ليومين كاملين.

ارتفعت فوق صخرة جانبية لعلها تكشف مساحة أكبر، أطالت الوقوف ومعه زاد اليأس، تنهدت في حزن وقررت اللحاق بحسام لعله عرف شيئا.

وقبل أن تلمس قدماها الأرض، لمحت شيئا أبيض حركه الهواء ليواجه ضوء الشمس، أنزلت قدميها على الأرض، واتجهت إلى الكوخ الخشبي، لكن عقلها قادها إلى شيء جنوني.

توقفت للحظة وغيرت اتجاهها لتركض إلى ناحية ذلك الشيء الأبيض، غير مبالية ببعض الأطفال الذين أشاروا إليها ضاحكين.

تسمرت قدماها عندما شاهدت ما كان يسطع ضوءه تحت الشمس، ثم نظرت إلى المنطقة المحيطة بها وجدتها فارغة تماما.

شعرت بالصدمة وهي تصرخ:

. يا الله

الفصل التاسع والعشرون

ظل حسام على حاله، يسأل وجعفر يجيب:

. منذ متى وأنت تعمل لحادا؟

. توقفت عن حساب الأعوام، لكنها مهنة ورثتها عن أبي.

أشعل حسام سيجارة ليكسر الملل، واستطرد:

. هل يساعدك أحد في عملك؟

ظهر السأم على وجه اللحاد مجيبا:

. لا يا سيدي، أنا فقط.

فجأة اقتحمت سارة الكوخ، أزاحت الباب محدثة صوتا عاليا، نهض على أثره حسام متنبها.

كانت ملابسها غارقة في الأتربة، ويداها ملطختان ببودرة بيضاء، وإحداهما تحمل جوالا أبيض.

صرخت في جعفر بعصبية شديدة:

. من أين أتى هذا؟

كان الرجل في حالة فزع شديدة، نظر إليها خائفا ثم نظر إلى حسام، محاولا أن يجد مخرجا للسؤال، لكن حسام أعاد السؤال عليه بصوت عال ليزيد من إرهابه:

. هل سمعتها، أجب على السؤال؟

فما كان من جعفر أن فتح الشباك وراءه بسرعة، محاولا القفز والهرب، لكن حسام تنبه له وتصرف سريعا، فقفز عليه وأمسك به أرضا.

صرخ الرجل بأسلوب متكرر:

. أقسم لك أنا بريء

أنا لا أعرف شيئا

لم أقتل أحدا

أما حسام لم يعطه أي انتباه، أخرج هاتفه وطلب الشرطة مبلغا لهم بما وجده، ثم كلم إبراهيم ليحضر إليه.

أمسك الرجل جيدا، أجلسه عل الكرسي وربطه جيدا، وهو ما زال يصرخ: أنا لا أعرف شيئا.

خطف حسام الجوال الأبيض بعصبية من يدها، ورفعه أمام جعفر ليريه إياه:

. جير حي، هل كنت تستغفلنا، أقسم أنني سأريك ما لم تره.

لم يمر الكثير من الوقت لأن المبلغ كان ضابط شرطة، وقد أتت قوة من القسم، استلموا جعفر وقيدوه بأصفاد حديدية.

بعدها طلب حسام أن يتم حفر المنطقة التي وجدوا بها جوال الجير الحي، فأتت الشرطة بثلاثة أشخاص شرعوا سريعا في حفر تلك المنطقة.

وقف حسام وسارة كاشفين للمكان، وعلي وجوههم الغضب واليأس.

الجير الحي يستخدم في عدة استخدامات معروفة، لكن أكثر الاستخدامات انحطاطا هي تسريع تحلل الجثث، فهو يقوم بتسريع عملية التحلل من الجلد إلى العظام، فلا يتبقى شيء.

. هل تعتقدين أننا يمكننا أن نجد شيئا؟

قالها حسام وهو يرجو منها أن تعطيه بعض الأمل

. في الحقيقة لا.

تنهدت وصمتت لبضع ثوان، لتكمل:

. إن الأطفال كتلتهم الجسمية صغيرة، والجير يحلل جثث البالغين خلال يومين، والأطفال قتلوا من قرابة الأسبوع.

أخرج سيجارة أخرى بغضب، أشعلها ونفث دخانها، ليكمل باحثا عن قطرة أمل:

. ولو حتى بعض العظام؟

. حتى أن وجدنا العظام رغم أن ذلك صعب، كيف سنثبت إنها للأطفال الثلاثة الذين قتلوا في المعبد.

. هذا إن كانوا هم فقط من تم إذابة جثثهم، في الغالب أن المكان هنا يخفي الكثير من الجثث التي اختفت تماما.

. كل شيء في تلك الجريمة منظم جدا ومخطط، وتلك الفعلة لشخص لديه خبرة ويفهم تماما ما يفعله.

تنهد حسام بضيق وهو يطفئ سيجارته بطرف حذائه:

. أعلم، هنا يعرفون كيف يضللون الشرطة خاصة في قضايا الآثار.

أتى إبراهيم حاملا بعض الأخبار:

. كل التحريات التي طلبتها وجدتها جاهزة في قسم الشرطة.

ابتسم حسام بسخرية، تناول الملف من يد إبراهيم قلب فيه بإهمال، وأعاده له متحدثا بصوت منخفض، حريصا ألا يسمعه أحد:

. إبراهيم، أريد أن ترتدي جلبابا صعيديا، وتضع شاربا وعمة بلدي، تخفي هيئتك تماما، وتجلس هنا بين الناس وعلى القهوة تستمع لما يقولونه.

الأكيد أن القضية الآن يتداولها الكبير والصغير في القرية، اسمع ما يقولونه الناس، لكن احرص ألا يعرفك أحد.

. كما تأمر.

غادر إبراهيم مسرعا، لينفذ ما أمره به حسام، إلا أن سارة كانت محتارة كثيرا.

تشابكت القضية، وتعددت خيوطها، هي على يقين أنها لا تستطيع الوقوف أمام تلك الفتاة التي قتلت ضاحي، لكنها تستطيع الانتقام ممن ساعدها.

هناك شخص ما أخبرها أن ضاحي حامل للمفتاح، وسهل لها المهمة بقتل الأطفال الثلاثة كقرابين للوصول إلى الحارس.

راجعت في عقلها كل من تحدثوا معهم من الحرس أصدقاء ضاحي، لم تجد فيهم من تؤهله شخصيته لقتل طفل، رغم أن شكوكها لم تنضب حولهم.

أيقظها حسام من تفكيرها عندما نفخ بعصبية قائلا:

. هيا بنا، سأذهب أنا إلى القسم لاستجواب ذلك المدعو جعفر، لكني سأقلك أولا إلى الفندق، وجودنا هنا ليس له قيمة سواء عثرنا على الأطفال أم لا، نحن نعلم يقينا أنهم قتلوا ودفنوا.

شعرت سارة بالحيرة متسائلة:

. ولماذا لا أذهب معك للتحقيق؟

نظر لها محاولا صياغة كلماته بطريقة لا تجرحها:

. في الحقيقة، أنا سأذهب إلى قسم صغير وليس إلى مديرية الأمن، وهناك يمكنهم أن يضايقوك بنظراتهم.

صمتت في ضيق، تريد الذهاب معه ومشاهدة التحقيق، لكنها تعلم أنه على حق.

استطرد حديثه:

. أقسم أنني سأخبرك بكل شيء، هل أنتِ راضية الآن؟

زال غضبها، ليس لأنه سيخبرها بكل شيء، بل شعرت أنه يريد إرضاءها بكل الطرق، ويحترم رغبتها حتى وأن كان شق التحقيقات لا يندرج ضمن وظيفتها.

الفصل الثلاثون

وقف اللواء منصور مستندا على الحائط، يدخن سيجارته بغضب، عندما فتحت بوابة المكتب ودلف إليها دكتور توفيق.

جلس على أقرب مقعد يتنفس بصعوبة، ولم ينتظر حتى تهدأ أنفاسه لكنه سارع بسؤال صديقه:

. ماذا حدث يا منصور؟ ما الأمر الطارئ الذي صممت أن أتي لأجله سريعا؟

أطفأ اللواء منصور سيجارته بعصبية في المطفأة متحدثا:

. كاميرات الفندق صورتك وأنت تتجه إلى غرفة تلك السائحة، وقريبا سيصدر أمر باستدعائك والتحقيق معك.

ظهر الغضب واليأس على ملامح دكتور توفيق، لكنه ظل صامتا، فأكمل منصور:

. عليك الذهاب، وسأخبرك بما تقوله بالضبط.

. لقد أوقع بي مرة أخرى يا منصور.

. لا تخف، لست مشتبها به، حالتك الصحية هي حظك السعيد، تلك السائحة أصيبت بإصابات بالغة، منها أنها قذفت في الهواء وسقطت من ارتفاع فتكسرت بعض عظامها، والأعمى يمكنه أن يقر ببراءتك بسبب حالتك الصحية.

قبل أن يكمل حديثة، رن حاسوب المكتبة عدة مرات، اتجه إليه منصور ليرى من المتحدث.

كان الدكتور جلال يطلب محادثتهم فيديو عبر الحاسب، قال منصور بصوت عال:

. إنه جلال

ثم ضغط فتح المحادثة، ليظهر أمامهم دكتور جلال وعلى وجهه الكثير من علامات الحماس، هتف لهم:

. أهلا بكم

لكنه لم ير إلا منصور أمامه، فاستأنف حديثه:

. أين توفيق؟

رفع منصور يده اتجاه توفيق قائلا:

. إنه هنا.

اتجه توفيق ليجلس أمام شاشة الحاسوب، وخلال ذلك تنبه منصور أن جلال في متحف ما، فيسأله:

. أين أنت يا جلال؟ وماذا تفعل؟

بدا على جلال الحماسة الشديدة وهو يتحدث:

. لن تصدقا، لدي أخبار جيدة، وأخبارا ليست بجيدة، لكنني متفائل.

ابتسم منصور للأسلوب الذي تكلم به جلال، فقد كان يتخبط في كلماته كلما وجد شيئا، تلك كانت عادته، لاحظ توفيق أن في خلفية الصورة قارب مصري مزين بكتابات هيروغليفية، فكرر سؤال منصور:

. أين أنت؟

جلال: لقد اتصل بي أحد تلاميذي واصفا بعض الأشياء الغريبة في قارب يستعدون لعرضه في الأقصر.

قال لي أن القارب قد صمم بطريقة عبقرية بحيث إنه إذا وضع في مياه النيل سيتجه إلى مكان ما.

سافرت إلى الأقصر لأرى ما إذا كان حقيقيا ما يقوله أم لا.

لن تتخيلوا..

القارب قطعة رائعة بالفعل، وقد صمم خصيصا ليقود نفسه كما أخبرني تلميذي إلى جانب تمثال من المرمر في منتهى الإبداع لإيزيس.

عندما قرأت الكتابات على القارب والتمثال، اعتقد اعتقادا كبيرا أن ذلك القارب صمم ليقود الكهنة في الاحتفالات إلى مقبرة أوزوريس.

رفع منصور يده ليوقفه عن الكلام، وتحدث:

. كيف يكون لإله مقبرة؟

جلال: في الغالب إنها رمزية، المشكلة ليست في ذلك، المشكلة أن وزارة الآثار لن تسمح لنا أبدا أن نضع القارب في الماء.

منصور: ذلك القارب الذي اكتشفته حفيدة توفيق منذ عدة شهور، أليس كذلك؟

جلال: إنه هو، تحفة فنية عبقرية، لكن للأسف..

صمت قليلا، واستطرد:

. لن نستطيع أبدا استخدامه ومعرفة المكان الذي يمكن أن يقودنا إليه.

ظل توفيق صامتا يحلل في عقله تلك المعلومات.

جلال مستطردا: أنا لم أر إبداعا كهذا في حياتي.

ثم رفع بين يديه بحرص شديد تمثال إيزيس، وأكمل: لكن الشيء الجيد هو التمثال، إنه غريب للغاية، قاعدته تتناسب تماما مع قاعدة في مقدمة القارب، تلك القاعدة تتحكم بدفة القيادة.

رفع قاعدة التمثال وأراهم ما يقصده.

. انظروا إلى تلك الكلمات بالهيروغليفية.

وأشار بإصبعه إلى كلمات منحوتة على قاعدة التمثال:

. إنها كلمات تبدو عادية، لكنها مزدوجة المعاني.

تكلم توفيق أخيرا:

. اقرأ ما كتب يا جلال.

تعجب منصور متحدثا:

. ألم تخبرك حفيدتك بذلك الاكتشاف؟

تذكر توفيق سريعا ما حدث بعد عودتها من اضطراره لإخبارها بمقتل جدتها ومهمة البحث عن أوراقها، فأجاب سريعا:

. لم يكن لدينا وقت يا منصور.

قاطعهم جلال بحماسة كبيرة في صوته:

. أعتقد أن الجملة تقول "إيزيس ترشد.. تضرب بجناحيها الهواء.. لتنير الظلام وتشق الطريق"

هذا كل ما كتب.

صمت توفيق لبرهة مفكرا، ثم تحدث:

. إنها مزدوجة المعاني بالفعل، كلمات عادية تمدح بها الآلهة، لكن أن طبقتها على ما تقول إنك وجدته في القارب، ذلك يعني أن التمثال هو مفتاح.

تلك الجملة التي نقشت غريبة بعض الشيء.

نظر له منصور متسائلا:

. ماذا تقصد؟

تنهد في حيرة:

. أقصد أن المقطع الأول يرتبط بكشف غرض التمثال في القارب، لكن المقطع الثاني أعتقد بشكل كبير أنه يرتبط بشيء آخر علينا اكتشافه.

. وكيف سنفعل ذلك، هل ستسافر إلى الأقصر.

توفيق: لا، ليس لدينا وقت للسفر، كما أننا لا أمل لدينا لاستخدام القارب، فلن نترك التمثال أيضا، في تخميني سيتم استبداله بنسخة مزورة عندما يعلم عدونا به، كما حدث في مخطوطات كثر.

ثم نظر إلى الشاشة حيث جلال وحدثه:

. أنت تعلم ما عليك فعله.

هز جلال رأسه موافقا:

. غدا ليلا سأكون بالمكتبة ومعي التمثال.

ثم أغلق المكالمة سريعا، قبل أن يسأله منصور، على ما ينوي فعله، فاتجه بنظره إلى توفيق ليسأله:

. ماذا كنتما تقصدان بحديثكما؟

. سيقوم باستنساخ التمثال، يترك النسخة ويأتي لنا بالأصل لندرسه هنا ونحفظه ليكون بأمان.

ظهرت علامات الدهشة على منصور:

. هل تمزح يا توفيق، إننا لم نخرج بعد من قضية القتل، وأنت ترتب ليتم استنساخ تمثال وتهريبه من المتحف.

. لقد فعلناها كثيرا من قبل، ما المختلف الآن؟

تكلم منصور بحدة:

. المختلف الآن أن عدونا أصبح يتربص بنا، ليس فقط عن طريق تابعيه وقوته، بل عن طريق الشرطة أيضا.

لقد أصبح أكثر ذكاء ليستخدم أدواتنا التي تساعدنا ضدنا.

. لدي شعور قوي أن التمثال مهم للغاية، ويحمل أسرارا تحتاج لدراسة.

تنهد في حيرة، عندما رن هاتف توفيق برقم دولي، فتح المكالمة متوقعا أن المتحدث يتكلم بلغة إنجليزية وقد كان.

تحدث لمدة خمس دقائق، ثم أغلق بعدها الهاتف والتعجب والحيرة غيرا ملامح وجهه.

لاحظ منصور ذلك التغيير فسأله:

. ماذا حدث يا توفيق؟

. تلك السائحة التي قتلت، قد أوصت أن تبعث بمذكراتها لي إذا حدث لها شيء.

. هل تعتقد أن..

قاطعه توفيق:

. نعم، أعتقد يا منصور.

الفصل الحادي والثلاثون

وقف في مكتبه الأسطوري أمام مرآة ضخمة تهتز صورتها كمياه البحر، انتظر قليلا حتى ظهرت أمامه صورة كاهن عجوز للغاية، يرتدي جلد النمر.

ذلك الوجه الذي لن تنساه سارة أبدا.

ابتسم بسخرية عند رؤيته الكاهن، وطرق بعصاه طرقة خفيفة على الأرض، فانتبه الكاهن له متحدثا:

. أنت مرة أخرى؟

. ومن سواي سيزعجك ويقلق روحك يا أبي المبجل رئيس الكهنة.

. ألم تسأم بعد، لن تحصل عليه يا "حفاو"

. أنا اقتربت بهذا القدر

رفع يديه مضيقا أصبعيه لقدر ضئيل.

ابتسم الكاهن بدوره، ليرد عليه:

. وطالما اقتربت بهذا القدر لماذا تكلف نفسك وتستدعيني من قلب الزمن.

. لأخبرك بالطبع أنني أعرف ما تفكر به، وأعرف ماذا فعلت، وأعرف معاونيك الذين سيلحقون بك قريبا.

طريقي التهلكة يا أبي، وأنت وضعتهم في طريقي.

هل كنت تظن بعد كل تلك الخبرة التي جنيتها آلاف الأعوام سأهزم من بعض معاونيك.

. أنت لا تستطيع غلبة القادم، ثق بي أنها البداية الأخيرة للقصة ابتسم "حفاو" مرة أخرى:

. بداياتك السابقة كلها انتهت بالفشل.

. عشت أقل من مائة عام وجنيت من الحكمة بالقدر الذي يفوقك كثيرا، والذي يجعلني أخبرك بثقة أنه لا وجود للفشل.

كل مرة لم تنجح محاولاتي، لم تفشل أيضا، لأنني تعلمت منها.

أنه خطأي وسأصححه.

. وستفشل مرة أخرى يا أبي، لكن تلك المرة ستكون الأخيرة لك، لأنني سأكون قد حصلت على ما أريد.

ثم أشار بيده إلى المرآة، فاضطرب وجهها لتختفي صورة الكاهن وتتحول إلى اللون الأسود.

تجول في مكتبه، محاولا محو علامات القلق التي ظهرت على وجهه بعد حديثه مع رئيس الكهنة.

طرق الباب ثم دخلت إليه مساعدته ليكتارا.

انحنت أمامه مقدمة له التحية.

لم يتكلم ويطلب منها أن تخبره بشيء، الثقة التي تكلم بها الكاهن معه، نجحت في أن تزرع قلقا حقيقيا بداخله، وكان عليه أن يفكر سريعا في تسريع خطته، والانتهاء من كل شيء طول صمته اضطر ليكتارا للحديث:

. معلمي فعلت ما أمرت به

تنهد في ضيق واتجه إلى مقعد مكتبه وجلس متحدثا:

. ماذا لديك يا ليكتارا؟

. قمت بزرع العديد من الجواسيس لتصلني كافة الأخبار، المال سيد البشر.

كما أنني فعلت ما أمرتني به مع ذلك المدعو حسام، فلن يعيش أكثر من شهرين.

مساعدي أخبرني إنهم يحققون على نطاق واسع في وفاة ضاحي، وابنة توفيق اكتشفت أمر الأضحية البشرية التي قدمت، وبالطبع ربطت كل شيء ببعضه.

التفت لها غاضبا:

. وكيف عرفت بذلك الأمر؟ هل تحدث تابعك لأحد؟

. لا أبدا، أنا أضمن وأثق في تابعي لكنها اكتشفت بطريقة ما

. ما دامت اكتشفت الأضحية، ستكتشف تابعك، عليك محو كل الآثار التي تؤدي إلينا، لا أريد من بشري أن يتفوه بشيء.

. اعتبره قد حدث سيدي.

تابع بحزم:

. أريد مضايقة تلك الفتاة، يخالجني شعور أنها تخبئ أشياء لا نعلمها، ضعها في المواجهة دائما مع الحراس، أشعرها بالارتباك، استنفدي قوتها.

. وماذا عن توفيق وأعضاء الجماعة؟

نهض "حفاو" من مقعده قائلا في ثقة:

. أيامه قد ولت، سأحطم كل شيء على رؤوسهم، وتلك المكتبة ستغدو أطلالا، ذكرى يتداولونها في حسرة.

علينا فقط تحطيم تعاويذ الحماية، ولن نحطمها إلا بتقديم القرابين أيضا.

. ما تأمر به سأقدمه قربانا.

. القربان تلك المرة سأقدمه بنفسي.

الفصل الثاني والثلاثون

جلست في غرفتها تقلب في حاسوبها، وكلما حاولت التركيز، تاهت مرة أخرى في ذكريات رؤيتها لذلك الرجل الذي قدم الأطفال قربانا، تمنت لو فهمت ما كان يفعله أسرع قليلا.

ربما ركضت ورأت وجهه، ووفرت عليهم كل هذا.

كلما سألت نفسها: لماذا على أن أخوض غمار كل هذا؟

أتاها الجواب من عقلها وكأن شخصا وضعه هناك

"كي تتعلمي"

"العلم والخبرة وحنكة التصرف لا تأتي بسهولة"

تهدت وهي تتذكر تلك الرؤية للمرة العشرين في نفس اليوم

هناك شيء ما في هذا الرجل

كان يرفع الأجولة التي حملت الأطفال بصعوبة، كما أن مشيته كانت بطيئة.

ربما كان عاجزا..

أو أنه متقدم في السن..

تفاصيل صغيرة هي من تكشف القضية، هذا ما تعلمته سابقا من حسام.

لقد ذهب للتحقيق مع جعفر، وإبراهيم ذهب ليجمع المعلومات من أهل القرية، وهي تجلس هنا جلسة لا طائل لها.

كل ما جمعته عن تلك البوابة تكهنات.

ربما للبوابة وظيفة مختلفة تماما.

فكرت في ذلك الشخص الذي حلمت به، وكان يعادي كبير الكهنة ويتحداه للحصول على الكتاب.

هل يمكن أن يكون هو من نحاربه؟

هل يمكن أن يكون قد عاش كل تلك الأعوام؟

أم أن تابعيه من يكملون ما بدأه؟

أسئلة حملت لها كل اليأس، لأنها لا تعرف أين تبحث عن الإجابة.

وبين كل تلك الأفكار، لاحظت أن الدنيا قد أظلمت حولها، ظلام غير طبيعي، وساد صمت قاتل في أرجاء غرفتها.

نهضت من فراشها ببطء، وهي تشعر شعورا قد مر عليها من قبل، عندما كانت وحيدة في غرفتها بالأقصر، وعندما هاجمها ذلك الكائن الناري في المنزل المحترق بالقرية.

تسلل الخوف إليها، خاصة أن القلادة لم تساعدها كثيرا كما فعلت في القضية الأولى.

انطفأ المصباح الصغير الأخير في غرفتها وساد ظلام تام، تحركت مسرعة لتصل إلى مفتاح النور لتحاول إنارته، لكنها شعرت بقوة أطاحت بها لتصطدم بحائط غرفتها.

تأوهت بصوت عال بعد جرعة ألم مزقت كتفها، وفجأة نور انتشر بالغرفة لكنه لم يكن من مصباح، بل كان من كائن ناري آخر، لكنه كان أكثر ضخامة مما واجهته من قبل.

وقفت أمامه بصعوبة، وهي تفكر أنه لو كان إنسانا عاديا لأبرحته ضربا، لكنها لا تستطيع لمس ذلك المسخ وإلا ستحترق.

صرخ بصوت عال ومزعج جدا، فانفجر كل الزجاج والمرايا الموجودة بغرفتها.

ثم أمسك بها من كتفيها وقذفها بعنف للجهة الأخرى، فاصطدمت بقوة في الحائط، وسالت الدماء من فمها وأعلى رأسها.

إحساس قاتل بالألم يفتت عظامها، أصبحت رؤيتها مزدوجة بسبب كدمة رأسها التي تنزف، وقف الكائن قليلا متأملا إياها ثم تكلم بالهيروغليفية وبأسلوب ساخر:

. هل كنت تعتقدين أنني مثل الذين واجهتهم من قبل؟

أين هي قوتك الآن؟

لا تخافي لن أقتلك

ليس بعد

لقد أرسلت لألهو معك قليلا

ثم باغتها بضربة قوية في معدتها، صرخت على إثرها بصوت عال، وانحنت على الأرض متمنية أن تنقذها القلادة، لكن لا شيء..

زاد النزيف من فمها، وقبل أن ترفع رأسها مرة أخرى لتواجهه، أمسك بها من رقبتها ورفعها في الهواء، ناظرا إلى عينيها.

شعرت بالاختناق كما أن يده النارية كانت تحرق جلدها ببطء، كمن وضع يده في النيران المشتعلة دون قدرة على إبعادها.

تكلم بصوت هامس:

. تذكريني كثيرا بجدتك، كانت عنيدة مثلك، اعتقدت أنها تستطيع أن تتحدانا.

مصيرك سيكون مثلها قريبا جدا.

ثم قذف بها مرة أخرى إلى الحائط فاصطدمت بعنف، وشعرت أنها تنهار وتفقد الوعي، وقبل أن تفقده سمعت صوت هاتفها يرن.

حتى استيقظت..

كانت غفوة قصيرة هي كل ما حدث.

لكنها شعرت بآلام حقيقية

وجدت بقعة من الماء، فمسحت تحت عينها لتجد دموعا، فقد كانت تبكي وهي غافية.

تنهت مرة أخرى إلى صوت هاتفها

ردت فوجدته حسام يطلب منها النزول للضرورة.

تنهدت وهي تتذكر تلك الآلام مرة أخرى، يبدو أن تلك الكوابيس لن تنتهي.

عرفت أنها ستكون وسيلة ضغط مستقبلية، قلة النوم تدمر الإنسان وتجعله غير عقلاني، لا يستطيع اتخاذ قرارات منطقية.

ارتدت ملابسها سريعا، وتركت غرفتها متجهة إلى حديقة الفندق، حيث وجدت حسام جالسا على منضدة وقد أحرق بالفعل ثلاث سجائر، والرابعة مازالت في فمه.

احتل الغضب كل قسمات وجهه، يزفر الدخان بعصبية واضحة، خمنت أن التحقيق لم يجر كما تمنى، أو أن جعفر رفض إخباره بشيء.

جلست بمقعد مواجه له، وتكلمت بصوت هادئ:

. ماذا حدث؟ هل تكلم جعفر؟

قتل سيجارته في المطفأة، ونظر لها متحدثا وشيء من الصدمة بوجهه:

. لقد قتل جعفر.

ردت بدهشة وفي ذهول:

. ماذا؟ كيف حدث هذا؟

. وصلت القسم وطلبت رؤيته، وعندما ذهبت مع أمين الشرطة لأجلبه بنفسي، وجدته غارقا في دمائه. لقد ذبح.

. كيف هذا؟

لم يمر الكثير من الوقت على وجوده في القسم

وكيف يذبح في قسم شرطة مؤمن؟

. هذا هو السؤال

كيف يذبح في قسم شرطة مؤمن؟

أما السؤال الأهم

هل ذبح بسبب قضيتنا أم بسبب قضايا أخرى؟

هزت رأسها في غير فهم:

. ماذا تقصد بقضايا أخرى؟

أشعل سيجارته الخامسة متمنيا أن تطفأ الغيظ المشتعل في صدره، نظر قليلا إلى الأشجار الكائنة بالحديقة وراءه وهو يفكر، ثم حدثها:

. الحقيقة المتأكد منها أن جعفر لم يدفن فقط الثلاثة أطفال، بل كان محترفا في إخفاء الجثث، والكثيرون بالتأكيد تعاملوا معه، قتلة في جرائم الثأر والشرف وربما الخلافات المالية وغيرها، بمعنى آخر كان أجيرا يدفع له ليخفي الجثة.

لذا في اعتقادي هو يحمل أسرار كثيرين ربما من علية القوم هنا، وعندما قبض عليه خوفا من اعترافه تمت تصفيته.

. يا الله، وكيف سنعرف ذلك؟

. ربما نعرف، وربما لا، لكن الأكيد أن جعفر لم يقتل الأطفال، ولم يقتل ضاحي، وهذا هو لب القضية.

نحن نبحث عن قاتل ضاحي والثلاثة أطفال، وربما سارق ذلك القرص الذي تتحدثين عنه.

. لكن جعفر كان سيساعدنا كثيرا.

هز رأسه بعلامة الرفض:

. بالعكس لم أكن لأعول عليه كثيرا، هنا في الصعيد لا يتعاملون مع الشرطة ولا يعترفون أبدا على شركائهم وخصومهم.

عليك إثبات التهمة دون اعتراف، أو إجبارهم بطرق ملتوية.

. وما العمل الآن؟

. سأصعد إلى غرفتي لأصفي ذهني بحمام ساخن، وانتظر تحريات إبراهيم.

تفرقا، وصعدت هي إلى غرفتها مجددا.

أما هو فقد سارع إلى غرفته وألقى بنفسه تحت المياه الساخنة، مفكرا في تلك القضية.

لأول مرة يشعر باليأس في قضية وكلت إليه، ربما بسبب تعقيدها، وذكاء خصمه.

عليه أن يضع في حسبانه أن جعفر قتل بسبب قضية الأطفال وضاحي، وعليه أن يعترف أيضا بينه وبين نفسه أنه إذا صح ذلك فهذا

معناه أنه يواجه خصما شديد الذكاء، غطى آثاره بحرفية، وسبقهم في التحقيق بخطوات.

لكنه توقف فجأة عن التفكير، عندما لمح نقاط حمراء من الدماء تتساقط عند أقدامه.

أغلق الماء سريعا، واتجه إلى المرآة ، ليجد أنفه يسيل منه الدماء بغزارة، اختطف قطعة قماش وحاول وقف النزيف، حتى استغرقه الأمر خمس دقائق كاملة.

توقف النزيف أخيرا..

لكن القلق اجتاح عقله

ماذا أصابني؟

الأمر ليس صداعا قاتلا بل نزيف دماء.

قرر بعد انتهاء تلك القضية أن يذهب خلسة للطبيب ليفحص نفسه.

الفصل الثالث والثلاثون

وقف في المكتبة متأملا تلك الأرفف الكثيرة، التي احتوت على أسطوانات موسيقية كثيرة، ينظر بحسرة إلى هذا الكم الهائل من الفن أمامه، ساقته قدمه إلى الألفينيات، تحولت أمامه الأرفف المزدحمة إلى فارغة، كل عام أمامه يحتوي على قرص أو اثنين أو ثلاثة على الأكثر.

توقف أمام عام لم يجد أمامه أي شيء، شعر بالغرابة والدهشة فكر أنه ربما حارس المكتبة نسي أن يضع أقراصا موسيقية لهذا العام، رغم أن ذلك ليس من شيمه أبدا.

طالما كانت الموسيقى والأغاني وسيلة يزيل بها الضغط العصبي والتوتر، ويصفي بها ذهنه.

اعتقد دائما أن تلك النغمات المعزوفة كموجات البحر تأخذه صعودا وهبوطا بإحساس جارف لتنسيه مرارة الحياة.

لمح حارس المكتبة بجلبابه الكتاني الأبيض الذي لا يرتدي غيره يمر بجانبه، فناداه.

توقف واتجه إليه بوجهه الصارم الذي طالما اعتاد عليه توفيق وأعضاء المكتبة الآخرون، نظر إليه صامتا في انتظار أن يتكلم توفيق.

. لماذا هذا العام فارغ من الموسيقى؟

قال ونظرة حزن عميقة بدت في عينيه:

. سيدي إذا كنت لم تلاحظ، فقد انتهت الموسيقى في مصر؟

اندهش توفيق من ردة فعله، لكنه استطرد:

. إذا أردت أن تسمع شيئا قيما يريح روحك، ارجع بالزمن للوراء.

ثم تركه دون انتظار رد وغادر.

لم يشعر توفيق بالغرابة من أسلوبه، لكن ذلك الحزن الذي ظهر في عيني الحارس انتقل إليه ليزيد حمله.

بعد زوجته توقف عن سماع الأغاني، وتذوق الفنون، نسى كل مباهج الحياة، في سبيل عمله ورسالته.

عاد إلى الوراء متأملا أغاني الثمانينيات، يقرأ العناوين حتى سقطت عينيه على أسطوانة لنجاة الصغيرة، اختطفها بلهفة أكثر مما فعل مع القرص.

جرى مسرعا إلى مشغل الأقراص ووضع الأسطوانة، وصدعت الموسيقى في كل أرجاء المكتبة.

ثم تخلله صوت نجاة المميز، جلس توفيق على مقعد بجانب مشغل الأقراص مستمعا:

عيون القلب.. سهرانة ما بتنامش

لا أنا صاحية.. ولا نايمة

مبقدرش

أخذته تلك الأغنية عبر الزمن لأول مرة سمعها، كان في السيارة مع زوجته منى.

حينما أخبرته أنهما ذاهبان لشراء بعض الكتب من مكتبة قديمة بميدان طلعت حرب، وبعد مناقشات كثيرة بينهما أخبرته أنها تريده أن يسمع أغنية نجاة الجديدة.

. أحضرت لك أغنية جديدة؟

دكتور توفيق وهو مبتسم:

. نجاة مرة أخرى.

. نعم، ومن غيرها.

رفع توفيق حاجبيه متعجبا:

. لقد أصبحت لا تستمعين إلا لها.

غمزت له بعينها في مرح:

. إنها لك

ومدت يدها لتشغل كاسيت السيارة:

وعلا صوت الأغنية في السيارة، ومنى تتغنى معها بابتسامة وفرح ظاهرين على وجهها وهي تنظر إلى توفيق قاصدة له بكلماتها:

حبيبي آة من حبيبي

عليه أحلى ابتسامة

لما بتضحك عيونه

بقول يلا السلامة

لما يسلم عليا

ولا يقولي كلام

عايزة ورا كل كلمة

أقوله يا سلام

استمرت في غناء الأغنية وهي تنظر إليه، تمنى في تلك اللحظة أن يتوقف الزمن.

أن يستمر غناؤها له الدهر كله

أن تبقي تلك الابتسامة على وجهها وذلك الفرح لا يبرح مكانه لكنهما وصلا إلى ميدان طلعت حرب، ركنت في شارع جانبي، وأطفأت الكاسيت، ترجلا من السيارة، وقادته في شارع جانبي آخر يكاد يخلو من المارة.

قطعت نصف الشارع وهي تتحدث إليه:

. ما سأريك إياه يا توفيق لا يمكن حتى أن تعيشه في أحلامك، إنها مكتبة أنا أثق أنك ستقيم فيها بين الكتب.

أعدك أنك لن تصدق ما ستراه

إنها ثروة مصر التاريخية بكل معاني الكلمة

كل شيء في تلك المكتبة هو كنز.

دهش توفيق من ثقتها ليرد عليها:

. عزيزتي لم أسمع بمكتبة تحمل تلك المواصفات، وفي شارع مجهول ضيق خالي من المارة.

ابتسمت له مرة أخرى، وقالت بمرح:

. أنت لا تصدق أي شيء أبدا إلا إذا رأيت بأم عينيك.

وغمزت له، ثم دخلت مبنى قديم، تبعها ليرى مكتبة صغيرة جدا، بها بعض الكتب العتيقة على الأرفف، لكنها لا ينطبق عليها أبدا وصف زوجته، فقرر في ذهنه أن يعاقبها بدفع ثمن وجبة غداء جراء مبالغتها.

لكنه توقف عن التفكير تماما وهو يرى زوجته تخرج عملة ذهبية تضعها في صندوق صغير، لتنير جوانبه بحروف هيروغليفية، ثم

كشفت عن ساعدها لحارس المكتبة، لتريه وشما لعين حورس ظهر لثوان ثم اختفى.

نهض الرجل مشيرا إليهم باتباعه.

كان توفيق في حالة ذهول..

متى وشمت زوجته ذلك الوشم، وكيف لم يره من قبل؟

وما تلك العملة الذهبية التي وضعتها في الصندوق.

لكن ما كان في انتظاره أكثر إبهارا.

عندما رفع الرجل يده على الحائط، فأنارت الحائط حروف هيروغليفية ثم انفتح الحائط ليكشف خلفه عن مكتبة ضخمة للغاية، كما قالت زوجته.

إنها لم تكن تبالغ أبدا.

حجم المكتبة يخبره أنه من المستحيل أن تكون تلك المكتبة كائنة بالمبنى القديم الذي دلف إليه في البداية.

وقف مشدوها، ينظر إلى المناضد العتيقة شديدة الجمال، أرفف الكتب اللانهائية، القطع الأثرية المحفوظة في صناديق ذهبية، وغيرها من الأشياء التي لا يستطيع وصفها من جمالها وندرتها.

عاد بنظره إلى زوجته، وعيناه تحمل سؤالا فهمت كينونته، لتجيبه:

. إنها كنز مصر، هنا كل شيء تقريبا، كل ما يمكنك أن تحلم به من العلم، تلك المكتبة عمرها تقريبا سبعة آلاف عام، ميراث أجدادنا.

. هل تقصدين مكتبة الإسكندرية؟

. عزيزي إن تلك المكتبة أقدم كثيرا من مكتبة الإسكندرية وأكثر قيمة، إنها مكتبة أنشأها الكهنة قديما، ليخزنوا فيها كل شيء يتعلق بمصر، وأسموها "برعنخ".

هز رأسه توفيق في غير فهم، فقد رأى السحر بعينه منذ قليل، ولا يستطيع عقله تدارك ما رآه الآن.

أجلسته منى على مقعد وجلست على المقعد المجاور له، وظلت تنظر له قليلا حتى يستجمع عقله وتستطيع أن تشرح له.

في الحقيقة بدأت تلك القصة عندما لاحظت عدة نقوش تتكلم عن "برعنخ" بالطبع أن تعلم أنها تعني بيت الحياة.

في البداية اعتقدت كما اعتقد الكثيرون أنه يتحدث بصفة عامة على مكتبات متعددة أنشئت في عصور مختلفة في المعابد، لكن ما حدث غير رأي تماما يا توفيق.

تلك البعثة التي كنت أعمل عليها العام الفائت في مقابر النبلاء في الأقصر، عثرنا على مقبرة شخص كان يعمل كاتبا لدى الملك، وفي إحدى المخطوطات التي حصلت عليها لأترجمها، تكلم أنه قام بكتابة عدة كتب تتكلم عن بيت الحياة ومؤسسيها، من الكهنة، وأنها مبنى مستتر لا يعرف طريقه سوى محب للعلم، ذلك المبنى احتوى على ذخيرة هائلة من العلم.

كتب عن تفاصيل كثيرة منها أن المكتبة مؤمنة جدا، ولا توجد في مكان واحد بل يتم استدعاؤها بتعويذة ذكر كل تفاصيلها، وحتى تصبح عضوا فيها عليك أن تقدم بحثا علميا قيما لحارس المكتبة، وإذا أجاز البحث، عندها تخضع لاختبار النوايا.

صدقني كان أصعب وأقسى اختبار خضته في حياتي، بعدها تحصل على الوشم.

عندما قرأت البردية وترجمتها لأول مرة ظننت أن كاتبها يهذي، أو أنني ترجمت بعض العبارات خطأ، لم أكن لأصدق حتى قمت بأداء التعويذة فأرشدتني إلى هنا.

ظهر الاندهاش الكبير على وجه توفيق، لا يعرف هل ينظر إلى زوجته التي تحكي قصة لا يمكن أن يصدقها عاقل، لولا أنه رأى بأم عينه لما صدق أبدا، أم ينظر إلى ذلك الجمال الخرافي الذي يحيط به، وكل ذلك العلم الذي تحمله تلك الأرفف.

. بصدق، لا أعرف ماذا أقول يا منى.

. لقد جلبتك هنا لتكون عضوا معي، لا يمكننا ترك شيء كهذا دون الاستفادة منه.

. هل من أعضاء آخرين هنا معك؟

نهضت من مكانها مشيرة إليه أن يأتي وراءها، تمشت عدة خطوات وتوقفت أمام لوحة رخامية ضخمة، أشارت بيدها على اللوحة متحدثة:

. تلك اللوحة الرخامية هي أعضاء المكتبة منذ إنشائها، وما تظهره هنا أن آخر الأعضاء كان في زمن الحملة الفرنسية، ثم هجرت المكتبة وتوقف استدعاؤها.

نظر توفيق جيدا إلى اللوحة، إلى وجوه الأشخاص الذين ظهروا بملابس ووجوه مختلفة باختلاف العصور التي انتموا إليها، لكنه لاحظ أن أسماء آخر الأعضاء مرتبطة ببعضها:

. هؤلاء ربما كانوا أجدادا وأبناء وأحفادا، توارثوا سر المكتبة فيما بينهم.

هزت رأسها بالإيجاب موافقة:

. نعم هذا ما لاحظته أيضا.

صمتت قليلا، لتكمل بعدها:

. ما رأيك يا توفيق، هل تنضم معي إلى المكتبة وتصبح عضوا، ونعيد أحياءها معا مرة أخرى؟

ابتسم ناظرا إليها:

. وهل استطيع الرفض؟

الفصل الرابع والثلاثون

جلس إبراهيم منهكا على مقعد في حديقة الفندق، بجانبه حسام وأمامهم سارة، ساد الصمت مدة دقائق حتى التقط إبراهيم أنفاسه وتكلم قائلا:

. جلست لساعات استمع إلى حوارات الأهالي على القهوة، لا أعرف كيف يكون لدى البعض تلك الطاقة الهائلة للحديث.

ابتسم حسام بينما علقت سارة:

. عليك أن تشكر الله، فلم تضطرك الظروف بعد للتجسس على النساء، وإلا لكنت ستذهب إلى المشفى بعدها.

تنهد مجيبا:

. لديك حق.

كان حسام يبدو بينهما شاردا، وملامح وجهه متغيرة عما تركته عليه سارة قبل ساعات، لاحظ هدوءه وصمته الثقيل، لم يسأل إبراهيم على ما حصل عليه من معلومات، فاضطرت هي أن تسأل:

. ماذا جلبت لنا من أخبار الشارع؟

. حديث الناس كله كان عن أن جعفر يستحق نهايته بعد أن أخفى جثث الكثير من الضحايا متعاونا مع القتلة وتجار الآثار وأصحاب الثأر.

البعض يقول إن مقتله كان على يد أهالي الأطفال الثلاثة، والآخرون يقولون إن مقتله في قسم الشرطة وراءه شخص من كبار البلد، أو متعاون سابق أخفى له جعفر جثة، فخاف أن يعترف عليه.

بالطبع اتهموا الشرطة بالتواطؤ، لعلمهم بنشاط جعفر، والمتعاملين معه.

كما أن البعض خمن أن مقتل ضاحي له علاقة بتجارة الآثار، إنه ربما وجد شيئا في المعبد وقتل بسببه.

حسام متحدثا لأول مرة:

. وماذا عن أصدقاء ضاحي؟

. لا شيء، البعض قال إن لطفي لا يمكن أن يفعل شيئا، لأن ضاحي كان له فضل عليه ولأن لطفي شخص في حاله تماما، ومبتعد عن كل مشاكل البلدة، ولم يأت أحد بذكر فارس أو الحراس الآخرين.

تنهد حسام في ضيق متسائلا:

. وما رأيك يا إبراهيم؟

. معدن الناس هنا صعب، كما اعتدنا فيما سبق، لا يمكن أن يتحدثوا أو يعترفوا حتى أن أثبتنا عليهم التهمة، أما شكوكي فيمن فعلها فالحقيقة الكل يكذب.

الكل يعرف معلومة ما ويصر على عدم التحدث.

رفعت سارة يدها مقاطعة إبراهيم:

. أعذروني ولكننا لم نسألهم كثيرا، كانت أسئلتنا وبخاصة للحرس عادية ومختصرة.

. نعم لقد أوصيت إبراهيم بذلك حتى لا يظن أحد منهم أننا نشك بهم، فيتصرفون بحرية وهنا تقترف الأخطاء ووظيفتنا اصطيادها، أما إذا استجوبتهم كما يقول الكتاب، سيأخذ المذنب كل الحيطة والحرص خوفا من ارتكاب خطأ نمسكه عليه.

ثم عاد بنظره إلى إبراهيم:

. أريدك أن تضع أفراد حراسة على كل من استجوبناهم، بما فيهم أمين الشرطة الذي اتبعك أثناء التحقيق.

لا أريد أي أحد يا إبراهيم، أريد أشخاصا محترفين، هل تفهم قصدي، وأما أنت فلدي لك مهمة خاصة للغاية.

الآن اذهب لترتاح وتفعل ما أمليتك عليه غدا.

انصرف إبراهيم إلى غرفته، متمنيا لهم ليلة سعيدة، فاتجهت سارة بنظرها إلى حسام وسألته:

. ما بك؟

. لا شيء، ما بي؟

. أنت تبدو مهموما للغاية، وهذا حدث في تلك الساعات التي تركتك وذهبت لغرفتي، قبل أن أتركك لم تكن هكذا.

تنهد في ضيق، فكر أنه كان عليه أن يخفي قلقه لأنها شديدة الملاحظة، لكنه لم يفكر بإخبارها أي شيء:

. أنا في الحقيقة مرهق، أشعر أنني احتاج إلى الراحة، والعمل لا يرحم.

. وجهك يبدو شاحبا ومصفرا، عليك أن تتوقف عن التدخين، وتأكل جيدا، وتزيل كل تلك الهموم التي تدفنها بعيدا حتى لا يلاحظها أحد.

صدقني كلما حاولت أن تدفن همومك وضغوطك ومشاكلك يوما ما ستنفجر هي أو تنفجر أنت.

نظر لها نظرة خالية من التعبيرات:

. وما الحل في رأيك؟

. تحدث لأي أحد، ربما لديه الحل، وحتى أن كان لا يملك حلولا، أن تفرغ ما بداخلك في حد ذاته مريح جدا.

صمت قليلا وهو ينظر إليها، شعرت أنه يعرف شيئا عنها، وكان إحساسها صادقا:

. ولماذا لا تفعلين أنتِ نفس الشيء، وتفرغين ما بداخلك؟

ارتبكت مجيبة:

. ماذا تقصد؟

. أقصد أنني أعلم منذ بداية القضية أنك تخفين شيئا، لكنني احترمت رغبة السرية لثقتي بك، ولأنني لدي مخبران يجلبون لي المعلومات وأتكتم على شخصياتهم حتى من إبراهيم، لكن بعد نظرات وجهك وملامحك عندما كنت أحادثك عن تلك الفتاة كانت تقول إنك تعرفين الكثير وترفضين الإفصاح عنه.

وظني أن ذلك الكثير، يشمل معلومات تفيد قضيتنا إلى حد كبير، لكنك ترفضين الحديث.

لماذا تصرين على عدم تبادل الثقة؟

زاد ارتباكها كثيرا، وظلت صامتة للحظات تحاول الهروب بإجابه منطقية، لكنها كانت تعلم يقينا أنها إذا كذبت سيكشف كذبها، فقررت حلا أخيرا وهو إخباره نصف الحقيقة:

. لم أخبرك لأنك لم تكن أبدا لتصدقني، وكنت ستقابل الأمر بسخرية عارمة، ولم تكن لتتحرك قدما من القاهرة إلى قنا.

. وهل أخبرك عقلك الفصيح بكل هذا بناء على ماذا؟

ما التصرفات التي صدرت مني وبنيتِ عليها هذا الاستنتاج.

. سخريتك من كل ما هو خارق في القضية السابقة.

صمت مدركا أنها بشكل أو بآخر لديها الحق، حاول تعديل تلك النظرة لها:

. في الحقيقة قابلت الكثير من الأشياء التي لا يستطيع عقلي تفسيرها، لكن لا يمكنني السماح بتلك الأشياء في القضية أو حتى الاعتماد عليها في عملي، لأن القانون لا يعترف بها، والقانون هو عملي، فاعتدت أن أخبئ معتقداتي الخاصة بعيدا عن عملي حتى استطيع إنجازه.

تنهدت سارة في ضيق، لاضطرارها قول ما ستقوله:

. في ليلة مقتل ضاحي حلمت بمقتله، وكانت تلك الفتاة هي من قتلته، تلك الفتاة الجميلة التي رأيتها في الفيديو.

تكلم حسام باندهاش:

. هل تقصدين أنك رأيت مقتله كما حدث؟

. بكل تفاصيله، وعندما استيقظت، عرفت بخبر مقتله، رغم أنني لم أقابله لسنوات، وعندما رأيت آثار الخنق، وصورة الفتاة عندما جلبها إبراهيم أول مرة، تأكدت أن ما رأيته قد حدث بالفعل.

. أريدك أن تحكي لي ما رأيتيه بكل تفاصيله، وتأكدي أنني لن أسخر من أي شيء.

حكت له الحلم كاملا كما رأته، الفتاة والقرص الذهبي، وخنقها له دون ملامسته.

اندهش حسام من قصتها، ولم يكن ليكذبها فيما قالت، لكن تلك الروايات لا تكتب في محاضر الشرطة:

. إذن قاتل ضاحي تلك الفتاة، يمكننا تعميم وجهها على أساس أنها آخر من دخل المعبد، ولم يخرج وقت وقوع الجريمة.

. وهل تعتقد أننا سنعثر عليها، أو حتى نقبض عليها، أخبرتك أنها خنقته بقوة ما دون أن تلمسه.

تكلم يائسا:

. وما فائدة تحقيقنا، فكل القضية الآن ضاعت هباء.

. ليس كلها.

صمتت وهي تفكر بإخباره بتلك الرؤيا التي شاهدت بها قاتل الأطفال وتقديم القربان، لكنها قررت إخباره أنها حلم أيضا وليست رؤيا، كانت غاضبة من نفسها بسبب كذبها عليه، لكنها لم يكن لديها أي خيار آخر:

. في الحقيقة لقد رأيت حلما آخر.

نظر لها حسام نظرة مستفسرة:

. رأيت في تلك البقعة التي قتل بها الأطفال رجلا يقرأ صلوات خاصة بتقديم القرابين إلى أبيب، ومعه أجولة تحمل الثلاثة أطفال.

شعر بالصدمة من حديثها:

. ولم تخبريني؟

. أنا لم أر وجهه.

صمت في غضب ناظرا إليها، فاستطردت:

. هذا ما قادني إلى تلك البقعة.

. ألا تتذكرين أي تفاصيل عنه، أي شيء؟

. لقد كان يحمل أجولة الأطفال بصعوبة، ويمشي ببطء.

فكر حسام قليلا، ثم تحدث:

. هل تقصدين أنه كبير السن؟

. أو ربما يكون لديه إعاقة ما.

لمعت عيناه، بعد أن أدرك شيئا، تلك النظرة التي تعلمها سارة جيدا لكنه سارع بالحديث:

. أو ربما شيء ثالث لا يأتي في الحسبان.

قولي لي، هل أنتِ واثقة أن تقديم تلك القرابين كان لقتل حارسي البوابة؟

. نعم، بكل تأكيد

. هذا يجعل ذلك الشخص مقدم القرابين شريكا لتلك الفتاة، بمعنى آخر إذا حصلنا عليه، حصلنا على تلك الفتاة أيضا.

هزت رأسها بالإيجاب، فأكمل سؤالها:

. لقد قلتِ إنه وجد صعوبة في حمل الأطفال، هل أظهر أي قوة خارقة للطبيعة؟

صمتت مسترجعة تلك الرؤيا ثانية بثانية، وتحدثت:

. لا أبدا، لكن أنا رأيت هذا الرجل بعد ما كان قد انتهى من كل شيء.

ربما لم أر كل شيء.

. ماذا كان يرتدي؟

. كان يرتدي جلبابا صعيديا كأهل القرية، ولفة الرأس المميزة بهم.

. أنتِ ربما تكونين حللت القضية.

إلي جانب تلك المعلومات الغريبة التي أخبرتيني بها سابقا، اربطيهم معا، وضعي ذلك الرجل الذي رأيتيه في منتصف ما جمعتيه من معلومات.

صمتت سارة وهي تحلل كلامه في ذهنها، وعندما فهمت مقصده، شهقت بدهشة قائلة:

. يا إلهي، أنا لم أتخيل ذلك أبدا، ولم أربطه رغم علمي بكلتا المعلومتين.

تكلم حسام بفخر، متناسيا آلامه وقلقه:

. هذا ومع احترامي لأنك لست بشرطية، تعلمي أن تربطي كل شيء معا لتكتمل الصورة.

. وماذا الآن؟

ابتسم بخبث:

. سأتكلم مع صديق قديم ليساعدنا في تلك القضية، هذه كانت خطتي بعد تحريات إبراهيم .

نظرت له بوجه يعلوه سؤال "ماذا تنوي أن تفعل"، لكنها لم تتكلم، فأجابها:

. سترين بنفسك، لكن الآن على أن أتحدث إلى اللواء منصور، لأخبره بكل تلك التطورات ولأجلب إذنا من النيابة.

استأذنت وتركته وحيدا مع هاتفه، وذلك الكذب الذي قالته يمزقها، كان عقلها يكذب محاولا تخفيف شعور الذنب..

"ربما إذا أخبرته كان هناك خطر على حياته، هكذا أفضل"

الفصل الخامس والثلاثون

وقف لطفي كعادته ينظر إلى زوار المعبد، شارد الذهن، تطارده كل لحظة وأخرى ذكرياته مع ضاحي.

ينظر إلى ناحية غرفة الحرس، ويقول لنفسه:

"هنا طالما تناولنا الإفطار"

"وهنا اعتدنا على شرب الشاي"

ثم نظر إلى ركن في المعبد محدثا نفسه

"وهنا اعتدنا على التسامر والضحك"

لا يمكنني نسيان اليوم الأول الذي أتيت هنا للعمل، وكان الفضل كله لعم ضاحي، علمني كل شيء في تلك المهنة، واحتضنني كابن له.

تنهد بحزن مقلبا في ذكرياته، واستدار ممسكا بكوب من الشاي لكنه توقف وعاد لينظر مرة أخرى إلى جلباب آلفه كثيرا.

نظر إلى جانب أحد الأعمدة، كان المعبد في هذا اليوم مزدحما، فحجب رؤيته الزائرون، لكنه تقدم قليلا وصدره مشتعل بشعور لا يفهمه.

لمح الجلباب مرة أخرى.

إنه جلبابه.

جلباب عم ضاحي.

رفع عينيه بخوف شديد إلى وجه الرجل، وهي يتمنى أن يكون مخطئا، وأن الرجل ليس...

إنه هو ضاحي

شهق بصوت عال لفت نظر بعض المتجولين في المعبد، وقف عدة ثوان وهو ينظر إلى ضاحي الميت، إنه حي أمامه بكامل صحته، مرتديا جلبابه الذي اعتاد ارتداءه.

رفع لطفي يديه مناديا "عم ضاحي" وترك مكانه وركض ناحيته، لكنه لم يجد أحدا عند وصوله إلى العمود الذي كان ضاحي واقفا بجواره.

تلفت حوله وعلت وجهه نظرة جنون، ركض باحثا عنه في كل الاتجاهات التي من الممكن أن يكون قد ذهب فيها، لكنه لم يجد أحدا.

انهار على الأرض منهك التفكير، وضع يديه على رأسه ليزيل عمته "غطاء الرأس"، ويلقي بها على الأرض في يأس.

كل ما فكر فيه تلك اللحظة أنه كان يتخيل ضاحي بسبب كثرة التفكير، والذكريات التي أصبحت تؤرقه ليلا ونهارا، وحرمت عينيه من النوم.

أتاه صوت بدوي من خلفه، مقاطعا تفكيره:

. هيا يا لطفي، حان وقت إغلاق المعبد، وعلينا تأمين المعبد قبل إغلاقه.

نهض وعلامات اليأس بادية على وجهه، مما لفت نظر بدوي ليسأله:

. ما بك؟

تردد لطفي عدة ثوان، لكنه أباح بما حدث:

. لقد خيل لي عم ضاحي واقفا هنا بجانب هذا العمود، ركضت إليه ولم أجد أحدا.

لوهلة يا بدوي ظننته ما زال على قيد الحياة.

. استغفر الله يا لطفي، ربما عبثت بك تلك الأرواح التي تسكن المعبد، عليك أن تخفف من التفكير.

مسح وجهه بيديه، وزفر بعصبية متحدثا:

. كان صديق العمر، وهو من وجد لي وظيفتي هنا، لنا ذكريات في كل ركن في المعبد، بالله عليك كيف أنسى.

ربت بدوي بيده على كتف لطفي قائلا:

. كلنا لدينا ذكريات معه، كان رجلا صالحا.

قم اذهب إلى بيتك وزوجتك، وأنا سأتولى تأمين المعبد وإغلاقه.

رفع لطفي يديه في رفض:

. لا، سأتولى وردية الحراسة للفترة المسائية.

سأبيت هنا في المعبد.

. لكن يا لطفي أنت متعب، من الأفضل لك أن تذهب للبيت.

. أصبحت ارتاح أكثر هنا، غادروا أنتم إلى بيوتكم، ولا تقلق من أي شيء.

غادر بدوي عندما رأي إصرار لطفي على البقاء، تاركا معه زيان للحراسة الليلية.

سرعان ما فرغ المعبد من زائريه، وأتمت حراسة المعبد التأمين متعاونين مع أمين الشرطة عوض، أغلقوا الأبواب جيدا، بعدها جلس زيان أمام موقد النار يستريح، ويجهز لصنع الشاي.

انزوى لطفي جانبا في ركن قريب، شارد الذهن، ممزق من الذكريات.

لاحظ زيان حالته فأخبره أن يذهب إلى بيت الراحة ليغسل رأسه من إرهاق اليوم، ويفيق قليلا لأن لديهم ساعات ليل طويلة.

فكر لطفي أنها ربما فكرة جيدة، أن يغسل وجهه بالماء، ويضع القليل على رأسه حتى يفيق.

ذهب إلى دورات المياه الخاصة بالمعبد، كانت نظيفة وخالية، وقف أمام المرآة ينظر إلى المياه المنهمرة من الصنبور، وضع رأسه وغسل وجهه، وعاد الكرة مرة أخرى محاولا نزع تلك الأفكار من رأسه.

تنفس قليلا أمام المرآة وأعاد رأسه لأسفل المياه مرة أخرى، مستريحا لذلك الإحساس الذي أعطته له المياه الساقطة على رأسه.

تذكر لعدة ثوان موقفا ما مع ضاحي:

. يا بني اترك تلك المهنة، وتعال لتعمل معي في المعبد

. لكن أموال المعبد فتات بالكاد تكفيني.

. إنها حلال وهذا يكفي، أنا أخاف عليك كابني.

ثم أمسك ضاحي بذراعي لطفي متحدثا:

. عليك أن تعدني ألا تعود لمهنتك تلك.

. أعدك يا عم ضاحي، فقط لأجل خاطرك أنت.

أيقظه حركة ما في المكان، فكر أنه ربما يكون زيان، أو أحد أفراد الأمن التابعين للشرطة.

رفع رأسه من أسفل المياه وأغلق الصنبور، ونظر إلى المرآة ليجد أمامه انعكاس صورة ضاحي.

استدار بفزع شديد، ليجده واقفا أمامه في صورة ضبابية شفافة، وعلي وجهه علامات غضب كبيرة.

تكلم لطفي بخوف شديد ويداه ترتعشان:

. عم ضاحي؟

ساد الصمت، وما زال ضاحي ينظر إليه بغضب، فأكمل لطفي:

. عم ضاحي أنت تعلم أنني لم أقتلك، وأن ليس لي ذنب في شيء.

تكلم ضاحي أخيرا:

. خيانة الثقة أشد من القتل يا لطفي.

انطلق لطفي راكضا إلى الباب وخرج سريعا، وأكمل ركضه حتى وصل إلى زيان الذي كان قد وضع أكواب الشاي أمامه منتظرا إياه.

كان شكله فوضويا، المياه تتساقط من رأسه ووجهه على ملابسه، أثارت هيئته حفيظة زيان ليسأله:

. ماذا جرى؟

صمت لطفي مرتبكا، لا يعرف ما يجب قوله، خاف أن يأتي على ذكر رؤيته لضاحي مرة أخرى، فينعته الجميع بالجنون، هز رأسه في إنكار:

. لا شيء يا زيان، لا شيء.

وفي اليوم التالي تكررت رؤيته لضاحي عدة مرات، في الطريق عندما كان عائدا من المعبد، وفي نومه جاءه على هيئة كابوس، استيقظ مفزوعا تلك المرة، وهو يصرخ بصوت عال:

. لقد أخبرتك أنني لم أقتلك، ما الذي تريده مني، ابتعد عني.

اقتحمت زوجته الغرفة بعد أن وصلها صوت صراخه:

آمال: ماذا حدث يا لطفي؟

. إنه ضاحي يطاردني منذ الأمس في المعبد والشارع وفي أحلامي.

ارتبكت زوجته في خوف كان واضحا على وجهها:

. ماذا تقصد بأنك تراه؟

. أراه رؤية العين يا آمال.

ربتت بيديها على كتفه رغم علامات الخوف والقلق التي ظهرت عليه:

. أنت تفكر أكثر من اللازم، عليك أن ترتاح.

. لا يا آمال، أنا أراه حقا، ليست خيالات، لقد تحدث إلي في المعبد متهما إياي أنني خنت ثقته.

جلست زوجته بجانبه على الفراش، وحاولت أن تغير ملامح وجهها:

. أنت لم تفعل شيئا، عليك أن تتوقف عن التفكير وعن تذكره.

عليك أن تطرده من رأسك يا لطفي وإلا أصابك الجنون.

أمسك لطفي برأسه وهو يحركها بعنف:

. وكيف أفعل هذا وهو يطاردني في كل مكان.

أنا أشعر أنني سألحق به.

. كثيرا ما نصحتك أن تبتعد عن هذا الرجل، لكنك لم تستمع أبدا إلى نصيحتي.

الفصل السادس والثلاثون

تحركت السيارة التي تحمل اللواء فكري وزوجته سعاد ببطء بسبب الازدحام المروري وتوقفت عدة مرات، كان الصمت سيد الموقف.

وجوه متجهمة، يرسم الحزن والقلق عليها أميالا.

كان فكري قليلا جدا ما يبارح منزله بسبب حالته الصحية، وعناء زوجته في حمله وإيصاله إلى السيارة، لكن تلك المرة لم يكن أمامه خيار آخر.

حدثها الطبيب في الهاتف طالبا منها أن تأتي مرة أخرى إلى العيادة ليخبرها بتشخيصه للفيديوهات التي سبق وأن أحضرتها إليه.

لكن ما أثار القلق في نفسيتها أنه أصر أن يحضر معها زوجها، حاولت أن تفهم منه أي شيء، رفض إخبارها، وطلب منها أن تأتي إلى العيادة.

انتهز الاثنان فرصة غياب حسام في الصعيد وسفره، تجنبا لأسئلته، وغادرا البيت متوجهين إلى الطبيب.

سرعان ما عادت حركة المرور ووصلا سريعا إلى المستشفى، كان المكان شبه فارغ إلا من شخصين في انتظار الطبيب.

لكن بناء على طلب سعاد من موظفة الاستعلامات، ألا تمكث في الانتظار كثيرا، سرعان ما دخلا إلى الطبيب مجدي.

حركت كرسي زوجها وتبادلا التحية معه، لكن اللواء فكري لم تعجبه تلك الملامح التي ارتسمت على وجه الدكتور، وتأكد من أن هناك شيئا سيئا يريد الطبيب قوله.

يحمل الطبيب مجدي تاريخا طويلا مع عائلة المنشاوي، وبخاصة حسام.

جلست سعاد بتوتر أمام دكتور مجدي، وفي نيتها اختصار الطريق:

. قل لي ما تريد قوله يا دكتور، فالقلق يقتلنا.

تنهد دكتور مجدي وجلس على كرسيه، ناظرا أمامه إلى ملف كبير، يبدو عليه القدم، كتب على عنوانه:

اسم الحالة: حسام فكري المنشاوي

السن: أربعة سنوات

الطبيب المعالج: مجدي جميل رحاوي

وبعد صمت حاول فيه الطبيب ترتيب كلماته:

. في الحقيقة، رأيت تلك الفيديوهات، وقبل أن أشاهدها، أحضرت الملف القديم لحسام من أرشيف عيادتي القديمة، كنت احتفظ به لأن حسام كان يمثل سابقة في شفائه.

صمت قليلا، وشعور بالإحراج والحزن يتخلله ثم استطرد:

شاهدت الملف القديم كاملا، كل التشخيص وشرائط الفيديو القديمة التي سجلت عليها أعراض الهلوسة التي كانت تنتاب حسام، درست كل شيء لأحكم على الحالة بكل دقة.

في البداية، حالة مثل حسام قد شفيت تماما بمعجزة كما أخبرتوني، ووقتها تأكدت بنفسي من أنه أصبح طفلا عاديا وأخضعته

لاختبارات نفسية عديدة اجتازها بنجاح، حتى أنني ظننت أنكم أحضرتوا لي توأما له.

ثم شاهدت تلك الفيديوهات التي أحضرتها لي مدام سعاد، وأعدت مشاهدتها ودراستها عدة مرات، وقارنتها بشريط فيديو قديم، لحسام عندما كان مقيما بالمستشفى أثناء نومه.

قضم شفتيه، محاولا ترتيب واختيار كلاماته القادمة بعناية، بينما تعلقت أعين سعاد وزوجها فكري به:

. أنا أسف جدا لأخبركم أنني أظن أن تلك الهلوسات التي كان يعانيها حسام، بشكل أو بآخر قد بدأت تعود إليه أثناء نومه، أنه يعاني من رؤى وكوابيس تحفز جسده بشكل كبير على ردة فعل عنيفة، وأخشى أن يتطور الأمر إلى هلوسات في حالة اليقظة.

الطبيعي لنا أثناء الأحلام السيئة وربما الكوابيس، أن نصدر أصوات، نتقلب، نفرز لعابا ربما، أو دموعا في بعض الأحيان، لكن تلك الحركات العنيفة، هي غير طبيعية، خاصة لشخص له تاريخ مثل ابنكما.

كانت سعاد بالفعل تبكي، وفكري وضع يده على رأسه مقاوما بكل شراسة دموعه التي تريد السقوط من عينيه، بينما التزم الطبيب الصمت.

علم أنه من الأفضل أن يلتزم الصمت بضع دقائق، لكي يستوعب كل منهما تلك الأخبار السيئة التي حملها إليهم، لكن لم تمر الدقيقة عندما قطع فكري الصمت محاولا أن يجد حلا في مصيبته:

. هل من علاج يا دكتور؟

. في الحقيقة الطب النفسي تقدم كثيرا تلك الأيام، وهناك الكثير من طرق العلاج التي يمكن أن تكون فعالة لكن بشرط.

رفعت سعاد رأسها، ناظرة إلى الطبيب في انتظار، ما يأتي بعد تلك الكلمة:

. علينا أن نبدأ سريعا بالعلاج قبل أن تزداد حالته سوءا، عليكما أن تقنعانه أن علاج حالتة في بدايتها يمنع التدهور الذي وصلت إليه حالته سابقا.

نظرت سعاد إلى فكري، عندما جال بفكرهما نفس الشيء، حينها تكلمت سعاد تلك المرة:

. في الحقيقة يا دكتور ما لا تعلمه، أن ابني لا يتذكر أي شيء عن مرضه السابق.

اقتضب جبين الطبيب، وعلت وجهه علامات الاندهاش:

. ماذا تقصدين أنه لا يتذكر، عندما خاض الاختبارات كان يخبرني أنه أصبح بخير، وأن تلك الهلوسات توقفت.

تولى عندها فكري دفة الحديث:

. بعد أن عدنا إلى البيت بفترة وجيزة، كنا دائما نسأله إذا كان بخير، ويجيب بنعم، ثم نسأله أن كان يرى شيئا مجددا أو يسمع شيئا، كان يجيب ب لا.

لكن..

ذلك اليوم كان قد مر شهر على عودتنا من المشفى، حاولت سؤاله لم يتذكر أي شيء إطلاقا، لا المشفي ولا مرضه ولا أحلامه، ولا حتى أنت يا دكتور.

لكنه كان يعلم من نحن.

وأشار بيده إلى نفسه وزوجته، واستطرد:

. تعرف على أقاربنا، وكل أصدقائه في المدرسة، وكان طبيعيا جدا، في الحقيقة تكتمنا على الأمر.

تكلم الطبيب بعصبية:

. وكيف تفعلون ذلك دون عرضه على طبيب؟

تكلمت سعاد بإحراج وتكسو وجهها علامات الندم:

. في الحقيقة كانت فكرتي وإصراري أنا على عدم إدخاله المشفى مرة أخرى، ذاق ابني كل أنواع العذاب من حقن وعقاقير، وحتى الكهرباء.

أخذ جرعته من الألم، نال المرض من طفولته وحياته، لم يطاوعني قلبي أبدا أن أعيد عليه ما عاشه مرة أخرى، وكان بصحة جيدة أمامي فلم أجد سببا لكي أحضره للفحص.

أمسك الطبيب قلمه وقلبه بعصبية بين أصابعه وهو ينظر إلى ملف حسام أمامه بصمت، لكن فكري لم يكن ليحتمل فترات صمت أخرى، فقد شعر بضغط دمه يزداد ارتفاعا كل دقيقة، وتعرقت يداه على كرسيه من شدة التوتر:

. هل فقدان الذاكرة هذا يغير من تشخيصه؟

نظر إليه الطبيب محاولا إخفاء غضبه نظرا لحالتهم النفسية الظاهرة أمامه:

. نعم، للأسف، لكن ما علينا الآن سوى إقناعه بالعلاج سريعا، فقدان الذاكرة هذا يحتاج أشعة على المخ، وفحوصات كثيرة أريد أن أجريها قبل أن أعطيكم تشخيصا كاملا.

. هو يعمل على قضية في الصعيد، عند عودته سأقنعه بأن يأتي معنا للعلاج والفحص هنا، لكن عليك أن تفحصه دون أن تخبره بالماضي يا دكتور.

. أنا أعلم هذا تماما يا سيادة اللواء، مثل تلك الحالات من فقدان الذاكرة يمكن أن تصاب بانهيار عصبي عند علمها بالماضي.

لكن فكري وسعاد كانا يعلمان تماما عناد ابنهما، وأنه لن يهدأ إلا بعد أن يعرف الحقيقة.

كان الأمر أشبه لهم بالموت البطيء، تلك الذكريات التي ما زالت عالقة في أذهانهم عن مرض ابنهما الوحيد، تدمر نفسيتهما.

أن يعيشا ما حدث مرة أخرى.

أن يريا أبنهما يعاني الآلام، يبيت بالأشهر في غرفة مغلقة بالمستشفى، محرومين من وجوده معهما في المنزل.

لكن تلك المرة المرض سيكون سببا في تدمير مستقبله وعمله وسمعته.

الفصل السابع والثلاثون

شهر ديسمبر من عام 1990

وقف فكري في إحدى صيدليات الأقصر يشتري دواء ابنه، كان أصغر سنا وأكثر صحة وشبابا، لكن وجهه حمل الكثير من الحزن والهموم.

حاوطت عينيه ظلال بنية من قلة النوم، ظهرت التجاعيد سريعا على وجهه، والشعر الأبيض غزا شعره الأسود بضراوة.

إنه الحزن والكآبة، وتلك الهموم التي نحملها فتغيرنا دون أن نشعر، نظرة واحدة في المرآة ندرك فيها ما حدث فنزداد كآبة عما نحن فيه.

ولم تكن سعاد لتختلف عنه، بل كانت حالتها أكثر تدهورا، أصبحت لا تعتني بملابسها ولا شعرها، ولا تضع مستحضرات التجميل التي اعتادت عليها، أصيبت بالسكر سريعا والهزلان من قلة تناول الطعام.

كان الضابط منصور قد نصح فكري أن يذهب بعائلته في رحلة للترفيه عنهم نظرا لكثرة ما عانوه في الفترة الأخيرة بسبب مرض حسام العضال.

ونصحه أن ينتهز الفرصة ويطلب مقابلة دكتور توفيق الذي كان في رحلة أيضا للأقصر مع ابنه، ربما أشار عليه بحل ما، أو وجد تفسيرا لهلوسات حسام الغريبة.

سمع فكري نصيحة صديقه، بعد أن قضى هو وزوجته شهورا في المستشفى مع حسام.

انتهى من محاسبة الصيدلي وتوجه إلى سيارة الأجرة التي كانت بانتظاره وداخلها زوجته وابنه، جلس إلى جانب السائق وطلب منه التوجه إلى معبد الأقصر بعد أن أعطى الأدوية إلى زوجته.

كان الولد صامتا، وجهه كالحجر لا يحمل أي علامات للتفاعل مع من حوله من أناس أو مناظر جديدة يراها لأول مرة، هذا كان سلوكا مستحيلا للأطفال في عمره.

كان المعبد مزدحما، وقفت سعاد إلى جانب ابنها في انتظار فكري الذي ذهب ليجلب لهما التذاكر، لكن عندما وصل زوجها ليعطيها التذاكر، تنبه سريعا إلى عدم وجود حسام، انتابه الذعر هو وزوجته.

عبرا البوابة سريعا بعد أن أخبرهما أمين شرطة شاب أنه رأى ابنهما وهو يدخل المعبد، ذهب كل منهما في اتجاه ينظران بجنون في كل اتجاه باحثين عنه، لكنه كان قد اختفى تماما.

توغل فكري إلى داخل المعبد، يبحث بين الناس عن ابنه، عندما سمع صوت امرأة تصرخ، ظن على الفور أن ابنه قد ارتكب مصيبة ما، ركض سريعا باتجاه الصوت يسأل عما حدث، أخبره أحد الزائرين أنه يظن أن امرأة من زائري المعبد تعاني آلام الولادة.

دخل الغرفة سريعا فوجد حسام في أحد الأركان يختبئ في خوف، و المرأة في الأرض تصرخ وإلي جانبها رجلان تعرف على إحدهما وهو دكتور توفيق، فقد كانت صورة حديث الجرائد لفترة.

أخذ ابنه سريعا وغادر الغرفة محاولا أن يجد زوجته وسط هذا الازدحام، وكل ما يدور في عقله، أنه يجب عليه مقابلة توفيق وانتهاز الفرصة قبل أن يغادر الأقصر.

بمجرد وصوله الفندق اتصل بصديقه منصور ليطلب منه أن يحدد ميعادا مع دكتور توفيق، شارحا له ما حدث في المعبد اليوم.

وافق منصور لصداقته مع كلا الطرفين، ولم يكن دكتور توفيق ليتأخر عن مساعدة أي شخص، وبخاصة إذا كان صديقا لصديق عزيز له وهو اللواء منصور.

لكنه أبدى تعجبه من طلب المساعدة، كيف له أن يساعد طفلا مريضا نفسيا، تخصصه خارج ذلك المجال كليا، إلا أن حديث صديقه حمل بعض العبارات الغريبة التي لم يفهمها، فأراد استكشاف الأمر كعادة الأثريين اللحوحة والقاتلة في بعض الأحيان.

انتظر حتى اطمأن على ولادة منى، وحفيدته التي أطلقوا عليها اسم سارة، وانطلق بسيارة أجرة إلى الفندق الذي يقيم فيه لينتظر زائريه في قاعة الاستقبال في الفندق.

سرعان ما أتوا في الميعاد المحدد، لكنه عرف الطفل على الفور، هو ذلك الطفل الذي أبدى إعجابه بالكاميرا التي حملها توفيق، فأعطاها له مبتسما وملبيا حاجة طفل يحب استكشاف كل شيء، ثم عرض عليه توفيق أن يأخذا صورة معا، فوافق حسام على الفور.

ألقى فكري التحية هو وزوجته على الدكتور توفيق، وجلسا معا، عرض عليهم واجب الضيافة، وحاول محادثة الطفل، وتذكيره أنه الرجل الذي أخذ معه صورة باكرا في نفس اليوم.

لكن حسام كان وجهه كالحجر، دون أي ردة فعل، لا يتكلم ولا ينظر سوى للأرض في صمت.

استغرب توفيق أفعال الطفل، فقد كان مختلفا تماما عندما تعامل معه صباحا، لكن كانت لديه فكرة مسبقة أن الولد مريض نفسيا فتقبل الأمر، وحاول فتح حديث خال من الإحراج مع والديه.

. أهلا بكما في الأقصر، هل استمتعتم بزيارة المعبد اليوم، لقد سبق أن رأيت ابنكما هناك.

. في الحقيقة لم نأخذ فرصتنا في زيارته، لقد تاه منا حسام وقضينا وقتنا في البحث عنه.

. يا إلهي لقد كان معي في غرفة المعبد، لكني لم أعرف أنه تائه، ولم يكن لدي الفرصة لسؤاله، فقد كانت زوجة ابني تعاني آلام الوضع، وكنت مرتبكا.

ابتسم فكري متفهما:

. مبارك لك حفيدك، أتمنى أن تنعم بالصحة والعافية.

. في الحقيقة إنها فتاة، أسميناها سارة.

ساد صمت لفترة وجيزة، وكل منهما يشعر بالإحراج، توفيق ينتظر معرفة ما الخدمة المطلوبة منه، وفكري وزوجته لا يعرفان كيف يفاتحان توفيق في موضوع ابنهما، حتى تكلم فكري قاطعا لحظات الصمت:

. في الحقيقة ربما أخبرك صديقي منصور أنني أريد مساعدتك، لكن لا أعلم هل أخبرك بمرض ابني وكل التفاصيل أم لا؟

. لم يخبرني الكثير سوى أن ابنك شفاه الله مريض، وأنتم تحتاجون مساعدتي، وقبل كل شيء لم يخبرني أي تفاصيل لأي شيء.

تنهد فكري متحدثا بحزن:

. في الحقيقة أن حالة ابني نادرة للغاية وفريدة من نوعها، هكذا ما أخبرنا به الأطباء.

وراح يشرح له كل شيء..

الفصل الثامن والثلاثون

دخل دكتور جلال سريعا إلى المكتبة، ورغم وجوم حارس المكتبة الدائم الذي اعتاد عليه، لكنه لم ييأس أبدا من اصطناع الضحك معه، وإلقاء النكات.

كانت تلك عادة جلال الأصغر سنا بالمقارنة مع توفيق ومنصور.

توفيق دائم الحزن على زوجته، ومنصور الذي لم تفارقه الشدة والصرامة التي اعتاد عليها في عمله.

وضع العملة سريعا في الصندوق الخشبي وهو ينظر إلى الحارس مبتسما:

. الشمس اليوم رائعة بالخارج ربما يساعدك القليل من الابتسام على بدء يوم جميل.

نظر له الحارس نظرة زجاجية خالية من التعبير، وأشار له أن يكشف ساعده، وبعد أن ظهر وشم حورس على يده، نهض الحارس من مكانه إلى الطريق المعتاد الذي يسلكه كي يفتح له بوابة المكتبة.

كان حارس المكتبة دائما رجلا عجوزا، عند النظر إليه للوهلة الأولى تعتقد أنه خرج من متحف ما أو أنه له تمثال على هيئته في متحف القاهرة، كانت ملامحه مصرية خالصة، الأنف الحاد، العينان اللوزيتان، والوجه الرفيع، متوسط الطول.

وصل إلى الحائط الذي أنارته كتابات هيروغليفية بعد أن رفع يده، فتحت بعدها أمامه المكتبة باتساعها الرهيب، لكن كان قادرا على رؤية منصور وتوفيق يتناقشان على منضدة قريبة من القسم اليوناني.

ابتسم في وجه الحارس كعلامة على شكره، لكن الحارس قابله بنظرة ضيق واحتكار كعلامة منه أن المزحة التي قالها له جلال لم تعجبه على الإطلاق.

ضحك جلال من ردة فعله ودلف إلى المكتبة، وبعدها أغلق الحائط وعاد كما كان حائطا قديما ومهملا، لا يمكن أن تشك في أمره، أو أن تتخيل يوما أن ذلك الحائط يقبع خلفه علم لا حدود له.

نظر جلال إلى سقف المكتبة، ليستمتع بمناظر الطبيعة التي دائما ما كان يشاهدها في الأعلى.

في الصباح كان سقف المكتبة يتحول إلى سماء صافية يتخللها بعض السحب الصغيرة، وأنواع عدة من الطيور التي تكون أسرابا وتطير يمينا ويسارا، تطرب الأذن بصوتها الذي ينتشر في كل المكتبة، زرقة السماء وحدها تريح الروح وتهدئ النفس.

أما ليلا كان يتحول سقفها إلى اللون الأزرق الغامق، ينيره القمر بشكله الكبير المفصل الذي لا نراه اليوم، وإلى جانبه النجوم الصغيرة في كل مكان تلمع بشكل رائع، بحيث يمكنك أن تقضي الليل كله في النظر إلى السماء.

وأن حالفك الحظ ورأيت شهبا تسقط في مكان ما، أو تجمع مجموعة من النجوم لتشكل كويكبة.

صاح بصوت عال ليلفت انتباههم:

. لماذا لا نملك سماء جميلة مثل هذه في الخارج؟

وأشار بيده إلى أعلى.

منصور: على الأرجح لأن هدفنا الأساسي تلويث هذا الكوكب وقتل كل جميل فيه.

كان نظر توفيق متعلقا بالصندوق المعدني الذي كان يحمله جلال، فأشار بيده إلى الصندوق متسائلا:

. هل استطعت جلب التمثال معك؟

جلس جلال، وكان يبدو وجهه منهكا من قلة النوم، تنهد في كسل، ووضع الصندوق على المنضدة:

. بالطبع، تفضل أنه لك.

ظهر اليأس على منصور عندما سأل جلال:

. المهم في الأمر، هل شك فيك شخص ما، هل تأكدت أنك لم ترتكب أي خطأ عندما أبدلت التمثال؟

نظر له جلال بدهشة:

. بالطبع يا منصور، ما بالك أصبحت متشككا كثيرا؟

. ربما لأنني قضيت الأيام الماضية، أحاول إخراج توفيق من دائرة الشبهات في قتل تلك السائحة؟

. لا تقلق، أنت تعرفني جيدا.

ثم أدار وجهه لتوفيق الذي كان قد أخرج التمثال وراح يفحصه، ويقرأ الكلمات مرة واثنين.

فتحدث له جلال:

. ما رأيك يا توفيق؟ تحفة فنية لم أجد في إتقانها ولا جمالها، عندما أخذت الصور إلى "عبد المقصود" ليصنع لي تمثالا مماثلا، كاد الرجل أن يصاب بالجنون، وأخبرني أنه لم ير إتقانا في حياته في تمثال مثل هذا، ثم صارحني أن مهارته لن تستطيع صنع نسخة طبق الأصل منه، لكنه سيحاول.

خبط منصور على الطاولة بعصبية قائلا:

. لقد قلت لي يا جلال أنك لم ترتكب أي خطأ.

. نعم وقد كنت حريصا جدا كما أوصيتني، لكن هذا التمثال خارج قدرات أي نحات في عصرنا، وكان من المستحيل أن أتركه بالمتحف ليتم سرقته أو تبديله أو حتى إهماله، مهما كان الثمن، فتلك المعجزة النحتية مكانها هنا في المكتبة.

هز منصور رأسه تعبيرا عن يأسه وفقدانه الأمل بعد كل تلك التوصيات التي أعطاها له أن يحترس حتى لا يكشف أمره.

ساد الصمت قليلا، وتوفيق في عالم آخر يفحص التمثال، ويعيد النظر إلى الكلمات، يتأمل حرفية النحت، ونقاء الحجر المنحوت منه تلك القطعة الفريدة.

بعدها تكلم توفيق ببطء، كأنه يحدث نفسه ويسألها:

. لقد وضع وتدا في المنتصف رغم أن التمثال صغير ومن قطعة واحدة، لماذا فعل تلك الخطوة غير الضرورية؟

قال جلال في حيرة:

. هذا ما فكرت فيه، وهذا ما قاله لي أيضا عبد المقصود عندما استنسخ التمثال.

تكلم منصور وهو ينظر إلى التمثال بيد توفيق:

. هل يمكن لأحدكم أن يفهمني ما تتكلمان عنه؟

وضع توفيق التمثال بحرص شديدة على المنضدة ونظر إلى منصور متحدثا:

. كانت عملية النحت قديما ذا ضوابط، الوتد الذي نتكلم عنه، هو عبارة عن قطعة معدنية توضع لتثبيت قطع التماثيل الضخمة التي كانت تنحت من عدة قطع لتكون شكلا نهائيا.

قاطعه منصور:

. ولكن التمثال هنا صغير وقد نحت من قطعة واحدة على ما أراه.

قال جلال في يأس:

. بالضبط، والسؤال لماذا وضع ذلك الوتد الذهبي في المنتصف.

جلس منصور مرة أخرى على المنضدة ينظر إلى التمثال تحدث بعدها:

. قولا لي مرة أخرى ماذا كتب على التمثال؟

جلال: لقد حفظت تلك الجملة من كثرة التفكير فيما تعنيه

"إيزيس ترشد.. تضرب بجناحيها الهواء.. لتنير الظلام.. وتشق الطريق"

منصور: ربما كان حل لغز الكلام مرتبط بالقارب الذي وجد مع التمثال؟

توفيق: لا، إنها جمل مبطنة ومزدوجة المعاني.

منصور: وكيف لقارب أو تمثال أن ينير الظلام؟

نظر له توفيق نظرة يفهمها منصور جيدا، تغيرت ملامح وجهه لتقول إنه اقترب من أن يكتشف شيئا، وكان محقا.

أمسك توفيق التمثال، وأخرج من جيبه مصباحا صغير من الليزر، وضعه أسفل قاعدة التمثال، ثم تحدث بالهيروغليفية مصدرا أمرا للمكتبة أن تطفأ جميع الأنوار.

عم الظلام المكان، فيما عدا حروف ارتسمت على الحوائط وأرفف المكتبة المحيطة بهم.

صرخ جلال في ذهول:

. يا إلهي، ما هذا؟

نور المصباح يعبر الوتد الصغير، ويمر خلال فراغات على هيئة حروف بغاية الدقة، فتتضخم عن طريق إضاءة المصباح وتتكون على الحوائط المحيطة به.

كانت الكلمات والحروف غير كاملة الوضوح نظرا لاتساع المكان، وعدم استواء الأماكن التي سقط عليها الضوء.

نهض توفيق بعد أن أدرك ذلك، وسار بخطوات سريعة يستند على شيء يقابله حتى لا يسقط، متجها إلى غرف صغيرة بجانب القاعة الكبرى خصصت للنوم.

دلف إلى غرفته، وأعاد وضع المصباح مرة أخرى أسفل التمثال، فسقطت الكلمات المنيرة على الحوائط الأربعة بشكل أكثر وضوحا. كان جلال ومنصور لحقا به سريعا، ووقفا خلفه عند مدخل الغرفة ينظران تلك الكلمات.

امتلأ منصور بالحماسة الشديدة متسائلا:

. ماذا تعني تلك الرسالة المنحوتة في التمثال؟

رد جلال بكلمات متقطعة:

. في الحقيقة أنا لا أعلم أية لغة تلك، إنها تشبه الهيروغليفية لكن مع اتجاهات أخرى لانثناءات الحروف.

تولى توفيق الكلام منه سريعا قبل أن يعلق منصور:

. لا أحد منا يا منصور يستطيع قراءة تلك الرسالة، ولا أعرف شخصا على قيد الحياة يستطيع ترجمتها.

هز جلال رأسه في تعجب:

. وهل تعرفت على تلك اللغة يا توفيق؟

هز توفيق رأسه في يأس:

. نعم، إنها لغة الكهنة السرية.

منصور: وهل كان للكهنة لغة سرية أخرى تختلف عن الهيروغليفية؟

توفيق: نعم، قرأت مجلدا تاريخيا منذ سنوات في قسم اللغات هنا في المكتبة، كان يتحدث عن لغة سرية استعان بها كبار الكهنة، عندما كانوا يحاولون إيصال رسائل مهمة كي يضمنوا سريتها.

مسح جلال وجهه وعلامات الإنكار وعدم التصديق تكسوا ملامحه:

. يا الله، عشرون عاما في دراسة الآثار، وهذا أول سمع لي بتلك اللغة.

منصور: وما العمل الآن، كيف سنترجمها، أليس هناك كتب عنها هنا في المكتبة؟

توفيق: ليس على حد علمي.

سحب توفيق المصباح من أسفل التمثال، عندما صرخ جلال في نفس الوقت:

. انتظر يا توفيق، أعد وضع المصباح مرة أخرى.

فأعاد المصباح وظهرت الكلمات التي اصطفت في سطرين، اتجه جلال إلى جانب توفيق، مظللا بجسده على بعض الكلمات، وأشار إلى أول كلمة في أول سطر:

. انظر إلى تلك الكلمة.

توفيق: ما بها؟

جلال: إنها تلك الكلمة الموجودة على دائرة الأبراج التي حدثتك عنها سابقا، هل تذكر؟

توفيق: نعم، هذا يعني أن الكهنة قديما كانت لديهم رسالة في غاية الأهمية يريدون توصلها لنا في المستقبل، فلم يدونوها على رسائل بردي قابلة للإتلاف، بل نحتوها على المعابد والتماثيل، مع التأكيد من إخفائها جيدا.

تكلم منصور في يأس:

. وما فائدتها يا توفيق ما دام لا نعرف ترجمتها، إنها مثل تلك الألغاز التي نعثر عليها، ويغزونا الأمل حتى نكتشف أننا لا نستطيع الوصول لأي شيء من خلالها فنعود لليأس مرة أخرى.

. توفيق: سنمضي الأيام القادمة أنا وجلال في المكتبة، لا نفعل شيئا سوى البحث عن أية معلومات أو تراجم نستطيع بها أن نترجم تلك الرسالة.

الفصل التاسع والثلاثون

وقف حفاو أمام مغارة جبلية في منطقة معزولة تماما في سيناء، يتطاير جلبابه الأبيض من شدة الهواء، كان على ارتفاع كبير عن الأرض، ينظر إلى الجبال المحيطة مبتسما.

تلك الابتسامة التي ارتسمت على وجهه كانت بسبب اكتشافه لامرأة تكبره سنا ما زالت على قيد الحياة، كانت تعويذة بسيطة لكنه لم يفكر أن يقوم بها طيلة القرون الماضية له.

لكن الأحداث الأخيرة، وحاجته إلى المعلومات جعلته يفكر بطريقة مختلفة.

عندما قام بالتعويذة، ظهرت على المرآة التي أمامه اسم قد سبق أن سمع عنه عندما كان شابا.

"رعيف"

العرافة التي عصت الملك، وهربت إلى الجبال، فبعث وراءها حملة صغيرة لقتلها، وقد أتوا برأسها إلى الملك.

لكنها خدعت الجميع وما زالت على قيد الحياة، رؤيته لاسمها، ذكره بكل تلك القصص التي سمعها وهو صغير، قبل قصة العصيان، عن قوتها وبأسها، ونفاذ بصيرتها للمستقبل.

كان العامة يأخذون نبوءاتها بجدية شديدة، وتسليم كامل بأن كلماتها هي ما سيحدث في المستقبل.

وصل نفوذها عند الملك بمقدار يزيد على نفوذ وزيره وزوجته، وزادت أطماعها ورغم تنبيهات المقربين من الملك لما تطلبه رعيف لكنه

لم يلتفت أبدا للتحذيرات، ظلت الأولى في مجالسه، نصائحها تجري على كامل الدولة والجيش وكبار القادة حتى وصل الأمر بها أن تطلب من الملك أن يكون مدفنها عظيما كالأهرام.

ذلك المطلب الذي كان سببا في استبعادها وخسارتها كل شيء، عندما ثار الملك من طلبها، واستيقظ لطمعها، ومحاولتها الاستيلاء على السلطة.

وبخها في المجلس الملكي أمام الكل قائلا:

. لم يبني الملك لنفسه مقبرة كعظمة الأهرامات، وتريديني أن أوظف آلاف العمال لأبني لك مقبرة.

قررت الانتقام منه، وصورت للجميع أنها ليست غاضبة مما حدث، حتى أصدرت نبوءتها للملك أثناء محاربته للقبائل النوبية على الحدود، بشكل خاطئ حتى يخسر جيشه الكامل، لكن وزيره تنبه إلى خدعتها وأنقذ الجيش وأخبر الملك.

أصدر أمرا بالقبض عليها، لكنها هربت إلى الجبال، أمر بإرسال فرقة حربية وراءها، قد عادت له برأسها، ونسي الجميع رعيف بعد أن ظنوا بمقتلها.

استدار حفاو بعد أن تذكر قصتها وكل ما قيل عنها، ودلف إلى الكهف، يتمشى ببطء، يضرب عصاه في الأرض فتصدر صوتا مميزا.

كان الكهف كئيبا، جدرانه سوداء، تناثرت على جانبيه الهياكل العظمية لأنواع حيوانات كثر من الفئران إلى الغزلان والضباع.

وكلما تعمق داخل الكهف أصبحت الرائحة لا تطاق، اتخذ ممرا جانبيا ضيقا، أحنى رأسه حتى يتجاوزه ليصل إلى قاعة دائرية بها مبنى دائري صغير من الأحجار، بداخل بعض الأخشاب المحترقة.

التف بعينه في المكان فلمح خيالا صغير الحجم يقف في ركن من أركان الكهف لا يصل إليه ضوء النيران الخافت، ضرب بعصاه الأرض، فأنير الكهف كله بنور خرج من رأس الأفعى في أعلى العصا.

وهنا رآها..

رعيف..

لا يظهر وجهها من كثرة التجاعيد، ترتدي عباءة مهترئة، يتناثر شعر رأسها بشكل مخيف، أظافر يديها الطويلة شديدة الاتساخ.

لم تكن تحمل في هيئتها أية مظاهر آدمية، مظهرها يخيف الميت أكثر من الحي.

ابتسم عند رؤيتها، وترك العصا ليصفق لها بصوت تردد صداه في الكهف.

. لا أصدق عيناي "رعيف" المفضلة لدى الملك.

أعظم قارئة للنار

تلك التي خرجت كلماتها لتصير جبرا على المستقبل.

تحركت رعيف قليلا إلى الأمام، متحدثة بصوت رفيع زاد مظهرها رعبا:

. أنا أعرف جيدا من أنت، لكني لا أعرف ماذا تريد؟

. أنا لم أتي هنا لكي أؤذيك، إطلاقا.

ثم استدار في الكهف متأملا رؤوس الحيوانات المعلقة، والكتابات الغريبة على الحوائط، ثم واجهها قائلا:

. أنا أريد نبوءتك في أمور معينة؟

. إذا كنت قد عرفت أنني على قيد الحياة، فقد عرفت أنني توقفت عن التنبؤ منذ قرون.

. ستفعلين لأجلي، الآن لا يوجد من يطاردك، والكل ظن أنك قد قتلت منذ آلاف الأعوام.

. ولماذا أفعل لك شيئا؟

. لأنك تعلمين جيدا من أنا.

. نعم وما أراه أمامي أنك ما زلت محتفظا بصحتك ومظهرك وقوتك رغم كل تلك الأعوام.

ابتسم حفاو بخبث:

. ماذا تريدين في المقابل؟

. كل تلك المدة وأنا أتغذى على دماء الحيوانات لأبقى حية، لدي يقين أنك لا تفعل هذا، ومع ذلك أكثر قوة وشبابا مني؟

. إذا كنت تريدين الشباب والعمر المديد، هذا أمره سهل، ولكن هل ستعطيني ما أريد؟

. أنت تعلم من أنا جيدا.

. لك ما تطلبين.

. وأنت لك ما تطلبه.

. أريد أن أعرف مصير الكتاب..

قاطعته وهي تضحك بخبث:

. هل تظن أنني لو أعرف مكان الكتاب، كنت سأعيش في ذلك المكان أشرب دماء الحيوانات.

. أنا لم أسالك عن مكانه، بل سألتك عن مصيره.

ارتفعت النيران فجأة من مكانها في المنتصف، لترد عليه بصوت أجش يمر عبر النيران:

. أخفاه الكهنة جيدا بعيد عن أعين الكل، ولا يمكنني أن أعرف مكانه أو مصيره، وقد أخفوا مستقبله أيضا فلا استطيع التنبؤ لك إن كنت ستحصل عليه أم لا.

تغيرت ملامح حفاو إلى الغضب، لكنها أكملت لتعطيه ما يريد حتى تأخذ غايتها:

. لكن.. يمكنني أن أحذرك من قوة كبيرة تنمو في عالم البشريين، تلك القوى لم أر مثلها أبدا منذ أن حييت.

. هل تفوق قوتي؟

. ليس بعد، لكن إذا استمرت في النمو ستفوق قوتك وقوة أي بشري أو كائن من الأزل.

ضغط أسنانه في غيظ، متحدثا داخلة "حفيدة توفيق"، ثم صاح في العرافة:

. أكملي

. محاربة من المحاربين القدامى، حاملة لمفتاح الحياة، وحامية للكتاب، جندها "باك أن خنسو"

صمتت لثانية وأكملت بلهجة سخرية:

. أبوك

تكلم بصوت يملأه الغضب:

. إنه أبي بالتبني.

تجاهلته مستطردة:

. إنها تحمل قوة المحاربين القدامى. تتقلد مفتاح الكتاب. وحامية له، ها قد عرفت سرها الآن. كل ما عليك فعله أن تهزمها في المكان الذي تمت فيه مراسم تسليمها المفتاح وتقتلها. والجيد أنها لا تعلم كل القصة لتدرك حجم قوتها.

. والمكتبة؟ أريد تدميرها للأبد.

ارتفعت النيران إلى سقف الكهف، وتكلمت:

. قدم قربانا لأبيب.

. أنا أعلم هذا، لكن ما هو القربان اللازم؟

. يجب أن يكون أقدم عضو بالمكتبة، يذبح على بابها. بعدها تستطيع هزيمة الحارس بسهولة والدخول إلى قلب المكان وتدميره.

شعر بالغيظ. فلو كان يعلم ماهية القربان لقدم منى زوجة توفيق منذ ثلاثين عاما ودمر المكتبة.

انطفأت النيران وتكلمت رعيف بعد أن عاد صوتها طبيعيا:

. وفيت بوعدي لك. وحان الآن الوفاء بوعدك.

ابتسم حفاو ناظرا إليها، بينما ارتفعت رعيف في الهواء معلقة من رقبتها بشيء خفي، تضرب بقدميها الهواء لتتنفس:

. هل ظننت بسذاجتك أنني ساترك واحدة مثلك تعرف عني كل شيء، على قيد الحياة.

أنت أكثر كائن يحيا على وجه الأرض يعرفني. ويعرف نقاط ضعفي وقوتي، وهذا في حد ذاته نقطة ضعف لي، وأنا لا أحب أن أترك ورائي نقاط ضعف.

سبب تفوقي كل تلك الأعوام أنني طمست كل شيء عني لأبقى مجهولا ومهابا من الجميع.

ما لا يعرفه الناس يصبح مصدر خوف.

كل ما أردته في تلك اللحظة أن أنظر لوجه الملك وهو يعلم أن رعيف ما زالت على قيد الحياة ومقتلها سيكون على يدي أنا.

أدار يده في الهواء، فانفصلت رأسها عن جسدها وطارت في ركن من أركان الكهف.

وغادر الكهف مبتسما، وهو يظن أنه قد علم كل شيء..

الفصل الأربعون

وقف حسام أمام غرفة الاستجواب في مبنى مديرية الأمن، منتظرا إبراهيم ينتهي من مهمته، وقفت بجانبه سارة تنظر إلى ملف القضية في قلق لاحظه عليها حسام:

. ما بالك قلقة، عليك أن تبتهجي أنت السبب في كشف غموض القضية.

. نحن لم نحصل بعد على أجوبة واعترافات، وربما لا تنجح خطتنا، وحتى إذا حصلنا على اعتراف كامل، لن نعرف من قتل ضاحي.

. يكفي أننا كشفنا الغطاء عن جريمة قتل الأطفال، والتزوير، والحقيقة لولاك لما وصلنا إلى هنا.

. متى قبضتم عليه؟

. حالما انتهى منه إبراهيم.

وغمز لها بعينه مبتسما.

ابتسمت محاولة وضع قلقها جانبا، وشعور الاطمئنان الذي كان باديا على وجه حسام جعلها أكثر ثقة.

صمتت لدقيقة، وعادت لتتحدث إليه:

. هل تعتقد أنه سيتحدث؟

. إلي حد كبير، لقد ضربنا الحلقة الضعيفة، كان علينا إيجاد شيء يخشاه أكثر، حتى يتحدث، والباقي دلائل جنائية، فقد فتشنا المنزل، ووجدنا الجلباب وعليه الدماء.

. ماذا إذا خاف من الاعتراف على شريكه؟

نظر لها بابتسامة أكبر ليحاول طمأنتها:

. لا تقلقي ظني أنه سيتكلم، وحتى إذا لم يعترف لدينا من الأدلة لتدين شريكه بالمشاركة في كل شيء.

ما بالك قلقة؟

. لست قلقة، فقط أريد أن يتم مجازاة الجاني، يكفي أننا لن نستطيع القبض على قاتل ضاحي، وهذا ربما يكون سبب إحباطي الأكبر.

. طوال مدة خدمتي تعلمت شيئا واحدا، أن اقتنع بما لدي من نقاط الفوز، طالما بذلت فيها أقصى مجهود.

صدقيني لولاك لما حللت تلك القضية، بالطبع كانت ستكون لدي شكوك كبيرة، لكنني لم أكن لأؤكدها كما فعلت.

لمح حسام، إبراهيم من بعيد، يتجه نحوهم بخطى سريعة:

. ها قد أتى إبراهيم ، وحان وقت المتعة.

. هل تسمي استجواب المتهمين متعة؟؟

. نعم، أنا أملك كل شيء ضدهم، في الحقيقة لا أذكر أن متهما هرب من تحت يدي طوال مدة خدمتي.

نظرت له نظرة غيظ قائلة:

. هل ستعود إلى التباهي مرة أخرى، لأنني يمكنني فعل ذلك وأنت تعلم أني جيدة به.

قطع حديثهم إبراهيم:

. المتهم في غرفة الاستجواب.

سارة: هل كنت تضع المكياج يا إبراهيم؟

مسح إبراهيم بيده على وجهه بتوتر:

. نعم لقد كان جزءا من الخدعة، لقد غسلت وجهي عدة مرات وهذا الشيء لا يزول.

أو، لهذا السبب كان يضحك علي كل عسكري مررت به هنا.

ضحكت سارة:

. المكياج لا يزول بالصابون هناك غسول خاص يزيله، سأعطيك بعضا منه بعد أن ننتهي.

حسام: هل المتهم جاهز نفسيا؟

إبراهيم: جدا، أنه يتعرق، وينظر حوله بريبة كل دقيقة تقريبا، ويداه تنتفضان.

حسام: جيد، هيا بنا يا دكتورة.

الفصل الحادي والأربعون

دخل كلاهما غرفة الاستجواب الكئيبة، تلك الغرفة التي صممت خصيصا كي تستفز كل من يجلس بها.

الإضاءة الضعيفة، فتحة التهوية الضيقة التي تدخل الأكسجين بكميات تكفي فقط لتبقيك على قيد الحياة، انعدام الألوان من جدرانها، يقتل الضوء المنعكس عليها فيزيد من كآبة الغرفة، وأخيرا المقعد غير المريح على الإطلاق، الجالس عليه يشعر بآلام تفوق آلام الوقوف لساعات، حتى يصبح كل تفكيره متى سأنهض من على هذا المقعد.

جلس حسام في كرسي ليواجه المتهم، وكالعادة اختارت سارة كرسي في زاوية الغرفة حتى لا تكون مصدر تشتيت.

بدأ حسام بالحديث:

. هل تعلم يا لطفي، أنك كنت مكشوفا أمامنا منذ اللحظة الأولى، فقط أجلنا التحقيق معك واستجوابك حتى نجمع كل الأدلة التي نحتاج إليها، في الحقيقة أنا لست بحاجة أساسا إلى استجوابك.

لكنني لكوني متأكدا أنك لم تقتل هؤلاء الأطفال، وكل ما فعلته هو تزوير الآثار والاتجار بها فقط، حتم على ضميري أن أحاول معك محاولة صغيرة ربما يكون لديك عقل وتعترف وتتجنب تهمة القتل.

تكلم لطفي بكلمات مرتعشة لا تقنع شخصا عاديا ليس لديه أي مهارة في قراءة البشر:

. أنا لم أفعل أي شيء، قد حققتم معي ومع زوجتي وفتشتم بيتي ولم تجدوا شيئا، أي دليل لديكم.

فهم حسام أن تلك الكلمات ليست منه، وإنما قيلت له، لقد غسل عقله وعليه أن يكون أقوى حجة. فتح ملفا كبيرا أمامه ونظر إليه نظرة أشد قسوة حتى يزيده ارتباكا:

. في البداية وجدنا في منزلك جلبابا تم غسله، عليه آثار دماء بشرية، فالدماء لا تزول بالغسيل ويمكن للطب الشرعي اكتشافها بسهولة، بالطبع هو جلبابك، والقانون يقول أنك أنت القاتل، فإذا أردت أن تحاكم على تلك التهمة دون الاعتراف على زوجتك.. لك في هذا مطلق الحرية.

تحدث لطفي بعصبية:

. زوجتي ليس لها أي دخل بتلك القضية.

. في الحقيقة زوجتك فعلت كل شيء لم تكن لأي امرأة أن تفعله، أرادت أن تقول لنا إنها ليس لها يد في أي شيء، لكن الرسالة التي وصلت لنا أنها متورطة كليا في كل شيء تقريبا.

علي غير عادة النساء لم تكن زوجتك فضولية، ولم تسأل على أي شيء أثناء زيارتنا لمنزلك، بل كانت ذا أعصاب فولاذية، لا خوف في وجهها ولامبالاة كبيرة في تصرفاتها.

زوجتك لم تسألنا عن سبب الزيارة، ولم نخبرها بسبب التحقيق، لكنك أخبرتنا في المعبد أنك علمت منها بأننا نحقق في مقتل ضاحي، والوحيد الذي كان يعلم تلك المعلومة من أهل القرية هو جعفر اللحاد.

فما العلاقة بينه وبين زوجتك حتى يحذرها أننا نحقق في مقتل ضاحي رغم تحذيرنا له أن يبقى الأمر سرا.

قاطعة لطفي بغضب، بعد أن فهم تلميحات حسام التي قصدها ليستفزه:

. ليس بين زوجتي وبين جعفر أي شيء، القرى تنتشر فيها الأخبار بسرعة كبيرة.

ابتسم حسام ليثير غيظه أكثر:

. لقد قام جعفر بدفن جثث الثلاثة أطفال التي قتلتهم زوجتك، ونحن نعلم جيدا أنه كان يتقاضى مبلغا ماليا كبيرا، إلى جانب البيت الكبير الذي تسكن فيه دون ورث، مصدر دخلك الوحيد هو مرتب الحارس، وزوجتك لا تعمل.

من أين لك المال؟

سؤال دار في ذهني، حتى وجدت دكتورة الآثار المرافقة لنا في غرفة صغيرة بمنزلك آثار احتراق شديدة في الحائط لا تنتج من أفران الخبز، بالإضافة أنكم تضعون أفران الخبز في طابق ذي سقف مفتوح حتى تذهب حرارته، بجانب آثار للمناضد في الأرضية تم التخلص منها أيضا مع الفرن.

والقطعة التي أكملت باقي اللغز هي الديكة الرومي التي تربيهم في منزلك.

إلي هنا وكان لطفي يتصبب عرقا، ويتلفت حوله كل دقيقة، حديث حسام كان يقوده للانهيار في التحقيق، إلا أن حسام رأى أنه يحتاج مزيدا من الضغط، فأكمل:

. أخبرتني دكتورة الآثار بشيء مثير جدا، أن الجعارين المصرية تلقى رواجا شديدا لدي السياح، فما بالك إذا كانت أثرية، ستباع بمبالغ خيالية، فلجأت لحيلة قديمة جدا، قد أثارت اندهاشي للغاية.

تقوم بنحت الجعران وتدخله الفرن لتطليه بمواد تعطيه لمعانا، ثم تطعمه للديكة الرومي، حتى تقوم العصارة الهضمية لذلك الطائر بتغيير الشكل العام للجعران لتكسبه قدما وأثرية لا تستطيع عين الخبير من التفرقة بينه وبين الأصلي.

بعدها تقوم ببيعه بأسعار خيالية، ولم يكن أحد ليشك فيه، لأنك تجيد النحت، وهو ما دعا دكتورة سارة لسؤالك إذا كنت تملك أرضا أم لا، لأن يديك تحملان الكثير من الندوب والجروح التي تدل على عملك المستمر في شيء ما.

فما الذي كنت تعمل به؟ إذا كنت لا تملك أرضا زراعية؟

حراسة المعابد لا تتطلب عملا باليد.

وجدنا الفرن وأدوات النحت والمواد المستخدمة فيها في بيت فارس وكمية كبيرة من الجعارين التي قمت بإطعامها للديكة الرومي، وكمية أخرى لم تكمل تصنيعها، نعلم أن الرجل لا يشترك معكم في شيء لكن تورط عندما ساعدكم في إخفاء أدوات التزوير.

أما قتل الأطفال فهو مثبت كما قلت لك.

وغدا سيقول المعمل كلمته في المواد التي وجدت في بيت فارس وتلك العينات التي جمعناها من منزلك، والسؤال هنا..

هل ستعترف وتنجو بنفسك من عقوبة القتل، وربما تنال تخفيفا لعقوبة المتاجرة في آثار مزورة.

أم تريد أن تحاكم على جريمة القتل بالإضافة لجريمة المتاجرة في آثار حقيقية، لأننا حينها سنعتبرها آثارا حقيقية.

نظر لطفي إلى يده المرتعشة، وأغمض عينيه محاولا تمالك أعصابه، فلا شيء بقى مخفيا.

طالت فترة صمته، فقرر حسام أن يلعب على الحيلة الأخيرة:

. يمكنك أن تحل كل شيء ببساطة وأن تنجو بنفسك.

صدقني أن لم تتكلم معي، سأتركك لتتكلم مع أصدقائي الضباط، ويمكنني إخبارك أن أسلوبهم مختلف تماما في الاستجواب، وستجبر على قول الحقيقة أيضا في النهاية، لكن بأسلوب لن تحبه أبدا.

مسح لطفي وجهه بيديه، عض شفتيه مرتبكا:

. منذ صغري كنت أعمل بنحت التماثيل والجعارين وبيعها للبازارات بأثمان رمزية، حتى ساعدني عم ضاحي في وظيفة الحارس، وبعد زواجي كنت أسكن بيتا صغيرا من الطين على أطراف البلدة، استمررت في صنع التماثيل ولكن بكميات أقل بسبب ضيق الوقت، حتى جاءت الثورة وانعدمت السياحة تقريبا وانعدم الطلب على تماثيلي، واجهت أنا وزوجتي ضائقة مالية شديدة، حتى أتت يوما وأخبرتني بتلك الطريقة الشيطانية في تزوير الجعارين.

كانت الجعارين الأصلية كنزا بالنسبة للسياح وثمنها أقل نسبيا من أي أثر آخر إذا أرادوا شراءه.

قمت بصناعة ثلاث قطع وأطعمتها لديك رومي جلبته لي زوجتي بعد أن استدانت لتشتريه، قمت بعرضهم على عدة سياح في المعبد.

كنت مندهشا أنهم لم يكتشفوا أنهم جعارين غير أثرية، ودفعوا فيهم ثمنا كبيرا.

أقنعتني زوجتي بعد كثير من المجادلات في الاستمرار، حتى نشتري لنا بيتا جديدا، ونعيش عيشة كريمة، حتى اكتشف عوض أمين الشرطة الذي يعمل معي بالمعبد ما أفعله، وطالبني بحصة في المكسب في مقابل حمايتي من الشرطة وجلب زبائن لي من السياح ممن يبحثون على تلك السلعة.

. بالطبع، ومن غير شرطي يستطيع قتل مسجون دون أن يشك فيه أحد.

رفع لطفي يديه ليحركهم في شكل دائري مدافعا عن نفسه:

. لقد أخبرنا أن جعفر سيعترف علينا.

. وما علاقة قتل الأطفال بكل هذا يا لطفي؟

. أخبرتني زوجتي أن من أعطاها تلك الطريقة هي كائن من الجن، وأنها طلبت قربانا لنستمر فيما نفعله وإلا ستقتلنا جميعا، لم يتردد عوض في الموافقة، رغم رفضي بشدة.

لكن زوجتي أخبرتني أنه إما هؤلاء الأطفال أو نحن، قالت إنها ستقوم بكل شيء.

قبل مقتل ضاحي بعدة أيام جلب لها عوض الثلاثة أطفال، ضحت بهم في نفس الليلة، وتكفل جعفر بإخفاء الجثث.

. وماذا عن ضاحي؟ ماذا كانت علاقته بالأمر؟

. كان عم ضاحي رحمه الله يعلم بموهبتي، وحذرني كثيرا من طريق الشر، وهذا كان سببا في القطيعة قبل مقتله، لأنه علم بطريقة ما، أنني أتاجر في الآثار المزورة.

عم الصمت الغرفة، كان حسام يريد سؤاله عن ذلك القرص الذهبي، لكنه أراد أن يصوغ السؤال بحرفية لأن كل اعترافات لطفي يتم تسجيلها، لكن سارة لم تمهله الوقت وتدخلت في الاستجواب:

. هل لاحظت يوما أي شيء غريب في عم ضاحي، وأنا أعني أي شيء؟

تردد لطفي في نظراته بين سارة وحسام، ظهرت عليه الحيرة والخوف.

حسام: تكلم، لا تخف سنصدق أي شيء.

لطفي، في الحقيقة كان هناك حادث غريب منذ عدة شهور، كنا نتولى الوردية الليلية أنا وعم ضاحي، كنت مرهقا وذهبت في نوم عميق.

عندما استيقظت لم أجد عم ضاحي إلى جانبي، فكرت أنه ببيت الراحة، لكن مدة غيابه قد طالت.

ذهبت لأبحث عنه معتقدا أنه ربما يكون قد حدث له شيء، كانت له غرفة مفضلة في المعبد يحب الجلوس بها لساعات، فكرت أنه ربما يكون قد ذهب هناك.

عندما وصلت شاهدت شيئا لا استطيع وصفه، فتحة في جدار الغرفة كالباب، يخرج منها نور شديد، فكرت أن أذهب لأرى ما وراء الباب، لكنني كنت خائفا.

لا أعرف تحديدا كم مر علي من الوقت حتى رأيت عم ضاحي يعبر ذلك الباب إلى داخل المعبد، وأشار بيده فانغلق الباب وانطفأ النور.

لكنني تنهت إلى قرص ذهبي معلق في رقبته، شيء في غاية الإبداع، لا يمكن أن تصنعه يد نحات أو صائغ اليوم، استدرت وعدت سريعا إلى مكاني متظاهرا بالنوم وأنا يتملكني الخوف من جهته.

والآن أنا أراه في كل مكان، مستيقظا أو نائما، يطاردني بالذنب، لقد قلت كل شيء ربما يريحني ويرحمني قليلا.

ظهر على حسام بعض الحيرة، كل ما أخبره به لطفي يتفق مع ما قالته سارة وشقيقة ضاحي.

ساره: هل أخبرت أحدا بما رأيته؟

تردد لطفي، ونظر إلى الطاولة التي يجلس عليها:

. قصصت على زوجتي ما حدث ولم تصدقني، ويمكنني أن أقسم لك أنها ليس لها يد في قتل عم ضاحي، بل كانت تحترمه وتحبه.

أغلق حسام الملف أمامه بغضب، بعد أن تأكد له سيناريو القرابين الذي اقترحته عليه سارة.

إن آمال قد كذبت على الجميع، استغفلت زوجها وعوض أمين الشرطة، وحاولت استغفالنا نحن.

الفصل الثاني والأربعون

أتى إبراهيم مسرعا عندما لمحهما خارجين من غرفة الاستجواب، وبادر بالحديث:

. هل نجحت خطة الشبح، أخبروني أن معاناتي من المكياج أتت بفائدة؟

حسام: نعم يا إبراهيم، لقد أخبرنا مباشرة أنه يرى ضاحي في أوقات الصحوة والنوم أيضا لذلك اعترف، لقد سببت له الكوابيس.

إبراهيم: جيد لأني عانيت لأنفذ تلك الخدعة عليه.

حسام: الآن أريدك في شيء أكثر أهمية، لقد اعترف لطفي أن عوض أمين الشرطة الذي يعمل بالمعبد كانت له يد كبرى، هو من جلب لهم الأطفال، وهو من قام بقتل جعفر، أريده في الحجز اليوم.

هز إبراهيم رأسه في ضيق:

. لم ارتح لذلك الشخص عندما قابلته في المعبد، سأذهب لأقبض عليه بنفسي مع قوة من المديرية.

غادرهم إبراهيم، عندما لاحظ حسام صمت سارة.

كانت قد التقطت أذناها كلمة لطفي عندما أخبرهم أنه كان يعيش في بيت قديم، ربطت بين تلك المقولة وما رأيته في رؤيا سابقة.

المنزل القديم وتلك الفتاة التي قتلت ضاحي عندما رأتها جالسة في الغرفة تتحدث إلى شخص ما، أخفته الجدران.

كان من السهل تخمين من التي كانت تتحدث إليها.

بالطبع زوجة لطفي هي من فضحت أمر ضاحي.

حسام: إلى أين ذهبتِ؟ ما زال لدينا أفعى نستجوبها.

تنهدت في حزن:

. سامحني لكن لا اعتقد أنها ستتحدث، جيد أنك تملك الأدلة اللازمة، إذا اعترف عليها عوض، انتهى أمرها.

لكن شهادة زوجها فقط لا تكفي.

هز حسام رأسه في قلق:

. ربما، لأنني أملك شهادة زملاء ضاحي وقت مقتل الأطفال كان بالمعبد معهم.

. سيشكك المحامي في وقت القتل، ولا تنسى أن الأطفال قتلوا بجانب المعبد، وهذا يورط لطفي أكثر.

. لكن كاميرات ذلك اليوم ليلا رصدت لطفي برداء مختلف عما وجدنا عليه الدماء وتلك نقطة قوة.

قالت متشككة:

. ربما، لكن يظل موقفها أكثر قوة ما دام لم تحصل على اعترافها أو اعتراف عوض.

قال بيأس:

. لا يوجد ما يجرم عوض سوى حديث لطفي، وهو شرطي يعلم تماما القانون، وفي رأيي لن يتكلم وسينكر كل شيء.

إلا إذا..

نظرت له سارة، والقليل من الأمل اشتعل بداخلها، استطرد:

. يمكنني الحصول على قائمة المكالمات للثلاثة متهمين، إنها حجة قوية في المحكمة، وسأطلب من إبراهيم تفريغ كاميرات المراقبة بالشوارع التي يقيم بها الأطفال الثلاثة وبيت لطفي وعوض والشوارع المحيطة أيضا، لا يوجد شارع الآن لا يحتوي على كاميرا على الأقل للمراقبة.

لا تقلقي في النهاية لن يخرج مذنب إلى الشارع مرة أخرى.

أمسك بهاتفه واتصل بإبراهيم طالبا منه إفراغ كل كاميرات المراقبة بالقرب من منازل الأطفال الثلاثة ومنزل لطفي وعوض.

أغلق الهاتف، وهو ينظر ملامحها الحزينة.

كان يعرف السبب، فتحدث إليها محاولا إزاحة الحزن عنها:

. أنا أعرف أنك جئتِ هنا من أجل حق عم ضاحي، لولاك لما عرفنا بكل تلك الجرائم من الأساس، ولولا شدة ملاحظتك ووصفك لمرتدي العباءة الذي قتل الأطفال، لما استنتجت إنها امرأة، وظللت على ظني أن لطفي قام بكل شيء.

ما فعلناه فوز كبير، ولولا مجيئنا هنا وتقليب الأوراق عليهم لظلوا هانئين يقتلون ويتاجرون دون رادع.

قابلت حديثه بالصمت، والوجوم.

قرر أن يستفز عقلها بطريقة أخرى حتى يخرجها من حالة الحزن:

. لم تسأليني كيف صنعت شبح ضاحي؟

ابتسمت ابتسامة خفيفة، لأنها فهمت طريقته التي يحاول بها أن يجعلها تبتسم:

. إنها خدعة "شبح المسرحيات"، أعطني لوحا زجاجيا ومصباحا كهربائيا ويمكنني أن أريك كل ما تهابه من الأشباح.

. كنت على يقين أنك تعرفينها.

. ولماذا سألتني؟

. حتى تبتسمي بالطبع.

مسكين إبراهيم، سأذكره يوميا أنه وضع المكياج يوما ما، وبالتأكيد سأستغله كثيرا في سبيل أن أبقي ذلك سرا عن زوجته، ضحكت سارة متناسية للحظة همومها، وسألته:

. ماذا الآن؟

. حان دور آمال، هل ستحضرين معي الاستجواب؟

. نعم، بالطبع.

الفصل الثالث والأربعون

جلس حسام نفس جلسته مع لطفي أمام آمال، في غرفة شبيهة بتلك التي استجوب فيها زوجها.

كانت أكثر ثباتا وقوة من زوجها، ملامحها تحمل تحديا وثقة كبيرين، تعجب حسام في داخله من أن امرأة لا تهاب الشرطة بينما فعلها الرجال.

فتح أمامها ملفا ضخما، وابتسم ابتسامة واسعة ليستفزها، ويهز ثقتها.

. أنا آت من عند زوجك، وقد أخبرنا بكل شيء تفصيليا، في الحقيقة لم أجد أي سبب لأكذبه، لأنك قد ارتكبت العديد من الأخطاء في أول مرة ذهبنا للتحقيق في منزلك.

كانت تنظر إليه نظرة فاترة خالية من أية تعبيرات، قرر مهاجمتها بالأسئلة ليصطاد الأخطاء منها:

. كيف عرفت أننا نحقق في مقتل ضاحي على الرغم أننا لم نخبر أحدا؟

ردت بتكاسل ولا مبالاة:

. لقد أخبرتوني عند قدومكم لتفتيش المنزل.

. لم يحدث أنك سألتِ أي أحد منا لماذا نفتش المنزل، كيف عرفتِ بأمر التحقيق رغم تكتمنا عليه؟

قابلته بالصمت، فاستطرد:

. لا يهم إجابتك، لأننا سنثبت أن مكالمة جرت بينك وبين جعفر وهو الوحيد في ذلك الوقت الذي كان يعلم بأمر التحقيق.

ردت عليه في برود:

. وماذا في ذلك، الرجل كان يعمل لحادا، وأهل البلدة كلها يعرفونه، ما العيب في معرفتي به، أو حتى اتصاله بي ليخبرني بأمر ضاحي.

ابتسم حسام مجددا:

. لا شيء، أنا فقط أثبت الوقائع، وقد أثبت الآن أنك كنت تعرفينه جيدا.

هل كنت تعلمين أن زوجك يقوم بتزوير الآثار وبيعها على أنها أصلية، مع العلم أنه كان يفعل ذلك في المنزل الذي تعيشين فيه معه؟

هزت رأسها نافية:

. ظننت أنها عادية يصنعها ليبيعها في البازارات كما اعتاد.

تراجع حسام بظهره إلى الوراء وما زالت الابتسامة تعلو وجهه

. لكن شقيقك فارس اعترف أنك نقلت كل أدوات زوجك إلى منزله لأنك خفت من الشرطة أن تكتشف عمل زوجك في التزوير.

. لا أعرف شيئا عن التزوير، لكني نقلت الأشياء حتى أفسح مكانا في المنزل.

. شهادة شقيقك وزوجك ضد شهادتك، بالتأكيد أنتِ الخاسرة وتلك أول تهمة ستحاكمين عليها.

هل تعرفين أمين الشرطة عوض؟

ترددت قليلا في الإجابة:

. نعم أنه يعمل مع زوجي؟

. وما طبيعة العلاقة بينك وبينه؟

زفرت في ضيق:

. إلقاء التحية عند رؤيته، تلك هي كل علاقتي به.

. وماذا عن الاتصالات المسجلة بينك وبينه؟

. كنت أطمئن على زوجته؟

قرر أن يستخدم ورقة المكالمات بقدر أكبر حتى يزيد إرباكها:

. وهل هذا يشمل اتصالات في وقت متأخر؟

التزمت الصمت، وهي تنظر إليه، بعدما ظهر القلق على وجهها:

. لقد وجدنا في منزلك جلبابا تم غسله، لكن به آثار من الدماء البشرية، أخبرنا زوجك أنك كنت ترتدينه عندما قتلت الأطفال الثلاثة.

رفعت حاجبيها في خبث:

. أنا لم أقتل أحدا، وبالطبع لم ارتدي جلباب زوجي، يجب أن تسألوه هو عن القتل، أنا لم أفعل شيئا.

. اعترف أنك صممت على قتل الأطفال الثلاثة حتى تستمر تجارته، وأن عوض هو من قام بخطف الأطفال وتسليمهم إليك.

. أنه يكذب أنا لم أقتل أي أطفال.

حك حسام ذقنه، وقد حافظ على ابتسامة وجهه، رغم غيظه من ثباتها، وقوة أعصابها:

. من أين لكم المال ليشتري زوجك بيتا جديدا، ويملأ الحساب البنكي لك وله بكل هذا المال.

. لقد كان يعمل بالمعبد، وقد كنت أظن أنه كان يعمل بنحت التماثيل وبيعها للبازارات.

. هل تعلمين يا آمال، أنا لم أكن بحاجة إلى استجوابك وسؤالك، كل شيء ضدك.

شهادة زوجك

شهادة أخيك

نكرانك لمعرفة حقيقة عمل زوجك الذي لن يصدقه قاض على وجه الأرض.

الاتصالات بينك وبين جعفر

والاتصالات بينك وبينك عوض

وأخيرا هل كنت تعلمين أن أغلب شوارع دندرة تحتوي محلاتها على كاميرات مراقبة.

أنا في الحقيقة لا أريدك أبدا أن تعترفي، وأن تنالي محاكمتك وسجنك هنا في محافظتك لتواجهي أهالي وأقارب الأطفال الثلاثة.

وأنت تعلمين جيدا كيف سينتهي هذا.

في النهاية أنا لا أنشد سوى العدالة، وللعدالة طرق كثيرة أحيانا تكون خارج نطاق القانون.

تغيرت تعبيرات وجهها بعد أن فهمت تلميحاته باحتمال أخذ أهالي الأطفال بالثأر منها، وظهر الخوف على ملامحها لأول مرة، زاد حسام في ابتسامته لها قائلا:

. وأنت تستحقين كل ما سيحدث لك، كما تعلمين جعفر قد قتل في قسم الشرطة، الآن لم يعد هناك مكان آمن لك.

لقد كنت العقل المدبر لكل شيء.

تلاعبت جيدا بزوجك وعوض، ليفعلوا كل ما تريدينه، وأنت على ظن كامل أنه لن يشك بك احد.

نهض متوجها إلى الباب، لكن سارة اتجهت إليها بخطى سريعة، وتوقفت أمام المنضدة ناظرة إليها:

. أخبري تلك القاتلة التي تتعاونين معها، أنني أعرف وجهها جيدا، ويوما ما سآخذ بثأر عم ضاحي.

كان حسام في انتظارها أمام الباب، خرجا معا عندما مال عليها متحدثا بصوت هامس:

. لا أوافقك الرأي أبدا فيما فعلتيه.

. ثق أنني أزن كل كلمة خرجت مني لتلك المرأة .

الفصل الرابع والأربعون

في اليوم التالي، قررت سارة الذهاب إلى معبد دندرة للمرة الأخيرة قبل سفرها لتهدأ من روحها، عندما أخبرها حسام أنه وإبراهيم سيتفحصان كاميرات المراقبة، ويرتبان الأدلة بشكل متقن حتى لا يفلت أحد منهم.

كان المعبد هادئا ذلك اليوم، القليل من الزوار، وصلت باكرا الساعة التاسعة صباحا، وتجنبت الحديث مع الضابط محمود وباقي الحرس من أصدقاء ضاحي.

كانت تحمل حقيبتها العلمية، التي تحتوي على الكاميرا وبعض قفازات الأيدي، كتابين ومفكرة لتدوين ما ترغب في تدوينه.

تجولت في المعبد، متجنبة ذلك الطريق الذي مرت به تلك المرأة عندما قتلت ضاحي، صورت صورا كثيرة للنقوش، وبخاصة سقف المعبد الذي يشبه ألوانه زرقة السماء.

لم تترك ركنا في المعبد لم تقف أمامه وتفحصه، تلك الهبة التي نالتها عندما ارتدت القلادة، وهي قراءة اللغة الهيروغليفية دون حاجة إلى ترجمتها، كانت تزيد من متعة التجول في أي مكان أثري.

كل شيء يقرأ بسهولة، ويفهم سريعا، لا تحتاج إلى الترجمة والتخمين، وتلك القواميس المنهكة لقراءة نص ما.

بقي لها تلك الغرفة التي احتوت على البوابة، وقفت أمام مدخلها كثيرا تفكر في تردد ما إذا كانت تدخل وتصور المكان كما فعلت، أم أنها ستتذكر مرة أخرى ما حدث.

شجاعتها وجرأتها بالطبع تغلبا على الجدال النفسي الذي اشتعل بداخلها.

خطت بداخل الغرفة، وتوقفت تماما أمام البوابات النجمية، وهي عبارة عن بوابتين متجاورتين على شكل مستطيل غائر بداخل الحائط.

وقفت أمامها قليلا، تفكر فيما قرأته وحفظته عن تلك البوابات، لقد اعتادت على أمور السحر وتعاويذ القوى الخفية، لكن تلك البوابات ذات بعد علمي يفوق ما وصلنا إليه اليوم.

العودة للماضي، الانتقال إلى أكوان أخرى، وأبعاد أخرى.

حديث يمكن أن يعطيك لقب المجنون في ثوان، إذا حاولت التحدث به أمام العامة.

سرقتها أفكارها حتى أنها لم تلاحظ ظهور القلادة على جيدها، ولم تشعر بالثقل الذي زاد على رقبتها إلا بعد أن لاحظت جدار إحدى البوابات يتلاشى بالتدريج، لينفجر منه ضوء شديد، وضعت يدها على رقبتها لتجد القلادة.

وقبل أن تفكر في رد فعل، سحبتها البوابة إلى الداخل وعاد كل شيء إلى مكانه في ثوان قبل أن يلاحظ أحد ما جرى.

قذفت في مجرى ضوئي استمر في سحبها عبر ممر لولبي، دارت معه حتى سقطت على أرض خضراء.. حشائش.

هذا ما ترجمته ملامسة يديها للأرض التي سقطت عليها، تنفست بشكل بطيء، يحاول عقلها تقبل فكرة أنها عبرت البوابة بالفعل، والأدهى بدون مفتاح.

نهضت بشكل بطيء تتأمل المكان حولها.

النجوم في السماء شديدة القرب، كبيرة الحجم، رائعة الجمال، شدة بريقها تعطي نورا مشابها للشمس.

وحولها معبد مصري قديم، لكنها لم تره في أي مكان بمصر من قبل، أعمدة ضخمة، نقوش وألوان زاهية.

تأملت الكلمات، فوجدت تدوينا لأسماء ملوك مصر الذين حكموا قديما، تحركت لتقرأ وتعرف أكثر لكن صوت خلفها جعل قدميها تتوقفان، واستدارت سريعا، لتنفتح عيناها على أخرهما في دهشة:

. عم ضاحي؟ كيف؟

. سيدتي أنا أتذكرك جيدا، كيف أتيت إلى هنا؟

. عبر البوابة.

ظهرت ملامح الدهشة على ضاحي أكثر منها:

. وكيف استطعت عبورها.

رفعت القلادة المعلقة برقبتها لتريه إياها:

. تلك القلادة اختطفتني عبر البوابة، أنا لم أطلب ذلك.

لكن..

كيف لي أن أراك وأنت..

ترددت قليلا قبل أن تنطقها

أنت رحلت يا عم ضاحي.

. أنا في ممر زمني للموتى، اعتدت أن أقابل فيه والدي وجدي.

إذا كانت البوابة أتت بك إلى هنا لرؤيتي، فلابد أن يكون هناك سبب قوي لذلك.

وقفت صامتة في حيرة، لم تتخيل أبدا في يوم ما أنها ستقابل ضاحي، فبالطبع لم تفكر في سؤال واحد منطقي سوى تلك المرأة التي قامت بقتله:

. من تلك التي قامت

صمتت لشدة حرج السؤال، سؤال هزلي لا يمكن أن يفكر به عاقل.

. لماذا أرادت المفتاح؟

. أخمن أنها تتبع العدو الذي نطارده منذ قرون.

. من هو يا عم ضاحي، قل لي؟

هز ضاحي رأسه في يأس:

. كل ما أعرفه أنه كان متمردا ضد الملك، عاش قرونا يبحث عن شيء ما من كنوز العصر القديم.

خطر في بالها أن تسأل عن جدتها:

. هل تعرف الدكتورة منى، جدتي؟

. نعم، بالطبع.

قالت بلهفة ظاهرة في صوتها:

. ماذا أعطيتها يا عم ضاحي؟ على ماذا احتوت تلك الأوراق؟

تكلم الرجل بحزن ووجوم:

. كان ذنبي وغلطتي أن أعطيتها تلك الأوراق، لم أكن أعلم أبدا أنها ستتسبب في قتلها.

تلك الأوراق كانت مذكرات دونها جدي الأكبر وأبي عن ذلك الرجل الذي نحاربه. كان تاجرا للآثار في القديم، كان ذكر اسمه كفيل بزرع الرعب على مستمعيه، كان يطلق على نفسه اسم "منذر" لكن هذا لم يكن اسمه الحقيقي بالطبع، دون جدي بعض المعلومات التي جمعها من البوابة عندما كان يسافر للماضي.

مثل أن هذا الرجل كان ابنا لأحد الكهنة الكبار.

يملك قوة وسحر كبيرين، وكان لهم دور رئيسي في تدمير الكثير من الآثار، وطمس حقائق وتدوينات دونها الكهنة ضده لتوعية وتنبيه الآخرين.

فأصبحت المعلومات قليلة جدا عنه.

بالطبع قامت جدتك بالبحث، ولا أعرف حقيقة ما توصلت إليه، لكن عندما قرأت عن طريقة موتها عرفت أنه هو.

.كيف؟ وأنت تقول أنك لا تعرف عنه أي شيء.

. قتلت جدتك بلدغة ثعبان ضخم جدا، هذا ما ذكرته الصحافة، وكتب عن هذا الرجل أنه كان تابعا لأبيب، متحليا بقوته.

ربطت الاثنين معا.

بدأت صورته في الاهتزاز أمامها، وفتح ثقب بجانبها بدا في سحبها إلى داخله، فعلمت أن البوابة تعود بها إلى زمنها الحاضر.

لكن ضاحي رفع يده قبل أن يختفي، وهو يقول لها:

.كان هناك ذكر لنبوءة كتب عنها كبير الكهنة.

صرخت سارة بصوت عال وهي تقاوم انسحابها إلى الثقب:

. أية نبوءة؟

عن ماذا تتحدث؟

لكن خيال ضاحي قد اختفي كاملا، فتركت نفسها إلى جاذبية الثقب لتعود مرة أخرى إلى المعبد.

لم تفكر في النهوض بعد أن قذفتها البوابة أرضا.

تلك الكلمة التي أثارت عاصفة من الأسئلة داخلها.

"النبوءة"

تعلم من واقع دراستها أن الكهنة كانوا يتنبئون، بل أن كانت مهنة العرافة والتنبؤ بالمستقبل رائجة، وكان العراف كلما صدقت تنبؤاته صار مقربا للملك.

ربما خبأت جدتها الأوراق قبل مقتلها بوقت قصير خشية وقوعها في اليد الخطأ.

أفاقت من أفكارها على صوت الهاتف، فوجدته حسام.

طلب منها أن تأتي إلى الفندق لأمر هام.

الفصل الخامس والأربعون

كانت شاردة الذهن، فاترة الشعور، ليس لديها حماس لتعلم بما وصل إليه حسام و إبراهيم.

ملاحظة حالتها لم تكن عسيرة على أي شخص، حدثها حسام بقلق واضح في صوته:

. ماذا حدث لك؟ هل ضايقك شخص اليوم؟

هزت رأسها نافية:

. لا أبدا، أنا فقط متعبة، لا أعلم ما أصابني، لقد فقدت حماسي فجأة.

. هذا يحدث أحيانا من كثرة الضغوط والمسئوليات، ولأنك غير معتادة على ضغط التحقيقات، وتلك القضية كانت أكثر تعقيدا من الأولى.

مسحت عينيها محاولة إزاحة تفكيرها عما حدث في المعبد، والتركيز معه، كان يبدو سعيدا ومتفائلا، قراءة ملامحه أصبحت عفوية وسريعة بالنسبة لها:

. ماذا وجدتم في تلك الفيديوهات؟

. حللنا القضية.

. هل سنستطيع إدانة عوض وآمال؟

. نعم، اتصالاتهم كما توقعت تماما، دليل كبير على علاقتهم إلى جانب هذا.

ورفع في يده قرص تخزين رقمي.

. ماذا يوجد به؟

. إنه فيديو يوثق خروج آمال متنكرة في جلباب زوجها ومعها جوال واستقلالها سيارة بصحبة عوض.

. ستخبرنا كما أخبرتنا سابقا أنه زوجها.

. هذا مستحيل إن كاميرات الأمن والمراقبة بالمعبد صورته في نفس التوقيت جالسا بصحبة الحرس يشرب الشاي مرتديا عباءة مختلفة.

كما أن ملامحها في الجلباب تبدو أقل حجما من زوجها.

. هذا أكثر مما حلمت به.

. ذهب إبراهيم ليحجز لنا تذاكر العودة.

قالت بضيق يغمر صوتها:

. جيد أنا أريد العودة، افتقدت المنزل كثيرا.

نظر لها محاولا فهم سبب ضيقها

إحساسه يخبره أن هناك سببا آخر غير الذي قالته سبب لها الضيق.

طال الصمت بينهما، عندما أدرك حسام أنها ستغادره إلى غرفتها أسرع بالحديث:

. في الحقيقة لقد استمتعت بهذه القضية أيضا، والفضل كله يعود لك.

. أنا لم أفعل شيئا غير اعتيادي، لكنك أنت تعملين بطريقة غير اعتيادية تمكنك من النجاح.

احترم ذكاءك للغاية وتفانيك في عملك.

. أنا أعطيك حقك في الثناء.

لولاك لما أتينا هنا للتحقيق

قبضنا على عصابة للتزوير والاتجار في الآثار وقتلة أطفال

ولحاد يتخلص من الجثث لمن يدفع.

إنها أكبر قضية حصلت فيها على مكسب والفضل كله يعود لك

ابتسمت متقبلة ثناءه:

. ماذا ستفعل عند عودتك للقاهرة؟

. سأقدم تقريرا بالطبع، وأذهب لطبيب حتى اطمئن، وربما

صمت قليلا ونظر إليها:

. وربما نلتقي لنشرب القهوة معا.

ابتسمت وظهر عليها التردد، كيف لها أن توافق على مقابلته، من الخطأ أن تعطي لقلبها فرصة للتعلق به، راجعت عقلها سريعا، لكنها لم تحبذ إحراجه:

. بالطبع، سأتصل بك عندما انتهي من عملي.

شعر بالحرج قليلا من ردها، وفهم أنها تهرب لكنه لم يكن يلومها، وتلك القطعة الفضية التي لا تنتمي إلى قلبه موضوعة في يده لتعلن للناس أنه مرتبط.

قطع الإحراج بينهما هاتفا تلقاه حسام، غير من ملامح وجهه، بعدما أغلق المكالمة، سارعت بسؤاله:

. ماذا حدث؟

تحدث بغضب:

. لقد قتلت آمال في غرفة الحجز، وجدوا جثتها منذ قليل.

. كيف حدث هذا مع كل ذلك التأمين؟

. أخبرني الضابط المسئول أن كاميرات المراقبة قد تعطلت لمدة نصف ساعة.

زفرت في ضيق:

. في النهاية لقد نالت ما استحقته، ولم تكن لتعترف أو تتكلم.

الفصل السادس والأربعون

بعد مرور ثلاثة أيام..

تجنب حسام منذ عودته الحديث مع والديه تماما، وقضى أغلب وقته في مكتبه، حتى أنه نام ليلتين هناك.

كان يرتب أفكاره فيما سيفعله مع خطيبته، وما سيفعله مع والديه.

ورغم ملاحظته أن والديه حاولا الحديث معه عدة مرات بأسلوب لين لكنه احتاج إلى العزلة لأول مرة في حياته.

العمل وضغوطه كان أكثر رحمة عليه من المنزل ومشاكله، لكنه لم يهمل ذهابه للطبيب.

بعد عودته مباشرة ذهب إلى أحد أصدقائه المقربين الذي يعمل طبيبا في مستشفى ضخم، سرد عليه ما يشعر به من صداع، ونزيف الدماء الذي أصيب به.

طمأنه الطبيب، أن تلك في الغالب أعراض إرهاق شديد، وفقر للدم، طلب منه أشعة وتحاليل يجريها ويأتي بها حتى يطمئن أكثر.

استلم حسام فحوصاته، واتجه بسيارته إلى "فهمي" صديقه، لكنه كان يشعر بالقلق بسبب نظرات تلك الممرضة التي سلمته الفحوصات.

حدثه في الهاتف ليخبره أنه آت إليه بالفحوصات التي طلبها، وانطلق بسيارته إلى العيادة الخاصة بصديقه.

انتظر حتى أخبرته الممرضة أنه يستطيع الدخول، لم ينتظر مع المرضى، بمجرد علم صديقه أنه موجود بالخارج سمح له بالدخول.

. كيف حالك يا فهمي؟

. بخير يا صديقي، وأنت؟

هز حسام رأسه مجيبا:

. بخير الحمد لله، شكرا لأنك عجلت بدخولي إليك.

ضحك ليرد عليه مازحا:

. ستردها لي يا صديقي، فقد ارتكبت مخالفات مرورية كافية لتدمير القاهرة.

ابتسم حسام له وهو يتذكر حوادثهما معا بسيارة أبيه:

. أنا لا أعلم أي ضابط أعطاك رخصة القيادة، لكن ما أعلمه أنه يجب أن يحاكم.

. من حسن الحظ أن صديقي ضابط أيضا وسيساعدني.

. وكأنني أريد أن تقام لي محاكمة وأفقد وظيفتي.

جلس فهمي ومد يديه مبتسما لحسام:

. أعطني الفحوصات لأطمئنك.

ظل حسام متمسكا بأوراق الأشعة والتحاليل بعد أن أعطاها له:

. أريدك أن تخبرني بالحقيقة مهما كان سوء حالتي، لا تخبئ شيئا يا فهمي.

. يا رجل اهدأ، لن يكون هناك شيء، أنت تضخم الموضوع.

فتح ملف الفحوصات، تناول التحاليل أولا قرأ محتواها، ثم أمسك بلوحات الأشعة التي أجراها حسام على رأسه أمام النور ليفحصها.

تابع حسام التغييرات التي طرأت على وجه صديقه، الضيق والحزن، والارتباك الذي ظهر عليه.

أعاد فارس فحص وقراءة التحاليل مرة أخرى، وعندما أمسك اللوحات ليعيد قراءتها، أمسك حسام يديه:

. أنت طبيب ولا تحتاج لقراءة فحوصاتي مرتين، أخبرني ماذا تقول تلك الأوراق.

خلع نظارته وألقى بها بعصبية على المكتب:

. إنها عدة أورام منتشرة في مناطق عدة في المخ، وطبيب الأشعة يظن أنها سرطانية.

تجمد حسام في مكانه، ينظر إلى صديقه الذي هرب بعينيه ناظرا إلى سطح مكتبه، لا تجد الكلمات طريقها إلى فمه.

ساد الصمت لدقيقة، حتى تكلم حسام:

. كم شهر لدي لأعيشه؟

حدثه فهمي بعصبية:

. لا تقل هذا يا حسام، سأذهب بك إلى كبار الأطباء، ونضع خطة للعلاج..

قاطعه حسام بحدة:

. فهمي أنت صديقي، أنا أسألك سؤالا أريد أن تجاوبه بصدق، أرجوك، كم لدي من الحياة؟

زفر في ضيق:

. شهران أو ثلاثة وربما أكثر يا حسام، لكن أرجو ألا تفقد الأمل، علينا البدء في علاجك في أسرع وقت.

نهض حسام من مكانه، ململما الأوراق من أمام صديقه:

. كل ما أريده منك بحق صداقتنا ألا تخبر أي أحد عن مرضي، وبخاصة أبي وأمي.

. حسام ما تفعله خطأ بكل معان الكلمة، عليك ألا تستسلم، وأن تعطي فرصة للأشخاص حولك لدعمك.

. أنت تعلم أن كل هذا لن يجدي، أنت طبيب وتعلم أن النهاية أتت، أرجوك بحق الصداقة بيننا دعني اختار حياتي في آخر أيامي.

تركه مغادرا العيادة، هائما على وجهه.

لأول مرة ينهار

غالبته دموعه.

بكى كثيرا

لم يهتم لأمر السيارات التي تمر بجانبه.

ولم ير الناس أمامه

رأى عمره وحياته صارت لا شيء

كل ما عليه أن يحدد حقا كيف سيعيش تلك الأيام القليلة المتبقية له...

الفصل السابع والأربعون

وقف حفاو أمام مخطوطة ضخمة. لون أوراقها الداكن يدل أنها شديدة القدم. عندما دخلت ليكتارا مساعدته إلى المكان، وأدت له التحية في صمت.

رفع نظره إليها ليسألها:

. ماذا لديك يا ليكتارا؟

. مساعدتي التي أخبرتني بشأن ضاحي والمفتاح تم القبض عليها هي وزوجها والشخص الآخر الذي جلب لنا القرابين الثلاثة.

حك ذقنه في غيظ:

. وأخمن أن حفيدة توفيق وراء كل هذا؟

. نعم، أخبرت مساعدتي أنها تعلم بشأني وأنها تريد رؤيتي.

ضحك في خبث:

. قريبا سنعطيها ما تريد، لا تقلقي إن فرصتك ستنالينها.

وماذا فعلت مع مساعدتك تلك؟

. لقد علمتني أننا لا نترك فتات خبز خلفنا، لقد تخلصت منها.

. جيد جدا، ماذا فعلت لذلك الضابط الذي يساعدها؟

. تم كما أمرت، أنه يعاني من مرض مزمن سيقتله خلال شهور.

نظر لها حفاو مبتسما بخبث:

. نظرات عينيك تقول أنك عثرت على سر ما.

ابتسمت بدورها:

. حصلت على عينة من دمائه عندما ذهب ليجري تلك الفحوصات الطبية.

. وبعد؟

. إنه ليس ابنا لوالديه، أخمن أنه متبني ولا يعلم بذلك سوى والداه.

ابتسم حفاو ابتسامة أكثر اتساعا:

. علينا أن نخبر المسكين بالأمر

هذا إذا وجد وقتا للبحث عن والديه الحقيقيين

يبدو أن الكل ينهار في طريقي.

إلى اللقاء في الجزء الثالث والأخير...

أتمنى استقبال أرائكم عن الرواية على

صفحتها على الفيس بوك :

"أبناء الآلهة "

أو على صفحتى الخاصة :

Mareaham kadis